فكرة المغرب العربي
من خلال الوثائق الدبلوماسية

د . عبد الهادي التازي

مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي
الرباط

اذا كان المغرب قد حافظ بجدية وفعالية على صلاته ببلاد المشرق عبر التاريخ، فان حفاظه على علاقاته بايالات المغرب الكبير ظل حقيقة قائمة ثابتة . ولم يكن مرد ذلك راجعا فقط الى الايمان بوحدة الواقع الجغرافي والسلالي واللغوي ، ولكن المغرب ما انفك يعتبر هذه الوحدة قدرا ومصيرا ، يجب أن تتضافر الجهود من أجل الاستجابة لها والاقتناع بضرورتها ، وهو حكم كان وليد تجارب قرون خوال بلغت فيها بلاد المغرب الكبير قمة عزها وأوج عظمتها عندما كانت موحدة قبل أن يتناثر عقدها وتتبدد كلمتها .

سوف لا أتحدث هنا عن الآثار التي خلفتها تلك النوازع والطموحات التي استهدفت بناءنا واستقرارنا نحن أبناء الشمال الافريقي ، كما وسوف لا أستعرض هنا تلك الايادي الخفية التي كانت تحرك هذا الفريق على ذاك أو ذاك على هذا .. ولكني سأقصد الى ابراز بعض المحاولات التي بذلها المغرب من أجل تجسيد هذه الوحدة وجعلها حقيقة ملموسة ، ايمانا منه بأنها الطريق الذي لابديل له اذا كان القادة يهتمون حقيقة بقضايا الازدهار والتقدم في بلادهم ..

ولابد من الاشارة منذ البداية الى أننا نتحدث عن فترة محددة هي الفترة التي تبتدىء من أواسط القرن الحادي عشر الهجري/أواسط القرن السابع عشر الميلادي، بل عن بعض الجوانب فقط من هذه الفترة ، واذا كنت صادقا مع وثائقي فانني أمام مجرد اشارات وومضات ولكنها اشارات وومضات دالة عميقة تعطي البرهان بالوسيلة الواضحة على أن بلاد المغرب كانت ما تزال تحسن الظن بفكرة المغرب العربي ..

ولكي أجعل نفسي معكم في الجو الذي نتحدث عنه ، أذكر **أولا :** أن ايالات الشمال الافريقي ، باستثناء المغرب الاقصى ، لم تلبث أن وجدت نفسها وجها لوجه أمام العثمانيين الذين أصبحوا بالفعل سادة الموقف لفترة تتجاوز ثلاثة قرون ونيف ..

ثانيا : اذكر أن العثمانيين ظهروا على المسرح الدولي واختفوا منه ، وهم يحملون معهم الشعور المرير بسبب انهم لم يتمكنوا من تحقيق كل ما كانوا يتوقون اليه في هذه المنطقــة ..!

ثالثا : انهم ، اي العثمانيين ، كونوا لهم خصوما شرسين في اوروبا كانوا ينظرون الى القسطنطينية نظرة حذر ويقظة .. وكانوا يبحثون ، بأي ثمن ، عن الحليف الـذي يساعدهم على تطويق الخطر العثماني .

رابعا : ومع أن جهاد العثمانيين كان يتجه نحو الممالك المسيحية جميعها .. فقد شاهدناهم ـ ومع ذلك ـ يعقدون اتفاقيات وأوفاقا مع بعض تلك الدول لمضايقة دول مسيحية أخــرى ...

خامسا واخيرا : ان العثمانيين اتــراك ، اي انهم ليسوا عربا ... والايالات المغربية تعتز بالعروبة بل وتعتبر نفسها عربية ... ومن ثمت قرانا عن الحملات التي كانت تشن بين الفينة والاخرى ضد النفوذ العثماني سواء منها الحمـلات المسلحـة او الدبلوماسية ، وقد كان من ابرز أولئك الذين حملوا على الاتراك ، المواطن الامازيغي السفير ابو القاسم الزياني الذي لم يترك فرصة دون رفع عقيرته بالشكوى من تجني بعض الاتراك على الايالات التي يحكمونها ، وقد سخر ذات يوم عندما سمع انهم (اي الاتراك) كانوا اذا استحسنوا من شخص ما عملا من الاعمال واكتشفوا أن القائـم بـه عربي ، قالوا : « ما الطفه لولا انه عربي » ! وهي حملة من الزياني لهـا دلالتها التـي **لا تخفى ، فقد نشأ الزياني في أحضان الاسرة المغربية التي عرفت أوج أيامها في عهد** المرابطين والموحدين ، عندما ازدهر قلم الانشاء العربي في دواوينهم وفي ممارساتهـم **الداخلية والخارجية ، لانهم وجدوا فيه ، اي الحرف العربي ، علاوة على قداسـته ، وجدوا فيه الوسيلة الفعالة لالتفاف البلاد على كلمة واحدة ، سواء في الاندلس أو في** بـلاد المغـرب .

★ ★ ★

لقد قرانا في الرسالة التي بعثها اول ملوك الدولة العلوية الى الجزائر بتاريـخ ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤ م ، قرانا شجبة للمد التركي في تونس وتلمسان ، وانتقاده صنيـع السعديين قبله الذين لم يسعوا لتصفية تلك الامصار من وجود « الاعجام » على حـد تعبيـره ..!

كانت الرسالة من انشاء الشيخ التاجموعتي والقاضي رضوان ، ونصها محفوظ بالمكتبة المغربية ...

هذا هو الوضع على ما رأينا . . . ولا بد اننا نتصور بعدهذا حراجة موقف المغرب على الصعيد العالمي ، سيما ونحن نعلم أن له التزامات سابقة مع المجموعة الدولية قبل أن توجد الدولة العثمانية .

ودعونا نستخلص الصورة لهذه الاقطار المغربية التي ظلت على ما اشرنا حريصة على تحقيق فكرة الوحدة في ظل عروبة شاملة .

ان القيام باحصاء دقيق لهدف السفارات الاجنبية التي تواردت على المغرب الاقصى في صدر دولة العلويين كان هو نفس الهدف الذي كان للبعثات الدبلوماسية التي وردت على المغرب اواخر العهد السعدي السابق :

كل الدول التي شعرت بمتابعة أو مطاردة من القسطنطينية العظمى قصدت المغرب أملا في أن تجد منه حليفا ضد تركيا ، سيما وقد كان المغرب من الجهات التي برهنت على صلابة عودها وقوة شكيمتها ازاء المد العثماني .

وجدنا في المغرب سفارات من دولة فارس التي تجاور تركيا ، ومن امبراطورية النمسا أيضا ، ووجدنا سفارات من هولندا ومن اسبانيا . . . كل يريد أن يصور الخطر الذي يكمن في الوجود التركي ، وكل يريد ان يبرر ضربهم والالقاء بهم في البحر !!

وبودي لو كان لنا متسع من الوقت لكي نستعرض جميع التقارير التي رفعها السفراء المعتمدون في المغرب الى حكوماتهم ، سواء فيهم من كان يتمتع بصلات خاصة بالبلاط أو من كانت له دالة على بعض رجال الدولة أو من كان منهم محترفا يباشر مهامه بموضوعية . . . ولكن لابد أن أذكر مع هذا ان في هذه التقارير ما كان يهتم بنوع الاغراء الذي كان يقدم للمغرب حتى يقوم بحركته الفاصلة ضد الاتراك في الايالات المجاورة . وأذكر – على سبيل المثال – من بين هذه الاغراءات تمكين المغرب من منطقة شاسعة تصل حدود طرابلس . . . ولكن تلك التقارير كانت تضطر أصحابها الاجانب للتعقيب قائلين :

« اننا مهما بذلنا من عروض المغرب فسيظل عطفه على الايالات العثمانية هو نفسه بالرغم مما يلحقه من مضايقات من الاتراك ، اننا عندما نتحدث الى المغرب بما يبيت له طرف الاتراك لا يتردد في القول بانه باستطاعته ان يقف امام كل تحرك يستهدف النيل منه ،ولكنه لا يستطيع ان يمضي حلفا ضد اخوانه في الدين » . . .

في استطاعة كل واحد ان يقرا في تقارير من هذا النوع تلاحم الاسرة المغربية وعملها في باب المحافظة على المبادىء الاساسية للتعامل .

دعونا نتتبع قليلا سفارة السير انطوني شيرلي A. Sherly الى الديار المغربية أوائل القرن السابع عشر ... لقد كان الامر يتعلق ـ كما نعرف ـ بتحرك دولي ، في البداية من الشاه عباس الكبير في أعقاب ما كان يبلغه عن المراسلات المغربية التي كانت تهنىء الباب العالي بانتصاراته ضد الصفويين ... ذلك التحرك الذي لم يلبث أن تعزز أيضا بتكليف أنطوني شيرلي من طرف رودولف الثاني امبراطور ألمانيا ، ثم بمهمة البابا كليمان الثاني لدى ملك المغرب ، وأخيرا بالفكرة الجريئة التي كانت تراود فيليب الثاني ملك اسبانيا لكسر الحلف العثماني الفرنسي المبرم عام١٥٤٣ بين سليمان القانوني وبين فرانسوا الاول ... نحن أمام رسالة حررت في مدينة مراكش بتاريخ ١٦ دجنبر ١٦٠٥ من طرف كوي Coy الوزير الهولندي المعتمد في العاصمة المغربية .

ان مهمة شيرلي تتركز على اقناع المغرب بمناهضة الاتراك وطردهم عن الشمال الافريقي ... وقد استنتج السفير الهولندي من هذا أن الطلب لابد أن يجاب **بالرفض من طرف العاهل المغربي الذي اعتاد على ان لا يحالف احدا من المسيحيين ضد المسلمين .. اللهم اذا كان الامر يتعلق بدفاع عن كيانه ... ومع ذلك فقد كان يهدد ولا ينفذ !!**

وهذه الرسالة من الدبلوماسي الفرنسي الدكتور ارنول دوليسل A. de Lisle الذي كان طبيبا للاسرة الملكية قال : انه علم بواسطة الاميرة المغربية لالة صفية أخت السلطان أبي فارس ، أن شيرلي Sherly ورد من طرف اسبانيا لتأليب العاهل المغربي ضد تركيا على امتداد الساحل الافريقي ، من جبل طارق الى تونس ، وان ملك اسبانيا سيعد العاهل المغربي بمساعدته على هذه الحركة على أن يتم الاتفاق بعدالنصر النهائي على توزيع الشمال الافريقي بين ملك المغرب وملك اسبانيا ، فيصبح الساحل لملك اسبانيا والداخل كله لملك المغرب حتى تونس .

ويضيف التقرير الفرنسي بأن اسبانيا منذ ان ارتبط الاتراك باتفاقيتهم مع فرنسا أخذت تخطط لهذا المشروع وانها ، من أجل تحقيقه ، عدلت عن وعدها بمناصرة ملك البرتغال في وقعة وادي المخازن ، وان هذا المخطط لم يمت بوفاة السلطان المولى عبد الملك وجلوس أخيه أحمد المنصور على العرش بل انها ، أي اسبانيا ، ما انفكت تستغل حوادث الحدود الشرقية مع الاتراك في الجزائر لتجعل العاهل المغربي

أكثر اقتناعا بقبول الحلف المذكور ، بيد ان ملك المغرب (يقول التقرير الفرنسي) ظل يتملص من اتفاق من هذا النوع ... ان المغرب غير متحمس للتحالف مع المسيحيين ضد الاتراك ولو انه بالمرصاد لهؤلاء عندما تحدثهم نفسهم بالتعدي على التراب المغربي ، وقد كان مما يشجع اسبانيا (يقول التقرير الفرنسي) على مفاتحة المغرب حول هذا المخطط اقناعه بالكره الذي يكنه ايضا سهل الجزائر وتونس للاتراك وميل السكان في المنطقة المذكورة لتكوين وحدة ضد الاتراك الذين ظلوا يعتبرون بعيدين عن المنطقة .

ويضيف التقرير الفرنسي ان نجاح مثل هذا المشروع من شأنه ان يلحق ضربة قاسية بمصالح فرنسا بقدر ما هو في صالح اسبانيا سواء ايام الحرب وأيام السلام ، ويختم التقرير بذكر انطباعات المبعوث الفرنسي على هذا النحو : « انه ، حسب التجربة التي يتوفر عليها طيلة المدة التي قضاها بالمغرب لا يعتقد ان المسؤولين المغاربة يخدعون أبدا بعروض اسبانيا التي تظل العدو المشترك لكلا الفريقين » .

وقد ورد هذا التقرير في مجموعة (دوكاستري) المعروفة تحت عنوان (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب) (القسم السعدي الفرنسي) السلسلة الاولى ، المجلد الثاني ص ٣٣٠ ، وكذلك في (القسم السعدي الهولندي) السلسلة الاولى ، المجلد الاول ، ص ١٠٨ ، التعليق رقم ٢ ...

وان المرء ليشعر بالغبطة العارمة وهو يسمع في تلك الايام عن الصلات المنتظمة التي كانت للجزائر مثلا بالمغرب ...

ولننتقل بعد هذا الى نوع اخر من الوثائق الدبلوماسية التي يزخر بها الارشيف الاوروبي ، وبخاصة الفرنسي والاسباني والتركي ...

لقد كانت تركيا على ما نعرف مرتبطة مع فرنسا باتفاقيات وأحلاف كان أقدمها ما عقد بين السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الاول سنة ١٥٤٣ ...

الاتفاقية كما اشرت تهدف ضرب مصالح اسبانيا ... لا لهدف الا انها تتحالف مع فرنسا حول قضايا تتصل بوراثة العرش ...

ولا بد أن تسير الولايات التابعة للباب العالي مع خط أهداف تلك الاتفاقيات .. وحيث ان المغرب ظل الصخرة التي تحطمت عليها مطامع الاتراك في الامتداد ، فقد كان على فرنسا ان تحاول بشتى الوسائل الدبلوماسية الحصول من المغرب على اتفاق يشبه ما عقدته مع الباب العالي في شأن مضايقة اسبانيا ...

وهنا الفت النظر مرة اخرى الى ملف زاخر حافل بما كان يجري على ساحة المغرب الكبير من اصطدامات واحتكاكات ومواجهات لم تكن في الاصل من صنع محلي داخلي ، بقدر ما كانت من صنع اجنبي خارجي ، اي ان هناك ادمغة بعيدة عن المنطقة من حيث المسافة ومن حيث المعتقد ، ومن حيث الهدف ، تلك الادمغة هي التي تدبر ، وعلى الاخوة ان يقاتلوا لتنفيذ ما دبر . !!

نحن نعيش أيام المفاوضات الجارية بين السلطان المولى اسماعيل وبين الملك لويس الرابع عشر ، من اجل الوصول الى اتفاق ... لكن المغرب قبل ان يقبل السير قدما في التوقيع على معاهدة من هذا القبيل ، كان يريد ان يعرف فوائد الاتفاق وعوائده منه قبل كل شيء ، ان مضايقة اسبانيا لاجل المضايقة فقط امر لايهم ، سيما وقضية وراثة العرش لاتتصل به ولا بتقاليده ، ولكنه مع ذلك يقبل ان يجلس للمناقشة على اساس ... وقد كان السؤال الذي وضعه المغرب على مفاوضيه الفرنسيين هو : ما اذا كانت فرنسا جاهزة لمساعدة المغرب على استرجاع مدينة سبتة ؟ لقد كان السلطان المولى اسماعيل قد حرر المعمورة وطنجة والعرائش واصيلا ... ولكنه امام سبتة التي تحتاج الى عون واي عون !!

ان سبتة تشكل كما هو معلوم شبه جزيرة ... ولذلك فان السيطرة عليها انما تتم لمن يتوفر على اسطول قوي ، ومن ثم كان القائد داود بن عائشة ، قائد الجيش المرابطي قد اشترط على الذين استنجدوا بالمغرب من الاندلس ان يوافوه بأساطيل ابن عباد لتحيط بسبتة قبل ان ينزلها هو من البر ...

ومن ثم أيضا وجدنا السلطان المولى اسماعيل يستخدم في فترة من الزمن ورقته الدبلوماسية مع انجلترا عندما احتلت جبل طارق ، على نحو ما سيفعله السلطان المولى سليمان بمناسبة ظهور نابليون على الساحة الدولية ...

لقد ظهر ان الملك لويس الرابع عشر كان يريد الحصول على توقيع اتفاقية بدون مقابل ،! ومن هنا شاهدنا تشنجا في العلاقات بين البلدين : فرنسا والمغرب ... لم يلبث ان استحال الى توتر .. ومن العادي ان يقع بين الدول ذلك التشنج أو التوتر عندما لا تصل الى اتفاق فيما بينها ... ولكن الشيء الغريب ان يتحول القلق الدبلوماسي الى المواجهة المسلحة ، بل ان الاغرب من كل ذلك ان تكون هذه المواجهة على حدودنا ومع اشقائنا في الجزائر ، وان الاكثر غرابة من كل هذا ان نجد آثارا تدل على أن الحلف التركي الفرنسي كان يقوم بواجبه بكل نشاط في الناحية الشرقية من المغرب !

ومن ثم ففي استطاعتنا ان نستقصي حوادث الحدود بين المغرب والجزائر **ونضبط تواريخها وايامها ، وننتقل في الوقت ذاته الى أيام التشنج والتوتر بين المغرب** وفرنسا لنشهد الظاهرة الغريبة والمصادفة التي لا تخطىء عن الارتباط بين المساومات **هنا والتشنجات هناك !!**

ولا بد ان نشير بصفة خاصة لصورة من تلك المواجهات المؤسفة التي عرفتها سنة ١١٠٣ هـ/١٦٩٢ م قبل ثلاثة قرون ، حيث نجد خطابات مكتوبة موجهة من الاتراك **الى لويس الرابع عشر تشكو من اتفاق مزعوم بين المغرب وتونس لتصفية الوجود** التركي بافريقيا !! ونجد في الوقت ذاته خطابات تهديد للمملكة المغربية من الباب العالي الذي يتساءل عن السبب في عدم تحرير بقية الثغور المغربية والانشغال بوجود الاتراك في افريقيا !! الامر الذي لم يتردد السلطان المولى اسماعيل في الجواب عنه مخاطبا العثمانيين بما مفاده : **وماذا منعكم انتم من تحرير وهران الى الان مع انها في متناول اليد ، وعوض تخليصها تسمحون لانفسكم باذابة الاعراب هناك ...** ومرة أخرى نجد **الاتراك يرفعون الشكوى للباب العالي بأمر « حلف » جديد موجه ضد وجودهم** بافريقيا ، وهذا الحلف المزعوم هذه المرة يضم علاوة على المغرب كلا من طرابلس وتونس ... وقد جاء هذا الوهم من كون المغرب كان يتوسط في كثير من الاحيان بين **الايالتين المتجاورتين ، تونس وطرابلس ، لاصلاح ذات البين فيما بينهما !**

قد نتساءل عن مدى الصلة بين المغرب وبين تونس وطرابلس حتى يقوم المغرب بمعالجة مشاكلهما ... وهو سؤال موضوع حقيقة ، وفيه نجد بدورنا جوابنا عن الشعور الذي يخامر المغرب الاقصى بالاحتفاظ بالمغرب الكبير عربي القلب واللسان ... وانه ـ أي المغرب ـ بالرغم من تقديره للعثمانيين كمقاتلين مناضلين ، الا انه لم يخف استنكاره لشعورهم المعادي في بعض الاحيان على ما يقال ...

وان من المهم ان نشير لرسالة اسماعيلية الى لويس الرابع عشر بتاريخ ١٤ **جمادى الاولى ١١٢٢ هـ ٢٢ يوليه ١٧٠٩ م ، يعرض المغرب فيها على فرنسا المساعدة** العسكرية له ولحليفته تركيا ضد النمسا ... وقد جاء في هذه الرسالة قول العاهل المغربي : « انه بالرغم من نظرة تركيا للعرب ... وخوفها من وحدة كلمتهم .. فاننا على أتم الاستعداد للوقوف الى جانب فرنسا مادامت تعمل يدا واحدة مع تركيا ... » وقد جاء في الرسالة على الخصوص : **« ان الاتراك يحنقون على العرب حنقا زائدا وذلك لكثرة عدد العرب ... انهم لو اجتمعوا وغادروا الصحراء لامكنهم** ان يستنزفوا اكبر نهر في الدنيا ، علاوة على انهم يخافون اشد الخوف من أن يقوم العرب استقبالا بدور يأتي على ممالك تركيا وهو الشعور الذي يفيده عدم الاعتراف للعرب اطلاقا بما

يقدمونه للعثمانيين من مساعدات كان عليهم أن يعترفوا بها ويشيدوا بها ولا ينسوها.. ومع ذلك تقول الرسالة الاسماعيلية الى لويس الرابع عشر - فاننا نعلن عن استعدادنا لتقديم المساعدة والعون اليكم لطرد النمسا من اسبانيا وذلك بسبب واحد : انكم توادون الاتراك وتحبونهم ... **وان حبنا نحن للاتراك نابع من كونهم حراس الحرمين الشريفين وبيت المقدس ... »**

ولا ينسينا اهتمام المغرب باخوته الاتراك،التعرض للمشكل القانوني الذي وضعه الفصل العاشر من المعاهدة المغربية النمساوية ... ان هذا الفصل ينص على انه اذا وقعت الحرب بين الملة النصرانية وبين الملة الاسلامية فان العلاقات بين الطرفين المغربي والنمساوي لا تتأثر بهذه الحرب بل تبقى المحبة والمودة بين الجانبين . اذا ما قارنا هذا الفصل بما ورد في نص الشعار الذي رفعه المغرب آنذاك : « **نسالم من يسالم تركيا ونحارب من يحاربها** » واذا قارناه بما ورد في خطاب العاهل المغربي لملك فرنسا ، فسنجد أن هناك تناقضا بين هاته المواد ...

والواقع ان المغرب ظل يتجاهل ، بكل بساطة ، سائر البنود التي تحد من اتصالاته باخوته في الدين مهما كانت النتائج ... ومن الامانة للتاريخ ان نحضر حوارا بين العاهل المغربي واحد وزرائه ممن كانوا لا يرون جدوى في اغداق المساعدات على العثمانيين ، لقد سأل العاهل وزيره عما يقوله الناس حول مساعدته المادية للاتراك ، فأجابه الوزير بصراحة زائدة : انهم يقولون : لو صرفت هذه الاموال في **الجهاد بالمغرب لكان أولى ...** ولكن العاهل المغربي اقنع وزيره بأن الامر يتعلق بالتخفيف عن الاخوة من الضربات الموجعة التي تتوالى عليهم من أعداء الاسلام ، على حد تعبيره .

وحتى نعرف ان وقوف المغرب الى جانب فرنسا لم يكن موقفا عشوائيا .. يجب ان نرحل الى الارشيف الفرنسي لنجد من جهة أخرى رسالة احتجاج قوية اللهجة تصدر عن المغرب الى فرنسا بصدد الاعتداء الذي **وقع على تونس من طرف الجيش الفرنسي ...**

ويتعلق الامر بالقلق الشديد الذي عم المغرب وهو يسمع عن قصف المدفعية الفرنسية لسوسة ... بعد أن امتنع الباشا علي باي عن ارضاء المطالب الفرنسية الملحة . وهكذا نجد رسالة **تحمل تاريخ ٦ ذي القعدة** ١١٨٤ هـ/٣ مارس ١٧٧٠ م موجهة من العاهل الى لويس الخامس عشر ... وقعها عنه الوزيران المعروفان : احمد المهدي الغزال ، وعبد الهادي السلاوي ...

لقد أعطى السلطان سيدي محمد بن عبد الله مهلة أربعة شهور لكي تعيد فرنسا النظر في سياستها ازاء تونس والا فانه مضطر لاشهار الحرب عليها ..! الامر الذي جعل فرنسا تجيب عن الاحتجاج معتذرة وموضحة الاسباب التي دفعت بها لقصف المدينة . وتم الاتصال عندئذ بالقنصل الفرنسي بالمغرب الذي عبر عن الرغبة في ان تعود المياه الى مجاريها .

وان مما يدخل في اطار الثقة المتبادلة بين أطراف المغرب : التزكية التونسية التي اعتمدها المغرب فيما يتعلق بتبرئة ساحة جمهورية (دوبروفنيك) مما الصق بها من عبث سفنها التجارية بالحجاج المغاربة وانزالهم بمالطة عوض تطوان وسلا ! تلك الشهادة التي أنشأها العدل التونسي السيد أحمد بوستة ، وزكاها شيخ المغاربة بتونس الحاج عبد السلام مقنين ... ونحن نعلم أن هذه الحادثة هي التي سببت ضرب الحصار من طرف المغرب في البحر المتوسط على سفن سائر الدول الاوربية ما دامت لم تساعد على كشف هوية السفينة المعتدية ... فعلا تبين أمر المغاربة الذين عادوا يحكون عن أيامهم التعسة في « مالطة لا فراش و لاغطا » ... مصداق المثل المغربي المشهور الذي يقول : الله يديه لمالطة لا فراش ولا غطا !

فماذا عن الاحتلال الاسباني الذي تجدد لوهران ؟ لقد كتب السلطان محمود الاول الى العاهل المغربي يطلب اليه الاستمرار في مساعدته للعثمانيين من أجل تخليص الثغر ... وكانت فرصة اغتنمها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لعقد اتفاق سري يهدف الى العمل يدا واحدة لتطهير السواحل المغربية من الاحتلال الاسباني « من وهران الى سبتة » على ما تذكره الرواية الاوربية .

وهنا نفتح ملفا من الملفات الحزينة التي تكشف عن جوانب اخرى من المعوقات الخارجية التي كانت تقف دون الخطوات نحو الوحدة بعد أن سمعنا عن المعلومات السابقة ...

ويتعلق الامر بالتناور الذي كانت تقوم به اسبانيا أيضا للتأثير على بعض الدايات ... ان اسبانيا ــ كما قلنا ــ كانت تبسط نفوذها على بعض الثغور الجزائرية على نحو ماكان عليه الامر بالنسبة للمغرب ، وفي كل مرة كانت اسبانيا تشعر بعزم صادق من احدى الجهتين لمد يده ليد الجهة الاخرى ، تعمد الى هذه الجهة أو تلك لتمني وتغري ، وهنا كنا نشهد الكوارث ... ولابد من العودة الى الوثائق الاسبانية لنقرأ مئات الدلائل على ضروب الكيد والغدر التي كانت توجه في الخفاء ضد التقارب بين أقطار المغرب ولكسر كل تضامن يهدف لتصفية الاحتلال الاسباني على سواحل بلاد المغرب ...

هل نحن بحاجة للتذكير بما حصل والعاهل المغربي يحاصر العرائش ..ويجهز جيشه نحو شمال المغرب ... كلنا يعلم ان هذا الوقت بالـذات هو الـذي اختيـر للمناوشات التركية على الحدود الشرقية ..! بل ان كلنا يعلم ان الامر لم يكن مجـرد (صدفة) ولكنه كان وليد (وصفة) استعمارية ! وبهذه المناسبة أرجو أن تسمحـوا لي أن ألفت النظر الى أن المؤرخين الذين يكتفون بالحديث عن « اصطدام هذا الجانب بذاك أو تحرش ذاك بهذا » أو يتحدثون عن فشل هذه التجربة بوجود فلان أو فلتان كانوا ، في نظرنا ، مؤرخين قاصرين سطحيين ... ان عليهم أن يبحثوا عن أسبـاب الفشل ليس فقط فيما تتناقله مؤلفاتنا المتداولة العادية ، ولكن فيما يوجد على الاقل بأرشيفات استانبول وفرنسا واسبانيا ... ومن المؤسف حقا ان نظل في هذه الحلقـة المفرغة بالرغم من ظهور المصادر الدفينة والوثائق المعاصرة ...

وما بالنا نروح بعيدا ... دون أن نقف قليلا مع السلطان سيدي محمد بن عبـد الله اثناء حصاره لمدينة مليلية في أعقاب الاتفاق الذي تم بينه وبين محمد باشا .

فلقد تحدثت المصادر المغربية عن فك الحصار بصفة مفاجئـة ... وأخـذت تتساءل عن الاسباب التي كـان علينا أن نجدهـا في المصادر الاسبانيـة وفي المصـادر الانجليزية ... بل ــ وهذا شيء مطرف ــ أن نكتشفها في كتب النوازل الفقهية الـذي قد تعتبر بعيدة عـن المصادر التاريخية .. .

لقد كان الامر يتعلق بخذلان من طرف الداي، الذي لم يكتف بالتراجع فيما ابرمت يداه سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م ولكنه انزل جام غضبه على الجزائريين الذيـن تطوعوا للجهاد مع العاهل المغربي من عرب المغرب الاوسط ، فاستباح دماءهم وروع اولياءهم وطوفهم في الازقة على حد تعبير الاستفتاء الذي هز رجـال الفقه والديـن بالمغـرب والمشرق من الذين رأوا في النازلة اهانة جارحة ، ولابد أن ترجعوا الى نصوص هـذه الفتاوى التي تظل وثائق تاريخية الى جانب انها مراجع هامة على مستـوى الفقـة العالي ، وهكذا فان (معاداة) الاتراك لكل أنواع التقارب العربي عملت مع طول الايـام على تغذية الشعور بأن هناك فريقين من الناس فريق الاعراب وفريق الاتراك ، وان هذا الفريق غير ذلك الفريق ..! وكلنا على علم مما ورد في تقارير السفراء المغاربة وأكدته المصادر الاسبانية ، من ان تركيا كانت تميز بين أسراها المحتجزين بالدول الاوروبية ، فاذا كانوا من أصل تركي افتدتهم ، واذا كانوا من أصل عربي امتنعت مـن ذلك ... وهذا ما قرانا في مذكرات السفير ابن عثمان سواء عندما كان في قرطاجـة أو كـان في

نابولي ، حيث افتدى برسم المغرب ، سواء لما كان هنا أو هناك ، مئات الاسرى من أصل عربي(١) . . . !!

وهكذا يستطيع المؤرخ المنصف ان يدرك انه اذا ما كانت بعض ثغورنا قد تأخر تحريرها أو تمطل أو تعثر ، فان جانبا مهما من التبعة تقع على كاهل « الذين » يهمهم ان يصيخوا باسماعهم الى مخططات « بعيدة عن الساحة المغربية » ، وان الذين يتجاهلون الجوانب المضيئة في تاريخ **التعاون بين الايالات** كانوا هم الاخرين يتحركون من منطلقات غير موثقة وربما مغرضة ، واكيف نفسر أطباق المصادر التركية ذاتها ، وعلى راسها المؤرخ التركي والنائب البرلماني عزيز سميح في كتابه (كتاب الاتراك في شمال افريقيا) الذي فيه ، في المجلد الثاني منه (ص ٤٥) بالحرف الواحد : « **لقد كان الغرض من حصار السلطان المولى يزيد لسبتة هو مضايقة اسبانيا حتى تخضع لضغط الجزائر** . . . وكيف نفسر تهافت عرب الجزائر على ساحات القتال الى جانب اخوانهم المغاربة لتخليص البلاد من نير الاحتلال الصليبي .

ثم كيف نفسر التصريح الملكي الذي وزعه الدبلوماسي المغربي السيد محمد القادري على أعضاء السلك الاجنبي بتاريخ ٥ رمضان ١١٩٢ هـ ـ ٧ شتنبر ١٧٧٨م ، والذي يعطى ، حسب الفصل الخامس منه ، الحماية الكافية للمراكب الجهادية الجزائرية التي ترسو بالساحل المغربي ، والذي يزودها بكل ما يدفع عنها غيلة المطاردين والمتبعين من الاسبان أو من غيرهم ، انها وثائق تحمل أسماء معروفة . . وتواريخ محددة . . .

وأخيرا كيف نفسر الانذار الذي وجهه المغرب الى الدول الاوروبية التي كانت تهدد الجزائر وتعتزم اقتحام ترابها أواخر ١١٩٩ هـ /١٧٨٥ م(٢) « فالذي قبل منهم كلامنا ورجع ولم يدخل الجزائر وغيرها من مراسيهم فنحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا ، والذي اراد منهم دخول الجزائر ومراسيهم ولم يتمثل ما أمرناه به فنحن معه على المحاربة » على حد تعبير التصريح الملكي الذي يحتفظ به أرشيف فيينا . . .

وقد كان التقارب بين المغرب والجزائر محل تتبع واهتمام زائدين من الباب العالي لانه كان يرى في تلك الوحدة نذيرا على وجوده بالشمال الافريقي ، ولذلك

---

١ ـ الاكسير في فكاك الاسير ، منشورات معهد البحث العلمي ١٩٦٥ ـ البدر السافر ، (مخطوط) بالمكتبة الملكية تحت رقم ١٣١٥ .

٢ ـ يتأكد هذا في رسالة بعث بها العاهل الى القنصل الاسباني منويل سلمون بتاريخ ٤ ذي القعدة ١١٩٩ ـ ٨ شتنبر ١٧٨٥ (وثائق مدريد) المحفوظة في تطوان .

2
1199

جماعة القنصوات الذين بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى اما
بعد نامركم ان تعلموا اجناسكم بان اهل الجزاير ان يعملوا مع جنس
الاصبنيول الصلح الذي امرهم به السلطان العثماني نصره الله صلحا تاما كما
امرهم فعلى بركات الله وان لم يعملوا ما امرهم به فها انا نوجه عشر
براكيط ان شاء الله من براكيطنا الجهادية لباب مرسى الجزاير
ونمنع جميع اجناس النصارى من الدخول للجزاير وكذلك الاصبنيول
يوجهون عشر من براكيطهم ايضا يتكلمون مع اهل الجزاير وانا
كلامي مع اجناس النصارى الذين يريدون الدخول للجزاير وغيرها
من مراسي الجزاير فالذي قبل منهم كلامنا ورجع ولم يدخل الجزاير
وغيرها من مراسيهم فنحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا والذي اراد
منهم دخول الجزاير ومراسيهم ولم يمتثل ما امرناه به فنحن معه على
المحاربة

2
1199

نسخة من الانذار الذي توجه به الملك محمد الثالث
الى السلك الدبلوماسي بطنجة بتاريخ 2 ذي القعدة 1199

فانه بالرغم مما يصل الباب من المغرب من شكاوى متتابعة بسوء تصرف الاتراك هناك، كان يتغاضى عن معالجة الاحوال خوفا من تحقيق الهدف ... بل انه أي (الباب العالي) كان يشجع الوشايات التي تقصد لضرب كل تلاحم بين الايالة نفسها والايالات العربية المجاورة سيما وهو يسمع عن الوفود المتوالية الى المغرب .

واظن انه من المفيد لتصوير الموضوع أن نستعرض هنا تقريرا سريا رفعه السفير التركي اسماعيل افندي سنة ١٧٨٥/١١٩٩ بعد مهمة له لدى الملك محمد الثالث ، حيث ورد يشكر العاهل على المساعدة القيمة التي قدمها للحكومة التركية في أعقاب صلحها مع اسبانيا وطلبها من واليها بالجزائر أن « يتفاهم مع اسبانيا » ، لقد جاء في تقرير السفير العثماني لحكومته حسبما وقفت عليه في ارشيف رئاسة الحكومة في اسطانبول ، هذه الافكار التي نلخصها فيما يلي :

لقد حضرت مع العاهل المغربي صلاة الجمعة بمسجد السنة ، حيث دعى في الخطبة للسلطان عبد الحميد . وتعليقا على موضوع خطبة الجمعة ذكر الخطيب بما يتم من ظلم من قبل الاتراك ، وبعد حوار بين العاهل والسفير خلع عليه الملك رداءه .. تقرير طويل يخلص فيه الى القول : بأ نالذي يظهر لي أنه ــ أي ملك المغرب ــ يكن للدولة العلية الحب وانه مستعد لتقديم جميع ما في خزائنه من مال للقضية الاسلامية .. **الا اني فهمت من المولى محمد انه عاتب على الباب العالي ضعفه امام الظلم الذي يقع على العرب والفقراء والعلماء والاشراف في الجزائر** مما قد يؤدي الى انهيار مملكة السلطان عبد الحميد ، على حد التقرير الدبلوماسي .. وانه على السلطان أن يسمح بتنصيب باشوات من أصل جزائري يختارهم الشعب الجزائري دون تدخل العسكر الاجنبي على نحو ما في تونس وطرابلس .. وفي أثناء اقامتي ــ يقول السفير اسماعيل أفندي ــ ورد وفد على المغرب من **اعراب الجزائر** يحكون ما يلقونه من **عنت ومظالم يمجها العقل ويرفضها الشرع ..**

واذا ما عرفنا ما يتمتع به سيدي محمد من سمعة لدى اشراف الحجاز وحكام مصر واليمن ، أدركنا مدى ما ينتظر السلطان عبد الحميد من ضرورة الحذر واليقظة .. »

ويظهر ان التقرير السري ترك أثره في الباب العالي الذي لم يعد له منذ الان حساب ضد اسبانيا حيث وجدناه يبرم معها معاهدة صلح في أعقاب انتصارها ضد الاسطول الانجليزي في ميورقة ، كما وجدناه يوجه بأوامره الى واليه بالجزائر محمد عثمان باشا ، لكي يسلك نفس الطريق مع الاسبان تمهيدا لانفراج تستفيد منه

التقرير السري الذي رفعه اسماعيل أفندي سفير السلطان عبد الحميد الى الملك سيدي محمد بن عبد الله عاهل المغرب، وفي هذا التقرير يلفت السفير نظر الدولة العثمانية الى السمعة الطيبة التي يتمتع بها سلطان المغرب في سائر اقطار الشمال الافريقي بل وفي الحجاز واليمن... ويذكر السفير ان العاهل المغربي يبذل قصارى جهده للابقاء على عروبة المنطقة، واقصاء النفوذ التركي عنها...

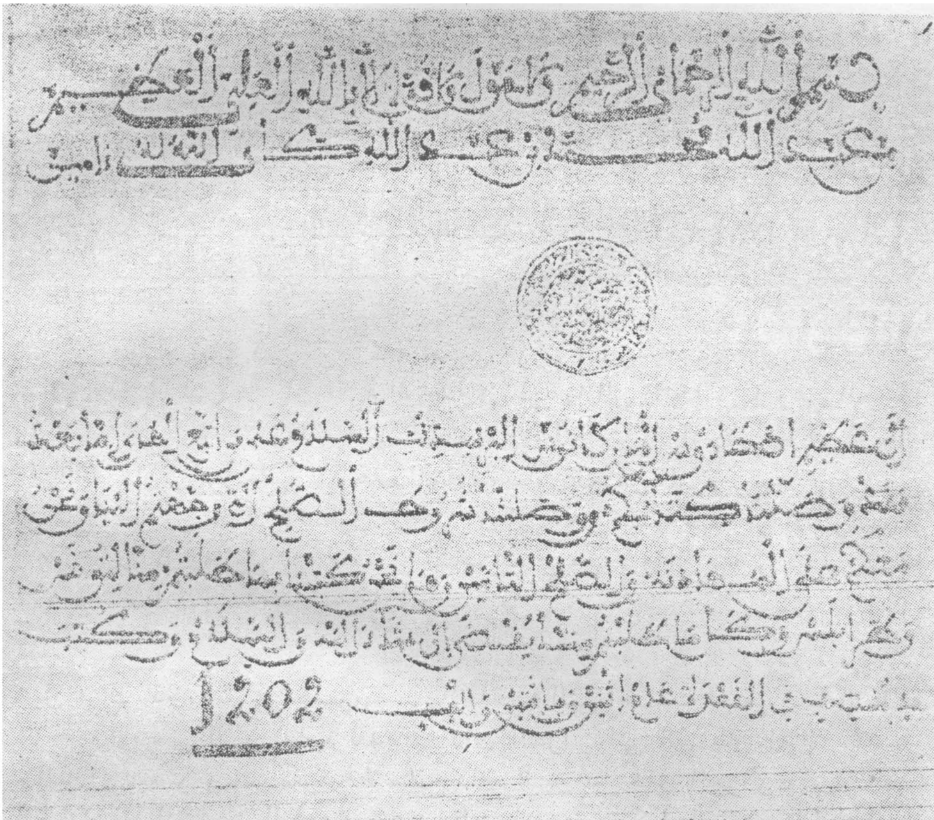
التقرير يحمل تاريخ [illegible] ربيع الأول [illegible] يناير [illegible]

اسطانبول في أعقاب المد الروسي الذي أخذ (حسب المادة الثانية عشر من اتفاقية مع السلطان عبد الحميد) يتجه نحو الولايات العثمانية في الحوض المتوسط الامر الذي كانت تركيا تعض عليه بنان الندم ..

وهكذا أيضا فالى جانب التقارير الاوربية التي تحدثت عن « خميرة » الوحدة ، وجدنا التقارير التركية بدورها لم تخف شعورها بما يسود من آراء ازاء هذه الوحدة .. ولنترك اوربا وآسيا لننتقل الى أمريكا الشمالية ، الى الولايات المتحدة بالذات التي نراها ، وقد تأزم الوضع فيما بينها وبين ايالة طرابلس وايالة تونس، تقدم - بعد مصادقة الكونغرس على الاتفاقية المغربية الامريكية - تقدم على ارسال خطاب باسم الرئيس جورج واشنطن الى الملك محمد الثالث بتاريخ ٢٣ يونيه ١٧٨٧ تطلب اليه ان يقوم بمساعيه الحميدة لدى الايالتين من أجل بناء علاقات افضل بين امريكا وتونس وطرابلس . ان هذه الرسالة بما تبعها من أجوبة ملكية مغربية تعبر عن كثير من الحقائق التاريخية ... فهي من ناحية تعكس الروح الطيبة السائدة بين بقية أقطار المغرب العربي كما تدل على أن فكرة الوحدة في طريقها الى التحقيق ، وهي الحقيقة التي تؤكدها المبادرة الامريكية التي بعثت لايالة الجزائر بالمستر جوهن لامب John Lamb وان من أبرز ما يجسد هذه الحقيقة تعاون العاهل المغربي مع حاكم طرابلس وتونس على الحد من تحرك الاسطول الروسي في المنطقة وخاصة منعه من الاقتراب من بوغاز جبل طارق في محاولة للتخفيف عن الباب العالي من ضربات الروس ... وهذا يكون أيضا عنصرا واضحا من باب بناء المغرب العربي .

بل هناك بادرة تدل في مضمونها على الحاجة التي اخذت تشعر بها الايالة الجزائرية ، ويتعلق الامر بطلب تقدم به داي الجزائر الى السلطان المولى سليمان يطلب اليه أن يبعث بوفادة مغربية لاصلاح ذات البين بين داي الجزائر وبين طائفة دينية ، لقد كان النزاع في الواقع بين عرب تلمسان وبين تركيا على نحو ما نراه اليوم في قبرص بين الاتراك واليونان .. !

وقد ظهرت في الافق سحابة خطيرة في سماء العلاقات المغربية الامريكية كادت أن تؤدي - ان لم تكن قد ادت فعلا - الى اشهار الحرب من طرف المغرب على الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٢١٨ / ١٨٠٣ ، وقد يظهر انه من باب المبالغة والتهويل القول بأن السلطان المولى سليمان يعلن الحرب على الرئيس الامريكي طوماس جيفرسن !



بعث جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية بمبعوثه توماس باركلي الى الملك محمد الثالث يطلب اليه ان يبذل مساعيه الحميدة بين طرابلس وامريكا ، وهذا جواب العاهل المغربي على رسالة الرئيس الأمريكي ، وهو بتاريخ 15 ذي القعدة 1202 هـ (17 غشت 1788 م) يعده بالتدخل لصالح السلام ...

— 64 —

ولكن الواقع هو ذاك على ما نقراه في المصادر المغربية والليبية والوثائق الامريكية على السواء... وليس المهم هذا ولكن المهم ان نعرف عن اسباب هذا التوتر الذي لم يكن غير استجابة المغرب لطلب الوفد الليبي الذي ورد يطلب امداد طرابلس بما تحتاج اليه من مواد، ولم يكن غير مساعدة طرابلس وهي تحاصر السفينة الامريكية فيلادلفيا! اعتبر الجانب الامريكي ذلك خرقا للبند الثاني من الاتفاقية الثنائية وهو ينص على عدم تقديم المساعدة من جانب احد الطرفين لعدو الطرف الآخر... ولم تتصور امريكا كيف يستطيع مركب مغربي يحمل اسم (مبروكة) بقيادة الرائس ابراهيم لوباريس ان يحجز مركبا أمريكيا يحمل اسم Celia

وكما وجدنا المغرب لا يعجز عن تقديم التفسير عندما احتجت النمسا بالامس على مساعدة فرنسا حليفة تركيا، كذلك وجدناه اليوم يعتمد على تفسير الفصل السادس من المعاهدة المغربية الامريكية بأن مفهوم «المور Maures» بالنسبة الى المغرب شامل لجميع الاسرة الاسلامية سواء كانت في المغرب ام في المشرق!!

وهكذا وبعد مفاوضات صعبة بين وزير الخارجية المغربية محمد السلاوي وبين المبعوث الامريكي سيمبسون توصل الطرفان الى تسوية بالافراج عن السفن المحتجزة لكل من المغرب وامريكا.

ومما نسجله على هامش استيلاء الاسطول المغربي على قطعة من الاسطول الامريكي... أن وفدا من تونس برئاسة الشيخ ابراهيم الرياحي كان يوجد في حضرة العاهل أثناء وصول البشريات بحجز المركب الامريكي فأنشأه قصيدة ميمية طويلة يهنيء العاهل فيها، وكان مما ورد فيها قوله:

دلائل فضل الله فينا تترجم — وان غفلت عنها طوائف نوم

ومن أكرم النعما ولاية من له — علينا وفينا حكمة وتحكم!

وهكذا وجدنا ان هذه الفترة عرفت يقظة جماعية... في سائر الايالات بضرورة التئام الصف وكان مما عكس هذا الشعور ارسال وفادة من المغرب الى الجزائر كانت برئاسة الامير مولاي ابراهيم لتقديم المواساة في أعقاب مداهمة الاسطول الانجليزي للساحل الجزائري...

وبالرغم من الامر العثماني الذي صدر لولاية الجزائر في تاريخ ١٥ ربيع الاول ١٢٤٥/١٤ شتنبر ١٨٢٩ بعدم مساندة المغرب الواقف ضد بحرية النمسا، بحجة

ان هذه الاخيرة في حالة سلم مع تركيا ، فان المغرب مع ذلك **اعلن الحداد الشامل** عندما تمكنت فرنسا من انتزاع الحكم من الاتراك في الجزائر ، الامر الذي أعقبته الكوارث والاهوال بالنسبة للمغرب الذي أصيب في اسطوله: وكان اسطورة البحار . . . المغرب الذي تعرض لحروب مع فرنسا قصمت ظهره فاستهدفت لتألب القوى الاستعمارية عليه من كل حد بوصوب على ما نعلم .

★ ★ ★

تلكم ومضات عن تجارب **حول فكرة وحدة المغرب الكبير** من خلال الوثائق الدبلوماسية وعن معوقاتها الحقيقية التي كانت كما راينا تحمل هويات أجنبية عن الساحة المغربية ، فمرة اسبانية ومرة ثانية فرنسية ومرة ثالثة جهة أخرى . . . كانت جميعها تستهدف كما راينا أن تبقى بلاد المغرب مفتتة مجزأة منهوكة القوى ، في حين كانت فيه هذه الايالات تسعى جاهدة للتواصل فيما بينها بشتى الطرق والوسائل على ما راينا سلفا من تنقل الوفود عبر الشمال الافريقي لاحياء آصرة الود والاخوة فيما بينها . . .

وسأقف عند هذا الحد تاركا الفرصة لاجترار تلك الاحداث ربما كان في ذلك ما يساعدنا على أن نكون اكثر وعيا واكثر استفادة من التاريخ !

لقد مرت فكرة المغرب الكبير بفترات تعثر لم تكن الايالات مسؤولة عنها بحال . ومن حسن الحظ أن نسجل أن نسبة فترات اللقاء كانت أوفر وأكثر . . . وأن شعور المسؤولين بوحدة مصيرهم كان يهيمن على كل شعور ، وهكذا فقد ظلت هذه البلاد جميعها تنشد اليوم الذي تصبح فيه وحدة متراصة ضد الاطماع الخارجية ولصالح ازدهار المنطقة .

خالد بن يزيد بن معاوية
واهتماماته العلمية

د . محمد عبد القادر خريسات

الجامعة الاردنية

حياتـه ونشأتـه :

هو ابو هاشم(١) ، خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . ولم تشر المصادر الى تاريخ ولادته ولكن يبدو انها كانت بين سنة ٤١ ــ ٤٥ هـ(٢) . واختلفت المصادر في تاريخ وفاته ، فقد ذكر البلاذري(٣) والسيوطي(٤) انها كانت في ايام عبد الملك بن مروان ولم يحددا سنة الوفـاة .

وذكره ابن الوردي (٥) في وفيات سنة ٨٢هـ ، وذكر العسقلاني(٦) انه توفي مع روح بن زنباع في عام واحد ثـم اضاف قائلا : وبلغني بوجـه آخر ان روحا مات سنة ٨٤ هـ ، وقال بذلك الذهبي(٧) وابن كثير (٨) على حد بعض رواياتهم .

وذكر الذهبي(٩) في رواية اخرى انها كانت سنة ٨٥ هـ ، ووافقه على تلك ابن العماد الحنبلي(١٠) ، واسماعيل باشا البغدادي(١١) واليافعي(١٢) .

وذكر ابو حنيفة الدينوري(١٣) انها كانت سنة ٨٦ هـ . وذكر سنة ٩٠ هـ كل من ابن عساكر(١٤) ، والذهبي(١٥) ، والعسقلاني(١٦) ، وابن كثير(١٧) ، وابـن العمـاد الحنبلي(١٨) .

وبالنظر الى هذه التواريخ يمكن ملاحظة ما يلي :

اولا : ان وفاة خالد قبل سنة ٨٦ هـ ، مستبعدة لمـا يذكره ابو حنيفـة الدينوري(١٩) ، انه لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة سنة ٨٦ هـ ، أخذ البيعة لابنه الوليد ، واذن لبني امية فدخلوا عليه ومنهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية، فقال لهما : يا بني يزيد اتحبا ان اقيلكما بيعة الوليد ، قالا : لا معاذ الله يا اميـر المؤمنين ، قال لو قلتما غير ذلك لامرت بقتلكما على حالتي هذه .

ثانيا : ان وفاته كانت في خلافة الوليد بن عبد الملك ، لان الوليد هو الـذي صلى عليه ، وسار في جنازته .

ثالثا : نظرا لاجتماع كل من ابن عساكر والذهبي والعسقلاني وابن كثير وابن العماد الحنبلي على ان وفاته كانت سنة ٩٠ هـ ، فتكون هي أقرب السنوات الـى وفاتـه(٢٠) .

اما زوجاته فقد تزوج من كل من آمنة بنت سعيد بن العاص ، ورملة بنت الزبير وقد كانت هذه معروفة بالجزالة والعقل والفضل ، وعائشة بنت عبد الملك(٢١) وابنة عبد الله بن جعفر ، وقال مصعب الزبيري ومن الناس من ينكر هذا الزواج(٢٢) . واما أولاده(٢٣) فهم سعيد ، ابو سفيان ، عتبه ، حرب ، يزيد ، عبد الله .

ووصفته المصادر بالشجاعة والجراة ، فقد تهدده عبد الملك بن مروان مـرة بالسطو والحرمان فقال له : اتهددني ويد الله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبذول . هذا وقد قال له عبد الملك يوما : « ما اجراك علي ياخالد » (٢٤) .

وبسرعة البديهة ، وحضور الجواب ، دخل على عبد الملك يوما فقال له ، ما لي أراك كالغضبان ؟ قال لست بغضبان ولكني محجوج . قال ومن حجك وبيانك بيانك ولسانك لسانك(٢٥) .

وبالجود فقد جاءه رجل فقال له : اني قد قلت فيك بيتين ولست انشدهما الا بحكمي فقال له قل ، فقال :

سألت الندى والجود حران انتما ... فقالا بلى عبـدان بيـن عبيـد

فقلت ومـن مولاكمـا فتطـاولا ... علـي وقالا خالـد بـن يـزيـد

فقال له فكم فقال مائة الف درهم فأمر له بها(٢٦) .

والتواضع ، فقد قال عن نفسه لست عالما ولا جاهلا ، بل جامع كتب(٢٧) . كما وصفته بطول الصمت . قال له مولى له ارى الناس يخوضون فيما انت أعلم به منهم وانت ساكت فقال ويحك اني عنيت بطلب الاحاديث والعلم وصححت ذلك فاخاف أن نشرت ذلك أن يحفظوه(٢٨) .

بنو اميـة والعلوم :

اهتم بنو امية بالعلم منذ العصر الجاهلي ، فقد اشارت المصادر الى ان حرب ابن امية اول من كتب العربية ، وابو سفيان كان من المعلمين في مكة حيث تعلم الكتابة، ومعه ابو قيس بن عبد مناف بن زهرة ـ على يد بشر بن عبد الملك العبادي فعلمـا اهل مكة(٢٩) . ولما جاء الاسلام كان ستة من بني امية ، من اصل سبعة عشر قرشيا ، يكتبون ، منهم ثلاثة من آل حرب : أبو سفيان ، ويزيد بن ابي سفيان ، ومعاوية(٣٠) . وقد تولى معاوية الكتابة للنبي « ص » خاصة فيما يتعلق بالقبائل العربية(٣١) ، كما كان واخوه يزيد من خطباء قريش(٣٢) .

ولما تسلم معاوية الخلافة اهتم بالعلم والمجالس العلمية ، ففي دمشق قرب اليه اصحاب العلم ، يستمع منهم الى اخبار الامم السابقة ومآثرها . وفي خارج دمشـق كان يتابع اخبار اهم هذه المجالس ، واهمها مجلس القلادة في المدينة ، وكـان يضـم افاضل قريش وعلمائها(٣٣) .

وقد اشار ابن عباس الى اهتمام بني حرب بالعلم فقال : اذا ذهبت بنو حرب ذهب علماء الناس(٣٤) . ويذكر يوسف العش(٣٥) أن معاوية الاول أول من أوجـد مكتبة « بيت الحكمة » واحتفظ بها خالد بن يزيد فيما بعد واغناها بمجموعة الحديث وكتب الكيمياء والطب والفلسفة . ولا غرابة في ذلك فقد ذكر حاجي خليفة(٣٦) انـه جمع لخالد بن يزيد ما يزيد على ثلاثة الاف كتاب مؤلفة في علم الكيمياء .

وهذا الاهتمام العلمي اقتضى الاتصال بالثقافات التي كانت سائدة في بـلاد الشام قبل الفتح الاسلامي . وبذلك كان معاوية بن ابي سفيان من الرواد الاوائـل الذين قاموا بالاتصال بهذه الثقافات ، واتخاذهم موقفا اكثر انفتاحا ، مما مهد فيمـا بعد الى النهضة الشاملة التي اعطت ثمارها في العصر العباسي . وقد ساعد على هذا الانفتاح أن العرب ومنذ العصر الجاهلي لم يكونوا بعزلة عن الامم الاخرى ، بل كانت لهم اهتماماتهم ومعارفهم العلمية ، وان كان ذلك على نطاق ضيق ، وتمثلت بالطـب والنجوم وعلم الانواء وغيرها من المعارف .

والعامل الثاني الذي ساعد على الاتصال والانفتاح ان الحياة العلمية في الشام قبل الفتح الاسلامي كانت مزدهرة والمدارس منتشرة في جميع انحاء سورية .

فقد كان في انطاكية مدرستان احداهما للعلوم الدينية والثانية للعلوم الفلسفية(٣٧)، وفي فلسطين مدرسة قيسارية التي تأسست سنة ٢٣٠ م ، (٣٨) وفي بيروت كانت

كلية فقهية رومانية قد ظهرت في القرن الثالث الميلادي(٣٩) ، وكذلك مدرسة دمشق التي بلغت شأوا عظيما ابان الفتح العربي(٤٠) ، ومدرسة حران ، ومدرسة نصيبين. وخارج سورية كان هناك مكتبة طور سيناء التي انشأها الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٤١ ، وقد عثر في هذه المكتبة على نفائس اثرية عظيمة القيمة ، من مخطوطات نادرة الوجود عربية ، يونانية ، قبطية حبشية ، سريانية ، وفرمانات تركية(٤١) . ومكتبة الاسكندرية والتي كانت اضخم مكتبة في العالم القديم جعلت من الاسكندرية كعبة يؤمها العلماء(٤٢) ، وكذلك مدرسة جنديسابور في فارس .

ويذكر (الدو ميلي) أن سورية كانت موطن حضارة رفيعة ، ولما غزتها الحضارة الاغريقية لم تصبح هلينية الا في مظهرها السطحي وبقي الشعب آراميا في صميمه ... ولغته شديدة القرابة الى اللغة العربية(٤٣) . ولم يقابل المسلمون هذه المدارس والثقافات بالاعراض عنها ، أو اغلاقها ، بل أبقوا عليها ، واقبلوا على الدراسة فيها ، مما مكنها من متابعة اداء رسالتها العلمية . لقد احتك المسلمون بالثقافات الفارسية واليونانية واليهودية والنصرانية والوثنية والرومانية ، وتفاعلوا معها ، خاصة السريانية منها ، وكانت هذه على صلة كبيرة بالثقافة اليونانية .

لقد رافق حركة الفتوحات حركة علمية موازية ، فقد كتب يزيد بن ابي سفيان الى عمر بن الخطاب أن يعينه ببعض الصحابة لتعليم أهل الشام ، فخرج معاذ بن جبل وابو الدرداء وعبادة بن الصامت(٤٤) . وقد بلغ عدد الطلاب في حلقة ابي الدرداء ما ينيف على الف وستماية طالب(٤٥) وفي حلقة ابن عامر اربعماية عريف(٤٦) . ومن المعلمين زمن عبد الملك بن مروان هشام بن اسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وكان هذا بدمشق ، والوليد بن عبد الرحمن الحرشي وكان بفلسطين(٤٧)، وابو ادريس الخولاني وكان يسمى بعالم الشام(٤٨) .

ويستدل على اقبال المسلمين على التعليم مما ذكره ابن عساكر(٤٨) في ان المسلمين ارسلوا ابناءهم الى الكتاتيب التي كانت قائمة آنذاك ، وكان يديرها المعلمون النصارى .

لقد اراد معاوية من ولي عهده أن يجمع بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافات الاجنبية فاتخذ دغفل بن حنظلة السدوسي مؤدبا ليزيد ، وكان هذا عالما باللغة والانساب والنجوم(٤٩) . وكلف يزيد بن معاوية ، عمر بن نعيم العنسي للاشراف على تربية أولاده خالد وعبد الرحمن ومعاوية(٥٠) . ولاجل الاحاطة بالثقافات الاجنبية فقد ذكر (لامانس) ان معاوية اتخذ لولده مربيا نصرانيا ، وكلف يزيد كاهنا

مسيحيا لتثقيف ولده خالد(٥١) ، بل كان الراهب مريانوس هو الذي علم خالد بن يزيد علم الصنعة (الكيمياء) ، ووصفه خالد بأنه احذق خلق الله بها وبما فيها(٥٢) . والاستعانة بالمثقفين من أهل البلاد الاصليين امر طبيعي في الاتصال والتفاعل الحضاري ، فالشعوب التي كانت في بلاد الشام ومصر والعراق وفارس كانت على درجة حضارية ارقى مما كان عليه العرب وقت الفتوحات ، فلا بد والحالة هذه من الاستعانة بهم خاصة في صدر الاسلام .

لقد بدات الاستعانة بأهل البلاد في المجالات العلمية منذ الفتح الاسلامي ، فقد ارسل سعد بن ابي وقاص (جفينة) ، وكان من نصارى الحيرة ، كي يعلم الكتاب في المدينة(٥٣) . وطلب عمر بن الخطاب من يزيد بن ابي سفيان ومعاوية أن يبعث له روميا كي يقيم الحساب والفرائض(٥٤) . كما قسم عمر نفسه سبي قيسارية على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين(٥٥) .

وفي العهد الاموي استمرت الدولة بالاستعانة بأهل البلاد الاصليين ، فقد كان سرجون الرومي على ديوان الشام(٥٦) ، وقنان بن متى من كتاب يزيد بن معاوية وابنه معاوية(٥٧) . ويحيى الدمشقي كان نديما ليزيد بن معاوية ، وقد ألف هذا عدة كتب في العقيدة المسيحية والدفاع عنها ، ومحاورة بن مسلم ونصراني في الوهية المسيح ، ومحاورة في حرية الارادة . وكانت بعض مناقشاته تحدث في مجلس الخليفة(٥٨) ، وابو يوحنا الدمشقي كان من المقربين لعبد الملك(٥٩) ويناس بن خمايا من الرها اكتب لعبد العزيز بن مروان(٦٠) .

وقرب معاوية اليه الاطباء ، ومنهم ابن آثال ، وكان طبيبا متقدما من الاطباء المتميزين بدمشق ، نصراني المذهب ، خبيرا بالادوية المركبة وخواصها وما فيها من سموم قواتل ، ولما اغتاله خالد بن مهاجر المخزومي قال معاوية : لا جزاك الله من زائر خيرا ، قتلت طبيبي فقال خالد : قتلت المأمور وبقي الامر(٦١) ، وابو الحكم الدمشقي ، وكان نصرانيا ، عالما بأنواع العلاج ، ورافق بعض قوافل الحجاج(٦٢) ويتاذوق وكان فاضلا في دولة بني امية(٦٣) .

واستعان عبد الملك بابن ابجر وكان طبيبا ماهرا ، درس في الاسكندرية وانطاكية والرها واسلم على يد عمر بن عبد العزيز(٦٤) ، وماسرجويه كان يهودي المذهب ، سرياني الاصل تولى تفسير كتاب أهرن بن أعين القس الى العربية(٦٥) .

ومما تقدم يمكن القول أن بني أمية قد ابدوا اهتماما بثقافات اهل البلاد الاصليين ، فوضعوا بذلك اللبنات الاولى في الاستفادة من هذه الحضارات ، خاصة في مجال العلوم .

اهتمامات خالد بن يزيد العلمية :

في هذه الاجواء العلمية ظهر خالد بن يزيد بن معاوية فابدى اهتماما بالمكتبات واقتناء الكتب والترجمة والعلوم .

لقد كان ابعاده عن الخلافة دافعا قويا للاهتمام بالنواحي العلمية ، فقد مات معاوية الثاني دون ان يعين خلفا له فانفرط عقد بني سفيان ، ولم يبق على الولاء لهم سوى حسان بن مالك البحدلي الذي كان على جند الاردن . والظاهر ان اهل الاردن انفسهم لم يكونوا راضين بالبيعة لخالد ولعبد الله ابني يزيد(٦٦) ، كما ان حسان نفسه قد غير موقفه من خالد بعد عودة مروان بن الحكم من مصر سنة ٦٥ ومال الى صف مروان واعلن ولاية العهد لعبد الملك ثم لعبد العزيز ابني مروان(٦٧) وبذلك انتهت آمال خالد في طلب الخلافة . وقد عبر عن ذلك زفر بن الحارث : بقوله:

ابعد سعيد يوم قام بخطبة تزال بها عنك الخلافة تجذل

وسعيد هذا هو سعيد بن مالك بن بحدل(٦٨) .

والظاهر ان هذه البيعة قد افسدت العلاقات بين مروان وخالد ، فيذكر صاحب كتاب المحن(٦٩) أن مروان اتى لخالد قبل ذهابه لمصر وقال له أعرني سلاحا ان كان عندك . قال فأعاره سلاحا وخرج الى مصر فقاتل اهل مصر وسبى اناسا فافتدوا منه ثم قدم الى الشام فقال له خالد بن يزيد :

« رد علي سلاحي فابى عليه فالح فقال له مروان وكان فاحشا يا ابن كذا » .

ويؤكد فساد العلاقةايضا اقوال واشعار خالد بن يزيد فقد قال يوما : « ... اما اني ارى ثاري في مروان صباح مساء ولو اشاء ان اديله لادلته »(٧٠) ودخل يوما على مروان وكان قد جفاه فقال :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعرف(٧١)

وقال ايضا :

فلو بقيت خلائف آل حرب ولم يلبسهم الدهر المنونا

لاصبح ماء اهل الارض عذبا واصبح لحم دنياهم سمينا(٧٢)

ويبدو ان خالدا لم يتوقف عن المطالبة بحقه بالخلافة ، فقد مالأ أهل اليمن خلافا لمروان بن الحكم وقصدا لتوهين ملكهم وتفريق جماعة أهل الشام عنهم حتى كثر المنتسبون من قضاعة الى حمير(٧٣) وعزا البعض مصاهرته الى اشراف قريش لغايات سياسية ، فقد قال أحد الشعراء لعبد الملك :

عليك أمير المؤمنين بخالد	ففي خالد عما تريد صدود
اذا ما نظرنا في مناكح خالد	عرفنا الذي ينوي وأين يريد(٧٤)

وربما كان هذا الطموح هو السبب الذي أدى الى استمرار فتور العلاقة بينه وبين عبد الملك ، فقد قطع عبد الملك ما كان يجريه على آل سفيان وجاءه عمرو بن عتبة فاعطاه ما يستحق وقال له : انما يستحق عطيتي من استمطاها ، فأما من ظن أنه يستغني بنفسه فسنكله اليها . يعرض بخالد(٧٥) .

ولكن هذه العلاقة تحسنت بعد ان عينه عبد الملك على حمص وهناك بنى مسجدا وقصرا وافنى عمره منفردا فيه ودفن بالقرب من قصره(٧٦) .

وكان عبد الملك يكثر من استشارة خالد بن يزيد ، فعند قيام ثورة ابن الاشعث هال ذلك عبد الملك فبعث الى خالد واطلعه الخبر ورأى ما به من الجزع فقال يا أمير المؤمنين . ان كان هذا الحدث من قبل سجستان فلا تخفه ، وان كان من قبل خراسان تخوفه(٧٧) .

واستشاره أيضا عندما كتب عبد الملك في صدر الطوامير « قل هو الله أحد » مع ذكر النبي (ص) والتاريخ ، واحتجت الروم وهددوا بالكتابة على نقودهم أمور يكرها المسلمون ، فأشار عليه بضرب الدنانير الاسلامية ومنع تصدير الطوامير الى الروم (٧٨) .

أما علاقته مع الحجاج بن يوسف الثقفي ، فلم تكن حسنة ، بل وصلت الى حد الاستهزاء والاستهانة بالحجاج مما اضطر الحجاج الى القول لخالد : « ولقد ضربت بسيفي هذا اكثر من مائة الف كلهم يشهدوا انك وأباك من أهل النار ثم لم أجد لذلك عندك أجرا ولا شكرا » .

لقد كان بعده عن السياسة دافعا له للاهتمام بالعلوم ، فقد تلقى خالد بن يزيد ثقافة عربية اسلامية تمثلت بالقرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي وروايته والفقه

والتشريع واللغة والادب والتاريخ وغيرها ، كما تلقى ثقافة البلاد الاصلية وشملت العلوم التي كانت رائجة في عصره كالطب والفلك والكيمياء .

لقد انحصرت اهتمامات خالد العلمية في مجال هاتين الثقافتين ، فقد تفرغ خالد لطلب الحديث وقراءة الكتب ،(٨٠) وقال هو عن ذلك : كنت رجلا معنيا بالحديث (٨١). وقد روى خالد عن كل من يزيد بن معاوية(٨٢) ودحية بن خليفة ابن فروة الكلبي(٨٣) ، وعكرمة مولى ابن عباس(٨٤) .

وروى عنه الزهري ورجاء بن حيوه وعلي بن رياح وعبيد الله بن العباس وقيل العباس بن عبيد الله بن العباس ، وعبد الله مولى ابن جبير ، وخالد بن عبد الله وأبو الاعيس الخولاني(٨٥) .

هذا وقد اخرج الامام احمد عنه أن أبا أمامة الباهلي سأل عن ايمن كلمة سمعها من رسول الله(ص) فقال سمعته يقول : « الا كلكم يدخل الجنة الا من شرد على الله عز وجل شراد البعير على أهله » (٨٦) . كما أخرج البيهقي والخطيب البغدادي ، والعسكري ، والحافظ ابن عساكر عدة أحاديث(٨٧) . وقد طبعته الثقافة الدينية هذه بطابعها الخاص فقد كان يصوم الاعياد كلها والجمعة والسبت والاحد(٨٨)، كما وصفته المصادر بالورع والفضل وشاركه بهذه الصفات من اخوانه عبد الرحمن ومعاوية وعبد الله (٨٩) .

وأملت عليه هذه الثقافة بعض التأملات الفلسفية . فقد سئل مرة ما أقرب الاشياء ؟ قال الاجل . قيل فما أرجى شيء ؟ قال العمل . قيل فما أوحش شيء ؟قال الميت . قيل فما أنس شيء ؟ قال الصاحب المواتي . وقال أيضا اذا كان الرجل لجوجا معجبا برأيه فقد تمت خسارته(٩٠) .

ولما التقى بمريانوس دارت اسئلته حول أصل الخليقة ، أمن أصل واحد هي ؟ أمن أشياء شتى ؟ فان ذلك من شيء واحد واصل واحد وجوهر واحد منه وبه لا يدخل عليه داخل ولا غريب منه ولا ينتقص منه شيء(٩١) وقد اعتبره البيروني أول فلاسفة الاسلام(٩٢)، كما أشار خالد نفسه الى اطلاعه على كتب الفلسفة بقوله : لقد عكفت على درس كتب الفلسفة، وقرات الاوضاع السالفة وطالعت الكثير من تآليفهم، ووعيت الاعداد من رسائلهم(٩٣) .

ولما كان المحدثون هم رواد المدرسة التاريخية حيث اهتموا بدراسة المغازي ورواية أخبار رسول الله (ص) ، فلا بد والحالة هذه أن يهتم خالد بالتاريخ وروايته . فقد

حدث عن زرعة بن عمرو وعمر بن شعيب وتبيع ، وتبيع أخذ عن كعب ودحيةبن خليفة الكلبي ولم يلقه(٩٤) . وروى عنه شعيب بن حرب ، ومخرمة بن بكير ، وابو صفوان ، وعمر بن شبة ، وسعيد الكلبي ، ومحمد بن كعب القرظي وعبد الله بن شداد وعامر الشعبي والمدائني (٩٥) . وذكر صاحب الفهرست أن المدائني الف كتابا بعنوان قصيدة خالد بن يزيد في الاحداث والملوك(٩٦) .

وفي المجال الادبي كان خالد بن يزيد خطيبا ، شاعرا ، فصيحا ، جيد الراي ، حذقا ، وله أشعار متعددة الاغراض منها شعره في الصنعة (الكيمياء) (٩٧) .

واهتم خالد بالصنعة (الكيمياء) ويذكر غالب مولى خالد بن يزيد أنه كان مغرما بهذا العلم قبل أن يلقى مريانوس ، حتى انه كان لا يؤثر عليها شيئا ، ولا يفتر عن السؤال عنها وعمن يرجو أن يجد عنده علما ومعرفة(٩٨) . وقد ساعده فيما بعد مريانوس واصطفن . وقد وصف خالد مريانوس « بأنه كان نقيا واحذق خلق الله بهذه الصنعة فمنه تعلم وقال فيه شعرا »(٩٩) .

أما اصطفن فربما يعود لقائه به عندما ذهب الى مصر حيث التقى به . وكان هذا ايضا من المهتمين بعلم الصنعة حتى انه صنف كتابا فيها.ولم يذكرابن النديم اسم هذا الكتاب(١٠٠) .

وساعده أيضا وجود بعض التراجمة الذين أخذوا ينقلون من اللغات اليونانية والسريانية والقبطية الى اللغة العربية . والواقع ان حركة الترجمة قد بدات منذ صدر الاسلام وحتى في فترة ما قبل الاسلام . فقبل الاسلام اشتهر من التراجمة زيد بن حماد بن محروق ، وقد حذق الكتابة العربية والفارسيةوعدي بن زيد وعمرو بن عدي ولقيط بن يعمر الايادي(١٠١) كما عرف العرب شيئا من النقل عن التوراة والانجيل ، فأمية بن أبي الصلت كان يأتي في شعره على أشياء لا تعرفها العرب لانه قرأ كتب الله عز وجل(١٠٢) .

واستدعت عملية الانفتاح على الثقافات الاخرى تشجيع حركة الترجمة . وقد أعتمد العرب في البداية على أهل البلاد الاصليين . ومن أوائل التراجمة في صدر الاسلام عبود ترجمان رستم وكان هذا من أهل الحيرة(١٠٣) . ولما خطب عمر بن الخطاب بالجابية كان عنده جاثليق يترجم له(١٠٤) . وهذا لم يمنع العرب المسلمين من تعلم لغات الامم الاخرى ، فزيد بن ثابت كان يكتب العربية والعبرانية(١٠٥) ، والمغيرة بن شعبة حذق بعض الفارسية(١٠٦)، وعبد الله بن عمرو بن العاص قرأ بالسريانية(١٠٧) .

لقد كانت حركة الترجمة من اليونانية الى السريانية مزدهرة قبل الفتح الاسلامي، واشتهر من التراجمة سرجيوس الراسعيني، (٥٣٦م)وهو طبيب وفيلسوف برع في الترجمة من اليونانية الى السريانية في مجال الطب والفلسفة والفلك واللاهوت، ويوحنا الدمشقي(ت. قبل ٧٤٣م) وقد وضع مقالةفيالمجادلة بين نصراني ومسلم ساق فيها البراهين التي دلت على معرفته الوثيقة بالقرآن الكريم والعقيدة الاسلامية(١٠٨)، وساويرس سيبوخت(٦٦٧م) من نصيبين باعمال الفرات،ترجموشرح كتاب التحاليل لارسطاليس وصنف رسائل الفلك والجغرافيا ، وكذلك تلميذة اثناسيوس ، وأيوب الرهاوي (ت ٧٠٨ م) ، والاسقف جورجيس (٧٢٤ م) ترجم وشرح كتاب الاورجانوس لارسطاليس(١٠٩)، وهيبا الملقب بالترجمان وتلميذه بروبايريوس من اتباع المدرسة الفارسية في الرها ، وابي القشعرى الذي كان ذا نفوذ عند كسرى الثاني (٥٩٠ — ٦٢٨ م) (١١٠).

ومن التراجمة ايضا سلوانوس القردي ، وحنيناتشو الجاثليق ، وشمعون الراهب(١١١) ، ويذكر اوليري(١١٢) انه من المؤكد أن العلوم الطبية قد وصلت الى العرب عن طريق الترجمات السريانية ، ثم عن طريق الترجمات اليونانية ، رأسا في مجال الفلك والرياضيات . ويضيف ان السريانية كانت هي اللغة السائدة في بلاد الشام وظلت لغة الترجمة من اليونانية الى العربية. . .وكان لمدينة حران نصيبفينقل العلوم من اليونانية الى العربية .

وبعد الفتح الاسلامي واستقرار الدولة استمر أصحاب الثقافات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرهم منهمكين في الفلسفة والطب وانواع العلوم الاخرى التي كان العرب الى ذلك الحين على غير دراية تامة بها . لقد كان في سورية وبلاد فارس معاهد ومؤسساتوأديرة اشتغل اصحابها بدراسة علوم القدماء وتفهمها وتفسيرها وتدريسها ونقلها الى الاخلاف بشكل منظم . ونتيجة اهتمام العرب وشغفهم بالعلوم بدأت بواكير الترجمة مبكرة وقبل الخلافة الاموية (١١٣) .

ولما جاء الامويون التفتوا الى الكتب العلمية اليونانية ليامروا بنقلها الى السريانية والعربية تدفعهم الى ذلك الرغبة في العلم ومن أجل العلم(١١٤) .

لقد قرب معاوية اليه المترجم يعقوب الرهاوي السرياني ١٩ — ٨٩ هـ ٦٤٠ — ٧٠٨م وقد ترجم بعض كتب الالهيات من اليونانية ، كما يؤثر عنه انه افتى رجال الدين النصارى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي . وهذه الفتوى من غير شك تدل على اقبال بعض المسلمين على دراسة الفلسفة عليهم ، وتردد النصارى في تعليمهم (١١٥) .

ويذكر كرد علي(١١٦) أن معاوية كان أول من ترجم له كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحروب والآلات والصناعات من اللسان اليوناني والقبطي والسرياني، كما أنه أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة والارجح انها كانت في دمشق . ويستدل على اهتمام معاوية بالكتب بما ذكره صاحب الذخائر والتحف(١١٧) من أن معاوية وملك الصين تبادلا الرسائل والهدايا وكان من ضمن هدية ملك الصين كتاب من سرائر علومهم ، صار بعد ذلك الى خالد بن يزيد وكان يعمل فيه الاعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

أما خالد فقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان في مصر وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية، وبذلك اعتبره ابن النديم أول نقل في الاسلام وأن خالدا أول من ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء(١١٨) .

ويذكر Holmyard (١١٩) ان خالدا أول من نادى وطلب بأن تحل اللغة العربية في كتابة الوثائق بدواوين الدولة بدلا من اللغات الاخرى، كما بدأ بحركة الترجمة العلمية ، ولتحقيق ذلك جمع حوله عددا من العلماء ، فكان الرجل الذي أعطى لبيت الحكمة طابعها الخاص الذي تطور واتضح في عهد المأمون(١٢٠) .

ولم تقتصر حركة الترجمة على خالد بن يزيد فحسب ، فقد امر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتاب أهرن بن اعين في الطب ، فنقله ماسرجويه من السريانية الى العربية(١٢١) .

ومما تقدم يمكن القول أن حركة الترجمة لم تكن فردية كما يقول Watt ١٢٢) ، بل كانت حركة عامة لكنها كانت محدودة . والسبب في ذلك قلة الذين يتقنون اللغات « فالترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذهبه ، ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ... ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية»(١٢٣).

ومع محدودية هذه الحركة الا أنها فتحت الاعين على المعارف والعلوم ، فاطلع المسلمون على مواد فكرية لم تكن معروفة من قبل الا بشكل اولي وغير علمي ، فأدخلتهم حركة الترجمة عالم العلم والمعرفة على اختلاف أنواعها، وبالتالي تمكن العرب من التحلي بالتفكير العلمي والطرق العلمية التي ساعدتهم فيما بعد على بناء أنظمتهم الفكرية (١٢٤) .

لقد ألم خالد بالثقافة العربية الاسلامية والثقافات التي عاصرته ورافق ذلك اهتمام بالكتب العلمية ، فبدأ بترجمة الكتب الكيميائية في مصر . وبذلك يكون القرن الاول الهجري هو بداية الاتصال مع ثقافات أهل البلاد التي كانت سائدة قبل الفتح الاسلامي ، لا كما يظن الكثيرون من انه منتصف القرن الثاني الهجري او منقلب القرن الثاني الى الثالث ، وبعد تأسيس بيت الحكمة الذي أسسه الخليفة المأمون(١٢٥).

كما ان الاهتمام بالعلوم اليونانية خاصة في الفلك والطب والرياضيات لم يكن مفاجئا كما توهم Ruska ، (١٢٦) بل هي حركة طبيعية نمت ببطء منذ صدر الاسلام ونضجت في العصر العباسي .

وأول اهتمامات خالد بن يزيد العلمية الكيمياء ، أو ما كان يطلق عليه اسم « الصنعة » (١٢٧) . فقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونان وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة . ومن الاسماء التي اعتمد عليها اصطفن ومارينوس . ويذكر Luclerc (١٢٨) أن خالدا قد نقل من مصدر لاتيني عنوانه « نشأة الكيمياء » تأليف مارينوس الذي تتلمذ على اذفر ،ويظن Luclerc أن أذفر هذا هو ابن أبجر العربي والذي قال عنه ابن أبي أصيبعة انه تولى التدريس في مدرسة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي .

واسم اصطفن كما ذكرت معروف عند ابن النديم ، وكذلك مريانوس حيث ذكر له صاحب كشف الظنون (١٢٩) رسالة بعنوان مقالتا مريانس الراهب لخالد بن يزيد في الكيمياء . وذكره أيضا ابن خلكان(١٣٠) في ترجمة خالد ، ويذكر (١٣١) Holmyard أن مريانوس لم يكن العالم الاول الذي اتصل به خالد ، بل انه أحاط نفسه بعددمن ذوي الاختصاص والخبرة بالصنعة .

والدافع الاساسي لتعلم الصنعة هو ما عبر عنه خالد في الديوان حيث يقول : « فاني لم ازل بحمد الله مذ سمت همتي وعلقت مهجتي بالفهم أطلب الصنعة لعلمي بما فيها من الكرامة والرفعة اذ هي أشرف الصناعات كلها ، ... صناعة تمنع من الهموم والتعب وذل المكتسب والمخاطرات في المطلب وبذل الوجه » (١٣٢) . ولم يكن خالد هو الذي قصد الدافع المادي من الكيمياء ، فقد كتب أحد الاميركيين في عام ١٩٢٨ « أن خير الطرق الآن وأسرعها لجلب المال هي الكيمياء ، فان المستقبل لها وهي تغزو كل شيء الآن » (١٣٣) . وقد ألف خالد في الصنعة الكتب التالية :

ثلاث رسائل تضمنت احداهن ما جرى له مع مريانوس ، وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار اليها وله فيها اشعار جيدة (١٣٤) . قال ابن النديم (١٣٥) رأيت

منه خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه الحرارات ، الصحيفة الكبير، الصحيفة الصغير، وصيته الى ابنه في الصنعة. وذكرها حاجي خليفة(١٣٦) في عدد أبيات فردوس الحكمة الفان وثلاثمائة وخمسة عشر بيتا ، أولها الحمد لله الواحد الفرد الذي له العز والمجد. وقال عنه الجلدكي (١٣٧) (ت ٧٤٣ هـ) هو كتاب نفيس وان طلبة زمانه لايفهمونـه الا باللفظ أما معانيه فهم بعيدون عن ادراكها ومن أخذ بظاهره فقد وقع في الضلال والخسران. وله كذلك كتاب السر البديع في الرمز المنيـع (١٣٨) ، والرحمـة في الكيميـاء (١٣٩) ومقالتا مريانوس الراهـب (١٤٠) .

وقد تمكنت من الاطلاع على وصية خالد لابنه في تعلم الصنعـة وديـوان خالـد القسم النثري واغلب الظن أن هذه المقدمة هي من ضمن الرسائل التي أشـار اليهـا ابـن خلكـان .

أما المنظومة الشعرية التي أشار اليها ابن النديم ، فهي كتاب الفردوس الـذي ذكره كل من حاجي خليفة والجلدكي والبغدادي . وفي هذا الديوان قصائـد يحتمـل نسبتها الى خالد وقصائد أخرى قد مزجت بها عندما جمعت في ديوان مستقل . يؤيد ذلك أن الذي قام بعملية الجمع قد استقى القصائد من مصادر شفهية وأخرى مدونة . وهذا ما يذكره جامع الديوان حيث يقول : « انه دون ما أطمأن له القلب والعقل وقام عليـه البرهان » . وواقع الامر يختلف عن ذلك كثيرا حيث ذكرت أسماء سنة وفاتهـا بعد خالد بن يزيد بمدة طويلة (١٤١) .

ويذكر ابن عساكر (١٤٢) من اهتماماته العلمية ، تحلية ماء البحر ، فقد كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء فقال خالد : منه من ماء السماء ومنه مايستقيه الغيم من البحر فيعذبه البرق والرعد فأما ما يكون من البحر فلا يكون له نبات وأما النبـات فما كان من ماء السماء وقال ان اشئت أعذبت ماء البحر . . . فأمر بقلال من ماء ووصف كيف يصنع حتى يعذب .

واهتم خالد بالطب وترجمت له الكتب(١٤٣) ووصفه (صاعد)(١٤٤) بأنه كان بصيرا بالطب ، وابن خلكان(١٤٥) انه كان أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيميـاء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما . ولما ادعى الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي النبوة زمن عبد الملك بن مروان قتله عبد الملك سنة ٧٩ ، فدخل عليه خالد وقال له : لو حضرتك ما أمرتك بقتله . قال ولما قال كان به المذهب فلو جوعتـه ذهب ذلك عنه (١٤٦). والاهتمام الطبي يقتضيه معرفة بالكيمياء ، وذلك نظرا للصلة الوثيقة بينهما خاصة في تركيب الادوية(١٤٧) .

واهتم كذلك بالفلك وترجمت له كتب النجوم(١٤٨). ويظهر العمل الفلكي بشكل واضح في رسالته الى ابنه في تعلم الصنعة ، وفي الديوان . وقال صاعد(١٤٩) أيضا : وكانت له معرفة باحكام الكواكب وتأثيرها في عالم الكون والفساد وحسب مذاهب العرب في أحكام النجوم . ولكن لم يصل الينا من الكتب الطبية والفلكية التي ترجمت شيئا .

ويذكر ابن السبندي (وقد توفي في القرن الخامس الهجري) ان الوزير ابا القاسم علي بن أحمد الجرجاني طلب ان يعمل فهرست لخزانة الكتب بالقاهرة ويرم ما اخلق من جلودها وانفذ القاضي ابا عبد الله القضاعي وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك ... وحضرت لاشاهد بصناعتي(١٥٠) فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلك خاصة ستة آلاف وخمسماية جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية وتأملنا ما نص زمانها فكان الف ومائتين وخمسين سنة (١٥١) .

هذه هي اهتمامات خالد بن يزيد العلمية والتي حصرت في الحديث والتاريخ والشعر والطب والفلسفة والكيمياء والفلك . وقد شكك العديد في اهتمامات خالد وحتى في شخصه حيث عده البعض كما سنرى اسطورة .

واول من وضع بوادر الشك ابن النديم (١٥٢) حيث قال :«... ويقال والله أعلم أنه صح له عمل في الصنعة » وتابعه ابن الاثير(١٥٣) حيث قال : « انه أصاب عمل الكيمياء ولايصح ذلك لاحد » ثم سار على نهجهم ابن خلدون(١٥٤) حيث قال : « وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالدا من الجيل العربي والبداوة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا ان يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه ممكن » .

وتابع هؤلاء من المحدثين عمر فروخ(١٥٥) وعبد الصاحب الدجيلي(١٥٦).

ومن الاوروبيين Ruska (١٥٧) حيث قال : .. وحسب المراجع العربية فان خالد بن يزيد هو أول من بحث في مجال الكيمياء ... ولكن على كل حال يجب على المرء أن يعتقد الى مدى يمكن الثقة بعناوين الكتب العربية .

والدوميلي(١٥٨) : قال : رفع بعض المؤرخين ثم بعض الكتاب المحدثين من بعدهم من ذكر خالد بن يزيد ، ولم يقتصر كما زعموا على تشجيع علماء اليونان وحثهم على ترجمة الكتب المؤلفة بلغتهم الى العربية بل كان هو نفسه أيضا عالما أصيلا على الاخص بعلم الصنعة (الكيمياء القديمة) ... وليس ذلك الا أسطورة محضة .

ويمكن الرد على هؤلاء بما يلي :

اولا : لقد رد ابن النديم (١٥٩) على نفسه ووضع الاثبات باهتمامات خالد الكيميائية عندما قال « ورايت من كتبه .... »

ثانيا : وصف الزبير بن بكار (١٦٠) خالدا بالعلم وقول الشعر ، وابن النديم (١٦١) يقول عن الزبير بن بكار : كان شاعرا صدوقا نبيل الراي .

ويكفي للرد على ابن الاثير وابن خلدون بأقوال محمد بن اسحق والزبير بن بكار ومصعب الزبيري ، والجاحظ وابو حنيفة الدينوري ، وابن قتيبة والطبري وابن النديم وصاعد وابن عساكر (١٦٢) ، وهم من القرب الى خالد بمكان ، ثم رواية حاجي خليفة اقرب الى الصحة ، لكونه من الرجال الموثوق بصحة رواياتهم ، فقد كان يتحقق بثقة في كل ما يورده في مصنعه المذكور (١٦٣) . هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان عدم فهم ابن خلدون لرموز الكيمياء السبب في اتهام خالد بن يزيد سيما ان هذه الرموز تظهر لغير الملم بها كأنها الغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم (١٦٤) .

وبالنسبة لروسكا Ruska فقد رد عليه هولميارد (١٦٥) حيث قال : ان ملوك وافراد قبيلة خالد قد شغفوا بهذا العلم نفسه .. وحتى في الظروف التي اشار اليها روسكا Ruska فلا تزال كتب واشعار لخالد في مكتبات الهند ومصر وأوروبا ، لم تمحص ولم تحقق بعد .

ورد على روسكا أيضا ستابلتون (١٦٦) StapIton حيث قال : ان الكتابات العربية القديمة لا تخلو من بعض قصص الخرافة والتهويل الا أن المحقق الدقيق يخرج منها بآراء ومعرفة علمية أصيلة .

اما الدوميلي : فقد رد عليه هولميارد (١٦٧) بقوله : والظاهر أن الدوميلي لم يمعن في مراجعة الكتب العربية وعلى الاخص كتب التراجم والتاريخ ، بل وحتى ما كتب عن خالد على قلة ما كتب عنه في المراجع القديمة ، وليس خالد بأسطورة كما أوضحت تلك المصادر أو كما جاء في كتب بعض المستشرقين ممن حقق التراث العربي ومحصه ، ودلل على عدم دقة الدوميلي بانه أخطأ في سنة وفاة خالد حيث ذكر انها في سنة ٦٤هـ — ٦٨٣ م وهذا ما يخالف كتب التراجم والتاريخ .

وبعد هذا العرض لحياة خالد بن يزيد واهتماماته العلمية يمكن اعتباره من الرواد المسلمين الاوائل الذين خاضوا مضمار العلم ، لقد أحب خالد العلم ووصفه بالمرتبة الثانية بعد النبوة (١٦٨) . قد قيل له كيف أصبت هذا العلم ؟، فقال : وافقت الرجال على أهوائهم ودخلت معهم في آرائهم حتى بذلوا لي ماعندهم وافضوا الي بذات انفسهم (١٦٩) .

المراجع والحواشي

(١) انظر : ابن قتيبـــة ، ابي محمد عبد الله بن‌مسلم : عيون الاخبار ، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية سنة١٩٢٥ ، ج١ ، ص ١٩٩ . البلاذري، احمد بن يحيى: فتوح البلدان، تح‌رضوان‌محمدرضوان، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ . العسكري ،ابي هلال : الاوائل ، تح محمد السيد الوكيل ، مطبعة دار امل طنجة/المغرب ١٩٦٦ ، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بــن أبي بكر ، تاريخ الخلفاء ، تح محمد محي‌الدين عبد الحميد ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢١٨ . العسقلاني ، شهاب الدين ابي الفضل‌احمد بن علي ، تهذيب التهذيب ، دائرة المعـــارف النظامية ، الهند ، حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ج٣ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ . ابن كثير ، عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ،السعادة مصر (د . ت .) ج٨ ، ص ٢٣٦ وكني ايضا بابي يزيد ، انظر : ابن عبد ربه ، احمدبن محمد : العقد الفريد ، تح محمد سعيد العريان، المطبعة التجارية الكبرى . ١٩٤٠ ،ج٧ ، ص ١١٥.

(٢) اشارت المصادر الى ان ولادة ابيه يزيد بــن‌معاوية كانت أما سنة خمس وعشرين أوست وعشرين (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٥) وان‌وفاته كانت سنة ٦٤ هـ ، ووفاة اخيه معاوية الثاني كانت سنة ٦٤ هـ . وكان عمره يوم وفاته مـــابين ٢٠ ــ ٢٥ سنة ، فعليه تكون ولادة معاوية مابين ٣٩ ــ ٤٤ . ولما كان خالد الابن الثاني فيمكن الاستدلال بان ولادته كانت مابين ٤١ ــ ٤٥ هـ . وقـــد ذكرت المصادر ان خالدا كان يوم جيرون،غلاماسكن‌الناس وتكلم كلاما أوجز فيه لم يسمع‌مثله. والغلام عند العرب هو الطار الشارب . وان وصف‌خالد،أنه صبي فربما يعود ذلك الى قصره فقد ذكـــر البلاذري (انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٩) ان خالد ابن يزيد كان قصيرا ، حتى انه لـــا خطب رملة بنت الزبير ، استقصروه ، فبلغه‌ذلك فجمع قوما قصاراً ومشى معهم ، ولبس قلنسوة فرضيت به .

انظر : الكلبي ، هشام بن محمد : جمهرةالنسب ، نسخة مصورة عن نسخة المتحف البريطاني، بحوزة د. عبد العزيز الدوري ،ج١ ، ص ٢٩. الدينوري ، ابو حنيفة : الاخبار الطوال ، تح عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ط ١ ،١٩٦٠ ، ص ٢٠٧، المسعودي ، ابي الحسن علي بن الحسين بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تح محمد محي الدين عبد الحميد ، السعادة ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٤٨، ج٣ ، ص ٨٢ ، البلاذري ، احمد بن يحيى : انساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد ، عن طبعة القدس ١٩٣٨ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٩ . الطبري، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف مصـــر ، ط ٢ ، ١٩٦٩ ، ج٥ ، ص ٥٣٣ . الذهبي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد: دول الاسلام ، ط ٢ ، دائرة المعارف الهند ـ الدكن ، ١٩٦٤ ، ج١ ، ص ٣٠ . النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الارب في فنون الادب ، تح محمد رفعت ، فتح الله ، الهيئة المصرية ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ٨٥ ــ ٨٧ . واللسان مادة ((غلم)) .

(٣) انساب الاشراف ، ج٤ ، ص ٦٩ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ .

(٥) تاريخ ، المطبعة الوهبية مصر ، ١٢٨٥ ، ج١ ، ص١٧٩ ، وانظر الطائي ، د.فاضل احمد ، اعلام العرب في الكيمياء ، دار الرشيد للنشر بغداد١٩٨١ ، ص ٢٥ .

(٦) تهذيب التهذيب ، ج٣ ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٧) شمس الدين ، محمد بن احمد بن عثمان : سير اعلام النبلاء ، تح مأمون الصاغري ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠١/١٩٨١ ، ج٤ ، ص ٣٠٣ ، واعتمدت كذلك على طبعة دار المعارف المصرية (١٩٥٧) .

(٨) البداية والنهاية ، ج٩ ، ص ٣٠ .

(٩) سير اعلام النبلاء (بيروت) ، ج٤ ، ص ٣٠٣.

(١٠) ابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ ، ج١ ، ص ٩٦ .

(١١) هدية العارفين ، ط ٣ بالاوفست عن نسخةاستنبول ٩٥٥ ج١ ، ص ٣٤٣ . وانظر : اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ ، وكرد علي ، محمد : الاسلام والحضارة العربية . القاهرة ،لجنة التاليف والنشر ، ط ٣ ، ١٩٦٨ ، ج١ ، ص ١٧٣ .

(١٢) ابو محمد عبد الله بن اسعد علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م ، ج١ ، ص ١٧٦ .

(١٣) الاخبار الطوال ص ٣٢٥ .

(١٤) تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١٢٠ .

(١٥) العبر في خبر من غبر ، تح صلاح الدين منجد ،الكويت ، ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ١٠٥ ، سير اعلام النبلاء (بيروت ، ج٤ ، ص ٣٨٣) .

(١٦) تهذين التهذيب ، ج ٣ ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(١٧) البداية والنهاية ، ج٩ ، ص ٨٠ .

(١٨) شذرات الذهب ، ج١ ، ص ٩٩ .

(١٩) الاخبار الطوال ، ص ٣٢٥ .

(٢٠) قارن اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(٢١) انظر : البغدادي ، محمد بن حبيب ، المحبر ،ذخائر التراث العربي ، بيروت (ل . ت) ، ص ٦، ٥٩ ، ٤٤٥ ، البلاذري ، انساب ، ج٤ ، ق٢،ص ٣ ، ٧٠ .

(٢٢) الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة المصرية) ، ج١٧، ص ٣٤٧ .

(٢٣) ابن حزم ، ابي محمد علي بن احمد بن سعيد ، جمهرة انساب العرب ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م ، ص ١١٢ .

(٢٤) الحموي ، ياقوت : معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية ، مطبعة دار المامون ، مصر (ل.ت) ج١١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ ، وانظر العسكري ابي هلال الحسن بن عبد الله : كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر، تح محمد علي البجاوي وزميله، ط١ ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٢٥) البلاذري ، احمد بن يحيى : انساب الاشراف، القسم الثالث ((العباس وولده)) ، تح د . عبد العزيز الدوري ، جمعية المستشرقين الالمانية، بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م ، ص ٧٤ . تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢٦) الاغاني (بولاق) ، ج١٦ ، ص ٨٨ ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٧ .

(٢٧) تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١١٧ ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٧ ، وانظر الزرو ، خليل داود: الحياة العلمية في الشام في القرنين الاول والثاني للهجرة ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٨٣ نقلا عن ابن عبد البر، ابو عمر يوسف، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، المدينة المنورة (ل . ت) ج١ ، ص ١٣٢ .

(٢٨) انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٥ .

(٢٩) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٥٧ . ابن رستة ، ابي علي احمد بن عمر ، الاعلاق النفسية ليدن ١٨٩١ ، ص ٢١٦ ، ابيض ، ملكة : التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة خلال القرن الاول للهجرة بالاستناد الى مخطوط ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠٨ ، نقلا عن ابن عساكر مخطوط ، ج٨ ، ق ٧٨ ، ترجمة صخر بن حرب . المحبرص ٢١٧ ، الطبري ، تاريخ ج٣ ، ص ٥٩٧ ، القلقشندي ، ابي العباس احمد بن علي : صبح الاعشى في صناعة الانشا نسخة مصورة ، المطبعة الاميرية (د . ت) ج٣ ، ص ١٠ .

(٣٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٥٧ .

(٣١) كتاني ، عبد الحي : التراتيب الادارية ، المطبعة الوطنية ، الرباط ١٣٤٦ هـ ، ج٢ ، ص ١٢١ ، نقلا عن شرح المواهب ، ج٣ ، ص ٣١٩.

(٣٢) انساب الاشراف ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٣١ .

(٣٣) السدوسي ، مؤرج بن عمر . حذف من نسب قريش . تح د . صلاح الدين منجد دار العروبة ، مصر ١٩٦٠ ، ص ٤٢ ، وانظر ابيض ص ٩٢ نقلا عن ابن عساكر ، ج١٩ ، ق ٣٠٩ ، ترجمة رجل غساني رواية الشعبي .

(٣٤) ابيض ص ١٥٩ ، نقلا عن ابن عساكر ، ج١٨، ق ١٨٥ ، ترجمة يزيد بن معاوية .

(٣٥) Youssef Eche : Les Bibliotheques Arabes publiques et Semi-publiqnes en Mesopotapmie, en Syrie et en Egypt au Moyen-Age, Damas, Institut Français, 1967, XXXVI, P. 117.

وانظر : ابيض ، ص١٠٦ .

ويذكر كرد علي ، خطط الشام ، دمشق١٣٤٨ هـ/١٩٢٨ م : ان أول خزانة في الاسلام انشئت في دمشق ، انشاها حكيم آل مروان خالد ابن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ ، ولم يصل الينا من اخبارها شيء ولا شك انها كانت تحوي بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية والسريانية في الكيمياء والطب والنجوم وغيرها، ج٦ ص ١١٩ .

(٣٦) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ـ مكتبة المثنى بغداد (د . ت .) ج٢ ، ص ١٥٣٣ .

(٣٧) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣ نقلا عن سويريوس توما ، تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية، مطرانية بيروت ١٩٥٣ ، ج١ ، ص ١٥٨ .

(٣٨) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣ ، نقلا عن تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، ج١ ، ص ١٤٨.

(٣٩) ن.م ، ص ١٤ ، نقلا عن ن.م ، ج١ ، ص ١٥٧.

(٤٠) اوليري ، دي لاسي : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة د . وهيب كامل مراجعة زكي علي ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص١٩١ .

(٤١) مجلة الهلال ، عدد ٦ السنة ٣٦ ، ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨ م ، ص ٧٢٨ وما بعدها .

(٤٢) اوليري ، علوم اليونان ، ص ٢٤ .

(٤٣) العالم ، واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، و د . محمد يوسف موسى، دار العلم ١٩٦٢ ، ص ١٢١ .

(٤٤) زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٧ نقلا عن الذهبي، شمس الدين ، محمد : تاريخ الاسلام ، مطبعة السعادة ، مصر ، عن مكتبة القدسي ١٣٨٣ هـ. ج٢ ، ص ١١٨ ، وانظر أبيض ص ٨٦ ، نقلا عن ابن عساكر ، ج٨ ، ق ٢٦٦ . ترجمة عبادة بن الصامت .

(٤٥) ابن عساكر ، ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ دمشق تح صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٤ ج١ ص ٣١٥ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ص ١٩ ، نقلا عن ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٢ ، ج١ ، ص ٦٠٦ .

(٤٦) زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٠ ، نقلا عن ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر مطبعة مصطفى محمد (د . ت) ، ج٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤٧) ابن عساكر ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٥٠ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٠ .

(٤٨) الذهبي ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢١٦ ، وانظر زرو، الحياة العلمية ، ص ٢٨ .

(٤٩) البلاذري ، انساب ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٣ ، وانظر العقد الفريد ، ج٢ ، ص ٢٤٣ ، وان عساكر ، ج٦ ، ق ٣٥ ، ترجمة غفل بن حنظلة السدوسي . وج٣ ، ق ١١١ ترجمة اياس بن معاوية ، أبيض ص ٨٥ .

(٥٠) أبيض، ص١٠٣، نقلا عن ابن عساكر، ج ١٠ ، ق٤٠٦ ، ترجمة عبد الرحمن بن يزيد ، ج١٣ ، ق ١٣٤ ، ترجمة عمر بن نعيم .

(٥١) الخربوطلي ، علي حسني ، العراق في العهد الاموي ، نقلا عن :

Lammans. S.J. Etudes sur le régne du Calife Omayyade Moawiya 1 er Leipzig 1908, p. 309.

(٥٢) وصية خالد بن المجموع رقم ١٣٦٧ ، المجمع العلمي العراقي، وقد أخطأ الاستاذ ابراهيم خورشيد الذي فهرس رقاق المخطوطات حيث اسماه ديوان خالد بن يزيد بن معاوية ، ص ٧٧ .

(٥٣) البلاذري ، أنساب الاشراف ، نسخة مصورة عن نسخة استانبول بحوزة الدكتور عبد العزيز الدوري ، ص ٦٤٧ .

(٥٤) ن . م ، ص ٥٨٥ .

(٥٥) ابن جعفر ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة . شرح وتعليق د. محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٣٠٢ .

(٥٦) ابن خياط ، خليفة ، تاريخ . تح اكرم ضياء العمري ، النجف ١٩٦٧ ، ج١ ص ٢١٨ ، ابن النديم ، محمد الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت (د . ت) ٣٣٩ ، الاوائل ٢٠٣ .

(٥٧) الفهرست ١٧٧ .

(٥٨) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٢٢ ، نقلا عن بروكلمان ، كارل ، تاريخ الادب العربي ، المعارف مصر ١٩٥٩ ، ج١ ص ٢٥٦ .

(٥٩) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٢٣ ، نقلا عن رستم اسد : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، مطبعة دار الفنون ، بيروت ، د . ت ، ج٢ ، ص ٦٩ .

(٦٠) الجهشياري ، ابي عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب ، تح . مصطفى السقا وزملائه، ط١ ، الحلبي ، القاهرة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م ، ص ٣٤ .

(٦١) ابن ابي اصيبعة، موفق الدين ابن العباس احمد بن القاسم . عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق نزار ضياء ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٧١ وانظر جمهرة النسب ، ج١ ، ص ٦٠ ، الاوائل ص ١٨٨ .

(٦٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ١٧١ ، الاوائل ، ص ١٨٨ .

(٦٣) ابن ابي اصيبعة، ص١٧٩، البداية والنهاية، ج٩ ، ص ٨٠ .

(٦٤) انظر : ابن ابي اصيبعة، ص١٧٥، ابن جلجل، ابي داود سليمان بن حسان : طبقات الاطباء والحكماء تح فؤاد سيد المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية ١٩٥٥ ، ص ٥٩ ، ابن العبري ، غريغوريوس الملطي : تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٦٥) ابن جلجل ، ص ٥٩ وما بعدها ، ابن العبري، ص ١١٢ وانظر عن استعانة هشام بن عبد الملك : قدامة ، الخراج ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(٦٦) انظر مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٩٢ ، الطبري، تاريخ ج٥ ، ص ٥٣١ ـ ٥٣٧ ، ابن زرعة ، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري : تاريخ ، تح د . شكر الله نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ، ١٩٨٠ ، ج١ ، ص ١٩١ ، العقد الفريد ج٥ ، ص ١٣٤ ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٠ .

(٦٧) مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٩٥ .

(٦٨) انساب الاشراف ، ج٥ ، ص ٣٠٦ ، الطبري ، تاريخ ، ج٥ ، ص ١٤٢ .

(٦٩) ابو العرب ، محمد بن احمد بن قيم التميمي (ت ٣٣٣ هـ) تح د . يحيى وهيب الجبوري ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ . وانظر ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بن مسلم ، تاريخ الخلفاء (الامامة والسياسة) المنسوب اليه ، تح طه محمد الزيني ، الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج٢ ، ص ١٢ ، قال له يا ابن الربوخ وهي التي يغشى عليها عند الجماع .

(٧٠) ياقوت ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٨ .

(٧١) انساب الاشراف ، ج٥ ، ص ٣٠٦ .

(٧٢) العقد الفريد ، ج٦ ، ص ١٥٧ ، وانظر نقده لراي مروان بن الحكم ، وانظر ايضا تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١٢٠ .

(٧٣) ابو البقاء ، هبة الله ، المناقب المزيدية في الملوك الاسدية . نسخة مصورة عن نسخة المتحف البريطاني ، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية ، رقم ٣٠١ ، لوحة ١٠٢ .

(٧٤) المبرد ، ابن العباس ، الكامل في اللغة والادب والنحو والتصريف تح احمد محمد شاكر ، الحلبي، مصر ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م ، ج١ ، ص ٣٠١ ، المناقب المزيدية لوحة ٢٣ .

(٧٥) ابن بكار ، الزبير : الاخبار الموفقيات تح ، سامي مكي العاني، مطبعة العاني بغداد ١٩٧٢، ص٤٦٨، عيون الاخبار ، ٣ج ، ص ١٣٠ ، وانظر عن العلاقة بينهما الزبيري ، ابي عبد الله المصعب بن عبد الله : نسب قريش ، تح ، بروفنسال ، ط ٢ ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٦ ، ص ١٣٠ ، الاغاني ، ج١٧ ، ص ٣٢٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ (الهيئة) المبرد ، الكامل ، ج١ /٢٨٩ ـ ٢٩١ ، مرآة الجنان ، ص ١٧٧ .

(٧٦) ديوان خالد بن يزيد ، المكتبة الظاهرية ، دمشق ، ٧٦١٤ لوحة ١١ وانظر انساب الاشراف ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ١٩ .

(٧٧) الطبري ، تاريخ ، ج٦ ، ص ٣٨٩ ، ٤٢١ .

(٧٨) عيون الأخبار ، ج١ ، ص ١٩٩ ، المعارف٥٥٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ ، الاوائل ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ ، السيوطي ، تاريخ،ص ٢١٨ ، المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ، اغاثة الامة بكشف الغمة نشرة محمد مصطفىزيادة وزميله ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥٣ .

(٧٩) عن علاقته مع الحجاج ، انظر : المبرد ، ج١ ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ، العقد الفريد ج٧ ص ١١٤ ــ ١١٥، الاغاني (الهيئة) ج١٧ ، ص ٣٤٤ ، انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٧ ، البداية والنهاية ج٩ ص ٨٠ .

(٨٠) انســاب الاشـراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١ ، الاغاني ، ج١٧ ، ص ٣٤٥ ، (الهيئة) العقد الفريد ج٢ ، ص ٩٤ ، مرآة الجنان ، ص ١٧٧ .

(٨١) التميمي ، ابي محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم محمد بن ادريس . الجرح والتعديل ، دائرة المعارف حيدر آباد الدكن . مجلد ١ قسم ٢ ، ص ٣٥٧، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(٨٢) سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، معجـم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(٨٣) المتري ، جمال الدين . تحفة الاشراف لمعرفــة الاطراف مع النكت الظراف على الاطراف ، تعليقـات الحافظ ابن حجر العسقلاني تصحيح عبد الصمد شرف الدين ، وزارة المعارف ، حيدر اباد ، بمباي ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م ، ج٣ ، ص ١٣١ ، الحاكم النيسابوري ، ابو عبد الله محمد بن عبدالله المستدرك على الصحيحين في الحديث الرياض ، مكتبــة ومطابع النصر (ل.ت) ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، سير أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ . معجم الادبــاء ج ١١ ، ص ٣٦ .

(٨٤) صحيح البخاري ، دار احياء التراث العربــي (ل.ت) ، ج ٣ ، ص ٦١ وقد أسند عكرمة عن ابن عمرو وابن عباس وابي سعيد وابي هريرة والحسين بـن علـي وعائشة وآخرين . انظـر ابـن الجوزي صفة الصفوة ، دار المعارف ، بيروت ، لبنان ١٣٩٩ هـ /١٩٧٩ م ، ط٣ ، ج٢ ، ص ١٠٤.

(٨٥) انظر : صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٧٩ ــ ٨٣، الجرح والتعديل ، م ١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٧ ، تحفـة الاشراف ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، المستدرك ج ٣ ، ص ١٣١ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ ، ابن زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٦ . معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ، سير اعلام النبـلاء، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣ .

(٨٦) سند الامام أحمد بن حنبل ، ص ٢٥٨ ، نسخة مصورة عـن طبعة بولاق ، تهذيب ابن عساكر، ج٥، ص ١١٧ .

(٨٧) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٦ ، معجـم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ .

(٨٨) سير أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ، معجـم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، البداية والنهايــة ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

(٨٩) الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٣ ، المعارف ، ٣٥٢ ، ابن زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ، سـير اعلام النبـلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ، البدايــة والنهاية ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

(٩٠) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٩ .

(٩١) ديوان خالد ، لوحة ٥ ، وانظر تهذيب ابن‌عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٧ ، ١٢٠ ، ذرو ، الحياة العلمية ، ص ١٨٠ .

(٩٢) الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، الطبعة ٣ (د.ت) ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٩٣) ديوان خالد ، لوحة ١ .

(٩٤) انظر : الواقدي ، محمد بن عمر : المغازي ، تح مارسدن جونس ، جامعة اكسفورد ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، القسم الثالث ص ٨٥ ـ ٨٦ ، سير أعلام النبلاء (دار المعارف) ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

(٩٥) انظر الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٤٢ ، الاغاني ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، ج ١٧ ، ص ٣٤٤ ، سير أعلام النبلاء (دار المعارف) ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

(٩٦) الفهرست ، ص ١٥١ .

(٩٧) أنساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٦ وما بعدها ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٣ المعارف ، ص ٣٥٢ ، الجاحظ ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر ، البيان والتبيين تح عبد السلام هارون ، ط ٤ ، بيروت (د.ت) ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، الاغاني ج ١٧ ، ص ٣٥ ، الاوائل ، ص ٢٠٥ ، تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١٢٠ ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٥ وما بعدها ، ابن القفطي ، محمد بن علي بن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ، ص ١١٩ العراقي ، ابي القاسم ، محمد بن احمد ، العلم المكتسب في زراعة الذهب ، باريس ١٩٢٣ ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٩٨) ديوان خالد لوحة (٢) .

(٩٩) الوصية ، ص ٧٧ .

(١٠٠) الفهرست ، ٣٤٠ ، ٣٩٨ .

(١٠١) انظر : الاغاني (الهيئة) ج ٢ ، ص ٩٨ ، المناقب المزيدية ، لوحة ١٢١ ـ ١٢٢ ، الاسكافي ، محمد بن عبد الله ، لطف التدبير ، تح أحمد عبد الباقي دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م ، ص ١١٠ آل علي ، نور الدين ، التعريب وأثره في الثقافتين العربية والفارسية مع ترجمة كتاب المعربات الرشيدية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٥٨ .

(١٠٢) المعارف ، ص ٦٠ ، ابن سعيد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تح د . نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ، ١٩٨٢ ، ج ٢ ، ص ٥١٣ .

(١٠٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ (دار الكتاب العربي بيروت) .

(١٠٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق عبد الله بن عمران ـ عبد الله بن قيس ، مصورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٨٧ .

(١٠٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٥٩ .

(١٠٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٨ .

(١٠٧) انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ، ص ٤٧٧ ، ابن عساكر ، عبد الله بن عمران ، عبد الله بن قيس . ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص، ص ٢٠٨، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ .

(١٠٨) أوليري ، علوم اليونان ، ص ١١١ ، ١٩٢ - ١٩٣ ، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، لكبار المستشرقين ترجمها عن الالمانية والايطالية عبدالرحمن بدوي ، الكويت وبيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٥٤ .

(١٠٩) الدوميلي ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، التراث اليوناني ، ص ٥٥ .

(١١٠) التراث اليوناني ، ص ٥٤ .

(١١١) التراث اليوناني ، ص ٥٥ ، وانظر اوليري ، علوم اليونان ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(١١٢) علوم اليونان ، ص ٣ ، ٢١١ .

(١١٣) كوينتش باول . حركة الترجمة الى العربية ومن العربية وأهميتها في تاريخ الفكر ، مجلة آفـاق عربية . بغداد السنة السابعة كانون الثاني ١٩٨١ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(١١٤) سزكين ، فؤاد ، محاضرات في تاريخ العلوم ، الرياض ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ص ١٣ ، وقارن : فروخ عمر . تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١١١ ، وما بعدها .

(١١٥) أبيض ، ص٩٤، نقلا عن أمين أحمد : فجر الاسلام ، النهضة المصرية ط ٧ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٣٢ ، وانظر ابن عساكر ، ج ٢ ، ق ٥٥ ، ترجمة ادهم بن محرز ، ج ٣ ، ق ١١١ ، ترجمة اياس ابن معاويـة ، واوليري ، علوم اليونان ، ١٩٢ - ١٩٣ .

(١١٦) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(١١٧) ابن الزبير القاضي رشيد ، (ت في القـرن الخامس للهجرة) تح محمد حميد الله ، سلسلـة التراث العربي ، الكويت ١٩٥٩ ، ص ١٠ .

(١١٨) الفهرست ، ٣٣٨ ، ٤٩٧ ، وانظر عبد الرحمن، حكمت نجيب ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٧ ، ص ٢٤٣ و :

Hell, Joseph. The Arab civilization, cambridge 1926 Translated from Germany by Kuda Bukush Lon don, 1952, p. 60.

(١١٩) E.J. Holmyard; Alchemy, Pelican Book Isted 1957 P. 61 - 64.

وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٣٣ .

(١٢٠) انظر ، ابيض ، ص ٦٣ ، نقلا عن :
Youssef Eche p. 11-12.

(١٢١) انظر : صاعد ، ابي القاسم صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم ، نشره الاب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤٨ ، ابن جلجل ، ص ٥٩ — ٦٠ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ، الدوميلي ص ١٣٥ .

(١٢٢) Montogemry. Islamic Survey I. Edinburgh 1964, P. 41.
وانظر دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٦ ، كرد علي ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(١٢٣) الجاحظ ، أبي عثمان بن بحر : الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، الحلبي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٥٦ هـ/١٩٣٨م ، ج٧ ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(١٢٤) باول ، حركة الترجمة ، ص ٣٠ .

(١٢٥) انظر : الدوميلي ، ص ٢٦٠ ، سيزكين ، ص١٣ ، نقلا عن :

(١٢٦) Julius, Arabische Alchemisten chalid Ibn lazid Ibn Muawiya, Heidelberg, 1942, P. 5-6.

(١٢٧) الخوارزي ، أبي عبد الله محمد بن احمد بن يوسف : مفاتيح العلوم دار الكتب العلمية ، بيروت (د. ت.) يقول الكيمياء ، كلمة عربية مشتقة من كمى يكمي اذا ستر وخفي ويقال كمن الشهادةيكميها اذا كتمها ، انظر : ص ١٤٦ .

(١٢٨) Histoire de la Medecine Arabe 1.p. 62.
وانظر حاشية ابن جلجل ، ص ٦٠ ، وابن ابي اصيبعة ، ص ١٧١ .

(١٢٩) حاجي خليفة ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

(١٣٠) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، وانظر ديوان خالد ص ٢ — ٣ .

(١٣١) وانظر اعلام العرب والكيمياء ، ص ٢٨ — ٢٩ . Alchemy p. 61-64.

(١٣٢) ديوان خالد ، ص ١ — ٢ .

(١٣٣) مجلة الهلال ، العدد الرابع ، السنة ٣٦ ، ١٩٢٨ ، ص ٤٨٤ .

(١٣٤) انظر : معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(١٣٥) الفهرست ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٣٦) كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٥٣٣ ، أول الديوان في المكتبة الظاهرية : الحمد لله بحمد نحمده وبتوفيقه نعبده الذي من علينا .

(١٣٧) غاية السرور في شرح ديوان الشذور (مخطوط واشنطن) لوحة ٢٥٥ ، وانظر مجلة معهد المخطوطات العربية / الكويت ، م ٢٦ ، ج ٢ ، ١٩٨٢ ، ٥٥٥ . دراسة تحليلية في ديوان خالد بن يزيد في الكيمياء ، فاضل خليل ابراهيم .

(١٣٨) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ، وورد عند البغدادي ، اسماعيل باشا : هدية العارفين ، نسخة مصورة بالاوفست عن نسخة استانبول ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، « السر البديع في رمز المنيع في علم الكاف » .
وانظر أعلام العرب في الكيمياء . ص ٢٥ .

(١٣٩) يذكر د . فاضل احمد الطائي ، اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ : أغلب الظن ان كتاب الرحمة لجابر بن حيان ، وقد أوردته مصادر عديدة .

(١٤٠) انظر هدية العارفين ، ج١ ، ص ٣٤٣ ، أعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(١٤١) فاضل خليل ، مجلة معهد المخطوطات، ص ٥٥٥ نقلا عن مخطوطة بيروت ، لوحة ١ ، هذا وقد قام السيد فاضل خليل ابراهيم من جامعة الموصل في احصاء نسخ الديوان ، وهي :
- مكتبة المتحف العراقي رقم ٢١٢٣ بعنوان ديوان خالد بن يزيد في الصنعة ومنها نسخة دار الكتب المصرية .
- منظومة في الكيمياء ، المكتبة الوطنية باريس ، رقم ٦٢٨١ .
- المكتبة الشرقية ـ بيروت ، رقم ٢٥٥ بعنوان « فردوس الحكمة » .
- المكتبة الظاهرية ، دمشق ، رقم ٧٦١٤ بعنوان : « هذا كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان وما جرى بينه وبين الراهب مريانوس من الاسئلة » .
- مكتبة اصافيا ، حيدر آباد الدكن ـ الهند، بعنوان « المنتخب من ديوان خالد » .
- خزانة د. حسين علي محفوظ . الكاظمية ، بغداد رقم ٢٥١ بعنوان « المختار من فردوس الحكمة / ديوان خالد » .
- مكتبة كوبرولو ، استانبول تركيا رقم ٩٢٤ بعنوان « ديوان النجوم » .
- مكتبة لاله لي . استانبول ، تركيا ، رقم ١٦١٣ ، بعنوان «اختيارات خالد الحكيم في الحكمة».
- مكتبة بغدادلي وهبي ، استانبول تركيا ، رقم ٢٢٥٤ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة جار الله ولي الدين استانبول تركيا، رقم ١٦٤١ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة اصغر مهداوي طهران / ايران ، رقم ٣٣٩ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة الولاية (٢١) رامبور ـ الهند رقم١٦ ، بعنوان « كيمياء » .
- دار الكتب المصرية ـ القاهرة ، مجموع من رقم ٢١٦ ـ ٢١٧ مقصورة في الصنعة الالهية .
وانظر اشعار خالد في المكتسب لزراعة الذهب .

(١٤٢) تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١١٩ وانظر ابيض ، ص ١٠٦ .

(١٤٣) التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(١٤٤) طبقات الامم ، ص ٤٨ .

(١٤٥) وفيات الاعيان ، ج٢ ، ص٢ ترجمة رقم ٢٠١ .

(١٤٦) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣٠ ، نقلا عن الذهبي ، تاريخ الاسلام ج ٣ ، ص ١٤٩ .

(١٤٧) انظر الديوان ، ص ١٠ — ١١ .

(١٤٨) انظر : البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٢٨ ، انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ص ٦٥ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، نقلا عن السيوطي في « أوائله » .

(١٤٩) طبقات الامم ، ص ٦٠ .

(١٥٠) كان من أهل المعرفة والعلم والخبرة بعمل الاصطرلاب والحركات .

(١٥١) مختصر الزوزني بالمنتخبات الملتقطات ، من كتاب أخبار الحكماء للقفطي ، المثنى بغداد والخانجي مصر عن نسخة ليبزغ ١٩٠٣ ، ص ٤٤٠ .

(١٥٢) الفهرست ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٥٣) الكامل في التاريخ (دار صادر) ، ج ٤ ، ص١٢٥ .

(١٥٤) المقدمة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، (د . ت) ، ص ٥٠٥ .

(١٥٥) تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٤٢ .

(١٥٦) اعلام العرب في العلوم والفنون ، النجف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(١٥٧) Arabische P. 29-30, 50-51.

(١٥٨) العلم وأثره ، ص ٩٩ ، ٥٥٤ .

(١٥٩) الفهرست ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٦٠) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٧ .

(١٦١) الفهرست ، ص ١٦٠ .

(١٦٢) انظر : الفهرست ، ص ٤٩٧ ، الاغاني ، ج١٧ ، ص ٣٤١ ، نسب قريش ، ص ١٢٩ البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، الاخبار الطوال ، ص ٢١٠٦ ، المعارف ، ص ٣٥٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ . طبقات الامم ، ص ٤٨ ، ٦٠ ، تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص١١٧ وما بعدها .

(١٦٣) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٤٤.

(١٦٤) المقدمة ، ص ٥٠٤ ، وانظر عن الرموز ايضا : الديوان لوحة ١ ، ٥ ، زراعة الذهب ، ص ٤٨ وما بعدها .

(١٦٥) Alchemy, p. 61-64. وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٩ ، ومجلة معهد المخطوطات ص ٥٥٧ ، عن راي هولميارد في اشعار خالد في كتابه Makers of Chemistry, p. 44

(١٦٦) اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٣٣ .

(١٦٧) ن.م ، ص ٢٦ . Holmyard, p. 61-64

(١٦٨) الوصية ، ص ٧٧ .

(١٦٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ ، وانظرديوان خالد ، لوحة (٣) .

★ ★ ★

الدَّعْـوَةُ العَبَّـاسِيَّةُ

دراسة في الهوية من خلال المصادر الجديدة والآراء المتضاربة

د . نبيه عاقل

جامعة دمشق

احتدم نقاش طويل ، بين الباحثين المحدثين ، ومن خلال دراسات علمية جادة ، كان بينها رسائل قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعات كبرى(١) حول موضوع هوية الثورة العباسية ، التي ادت الى سقوط خلافة بني امية ، وقيام خلافة بني العباس . وكان ما قاله (دانييل دينيت) في رسالته عن (مروان بن محمد) من أن: نقطة الجدل في اطروحته هي ان سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان ، بل نتيجة ثورة في سورية(٢) ، المؤشر الاول الى موقف مخالف للمواقف التقليدية من الدعوة العباسية . فقد كان التفسير التقليدي ، وهو الغالب ، ان الدعوة العباسية التي انتهت بفوز عسكري لمؤيدي ودعاة بني العباس ، هي ثورة انقلابية نقلت السلطان في الدولة من اسرة عربية قرشية مسلمة الى اسرة اخرى لها نفس المواصفات ، وانها تحقيق لمسعى آل البيت الطويل للوصول الى ارثهم أو حقهم في الخلافة باعتبارهم اقرب الناس نسبا الى الرسول ، الامر الذي كانوا يتنازعونه مع آل علي بن ابي طالب (الشيعة) الذين سبقوا سواهم من القرشيين في المطالبة بهذا الحق .

والى جانب هذا التفسير التقليدي كان هناك ، قبل اشارة (دينيت) ، ما يمكن تسميته بالتفسير (العنصري) أو (القومي) الذي يمثله مستشرقون رواد ، من أمثال (فان فلوتن) و (فلهاوزن) وسواهما ، الذين رأوا في الدعوة العباسية وانتصارها ثورة قومية ايرانية توجهت ضد الظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والاضطهاد السياسي ، الذي كانت تعاني منه فئة الموالي التي كانت غالبيتها من الفرس ، والتي تمثل الجمهور الاعظم من رعايا الدولة الاسلامية . وقد رأى المستشرق فان فلوتن ، الذي تأثر بالافكار القومية التي كانت تسود اوربا في القرن التاسع عشر ان الازمة التي شهدتها الدولة الاسلامية في نهاية الحكم الاموي ، والتي انتهت بفوز بني العباس ، ازمة صراع على السلطة بين الاقلية العربية الحاكمة في الدولة ، والغالبية غير العربية من الرعايا غير العرب ، وعلل انحياز اهل خراسان الى الدعوة العباسية وتأييدهم لها بأسباب من بينها(٣) :

١ ــ كره الجماهير الفارسية لحكامها العرب .

٢ ــ ميل غالبية الموالي الى آل البيت ومساندتهم للثورات الشيعية .

٣ ــ الاخطاء التي ارتكبها الحكام العرب وجورهم في معاملة رعاياهم من غير العرب ، مما ادى الى انبعاث الروح القومية الايرانية التي غدت المظلة التي يستظل بها المحرومون من أبناء الشعب الايراني والذين شغلتهم فكرة المهدي المنتظر . Messiah

وجاء فلهاوزن بعد ذلك فأيد آراء فان فلوتن وانطلق منها في عرض ارائه التي ضمنها كتابه (الدولة العربية وسقوطها) (Das Arabisch Reichund Seinsturz)

وعلى الرغم من أن فالهاوزن كان أول من تنبه الى دور عرب خراسان في الثورة العباسية ، الا انه عزا تحركهم الى دوافع عصبية فحسب ، تتمثل في النزاعات القبلية التي تعود جذورها الى ما قبل الاسلام ، وسها عن الظروف الجديدة التي نجمت بعد استقرار القبائل الفاتحة في الامصار المفتوحة وارتباط مصالحها بأوضاع العصر الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن الحاح جماعة التفسير العنصري أو القومي على دور العناصر الفارسية فحسب ، بل شمل هذا التفسير عناصر قومية اخرى ، كعنصر الترك الذين كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر والذين لعبوا دوراً بارزاً في انجاح الثورة العباسية ضد الامويين ، حتى ان بعضهم اعتبر أبا مسلم الخراساني من أصل تركي،وانه استطاع في وقت قصير ان يكسب الى صفه اتراك بلاد ما وراء النهر(٤) .

وجاء بعد هؤلاء الباحثين باحثون جدد ، لعل أولهم واشهرهم هو المستشرق البريطاني المعروف هاملتون جب ، ومن بعده برنارد لويس ، اللذان نبها الى دور فعال للعرب في الثورة العباسية .

وكانت اشارة جب المشهورة في كتابه « الفتوح العربية في آسية الوسطى » والتي يقول فيها ان الروايات التي تظهر حماس الايرانيين لابي مسلم الخراساني صحيحة فقط في الفترة التي تلت نجاحه ، اذ ليس هناك أي دليل في رواياتنا التاريخية الموثوقة على حركة جماهير ايرانية كما يصورها بعض المؤرخين(٥) ، تقول : كانت اشارة جب هذه اول تنبيه يصدر عن باحث جاد الى اهمية دور العرب الفعال في الثورة العباسية . وفي العديد من البحوث والكتب ، اشار المستشرق جب الى أهمية دور العرب اليمانية في نجاح الدعوة ، واكد على عدم عنصرية الثورة ، ونفى

وجود حركة جماهيرية ايرانية يرأسها ابو مسلم الخراساني تهدف الى اقامة حكم تكون الكلمة فيه للعنصر الفارسي . وجاء برنارد لويس بعد جب ليؤكد دور العرب القاطنين في خراسان في نجاح ثورة بني العباس(٦). وكانت اشارات هذين المستشرقين على بساطتها وعدم عمقها ، مؤشرا لاتجاه جديد في دراسة هذا الموضوع .

وقد ساعد على نماء هذا الاتجاه والانحراف عن الخط التقليدي أو القومي اللذين اشرنا اليهما ، توفر مصادر مخطوطة لم يتح للباحثين السابقين ان يستخدموها ومن بين هذه المصادر مخطوطة « أخبار العباس وولده(٧) » وهي لمؤلف مجهول يرى الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ساهم في نشرها وكتب مقدمة لها ، بانه من مؤرخي اواسط القرن الثالث الهجري ، وانه قد يكون محمد بن صالح بن مهران المعروف بابن النطاح المتوفى عام ٢٥٢هـ/٨٦٨م(٨). ويذكر الدكتور الدوري في مقدمته ان مؤلف الكتاب « اعطى صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها وكشف عن جذور الغلو فيها مما لا يناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم ، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الى الوثيقة السرية منها الى كتاب للجمهور »(٩) . واهمية هذا المؤلف انه انفرد بمعلومات عن بداية الدعوة (حتى سنة ١٠٠ هـ) وبعض احداثها واسرارها مما لا نجده عند سواه من جهة ، ولربما كان استقاه من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة ورؤسائها والدعاة البارزين فيها . وعند الدوري ان ما جاء في الكتاب من اخبار عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم تعتمد على هذه المصادر وعلى اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي ، وبعض افراد الاسرة العباسية نفسها مثل عيسى بن عبد الله « عيسى بن موسى » وابراهيم بن المهدي والرشيد نفسه(١٠). وتكمن أهمية المعلومات الواردة في هذا المصدر الجديد في اننا نتعرف من خلالها على الاساليب التي تبنتها الدعوة لجذب رؤساء العشائر العربية في خراسان والعرب المستقرين في واحات مرو وقراها(١١) .

أما المصدر الثاني الذي جاءت فيه معلومات لم تكن معروفة للباحثين السابقين ، فهو كتاب « تاريخ الخلفاء » لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر ، وقد نشرت مصورة عن هذا المخطوط الوحيد وقدم لها بطرس غريازنيويج ، الاستاذ في معهد الاستشراق في موسكو ، وذلك في موسكو سنة ١٩٦٧ . ويذكر ناشر المصورة في ملخص بالانكليزية ملحق بها ان المادة الموجودة بالكتاب تعتمد في اصولها على مصادر سابقة ثلاثة هي : تجارب الامم لابن مسكويه ، واكتاب المعارف لابن قتيبة ، ومخطوطة تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول التي كان الدكتور الدوري قد عثر عليها عام ١٩٥٧ (ونشرها عام ١٩٧١ كما اشرنا في الهامش ٧) . ويذكر كاتب

الملخص هذا ان التشابه بين ما جاء في « تاريخ الخلفاء » ومخطوطة « اخبار العباس وولده » كبير جدا ولا سيما في احداث الدعوة وظروف وصـــول الخلفـــاء العباسيين الى السلطة ، حتى ان مؤلف تاريخ الخلفاء يبدو وكأنه نقل نقلا حرفيا عن صاحب كتاب « أخبار العباس وولده(١٢) » .

وقد قمت شخصيا ببعض المقارنات بين الكتابين فوجدت ان هذا الزعـــم صحيح وان المرء يميل الى الاعتقاد بنتيجة ذلك إن مؤلف « تاريخ الخلفاء » كان في كثير من المواضع يلخص المعلومات الواردة في كتاب « اخبار العباس وولده » وفـــي مواضع اخرى ينقلها نقلا حرفيا .

ونأتي الى المصدر الثالث الذي فات استعماله اصحاب الرأيين الاولين وهـــو الجزء الذي يعني بانساب واخبار « العباس بن عبد المطلب وولده » من انســـاب الاشراف للبلاذري ، والذي نشره مؤخرا الدكتور عبد العزيز الدوري(١٣) . وفي هـــذا الجزء من الانساب ومن خلال الحديث عن شخصيات عباسية ، من امثال محمد بن علي بن عبد الله بن العباس واولاده كابراهيم وعبد الله وبعض الشخصيات التـــي شاركت في الثورة العباسية والدعوة لها كقحطبة وابي سلمة والسفياني وسواهم(١٤) يذكر البلاذري اخبارا لا تتوافر عند سواه من أصحاب المصادر المتداولة ، كما ينقل عن رواة ثقاة من امثال المدائني وعمر بن شبه والهيثم بن عدي وسواهم ، فهو بهـــذا يكمل ما في مصادرنا من نواقص في الروايات لم تتوافر لهم .

والمصدر الجديد الرابع الذي لم يقع للباحثين الاولين في موضوع الدعـــوة العباسية هو كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي الذي نشر في حيدر أباد عام ١٩٧٥ . وابن الاعثم مؤرخ عربي عاش في القرن الثالث الهجري وتوفي في العام ٣١٤ هـ/٩٢٦ م ، وكتابه « الفتوح » لم يكن معروفا للباحثين ولم يفد منه الا باحثون محدثون علـــى الرغم من أهمية المادة العلمية المتوافرة فيه . ويعتمد ابن الاعثم في ذكر اخبـــاره اسلوب الاسناد الجمعي كاليعقوبي فيذكر في مقدمة كتابه اسماء الرواة الذيـــن اخذ عنهم اخباره . وتنبع اهميته من انه عاش في فترة مبكرة وانه كان من المصادر التي اعتمدها من تلاه من المؤرخين . وطبيعي انه بعد ان انتهى من ذكر الاحـــداث التي انتهت بسقوط خلافة بني امية لم يعد كتابه كتابا في الفتوح ، بل غدا من كتب التاريخ العام ، واستخدم أسانيد جديدة لاخباره واعتمد رواة مـــن أمثال المدائنـــي والبلاذري والهيثم بن عدي ، مما يجعل القارىء يشعر وكأن هذا الجزء من الكتاب كتاب جديد لا علاقة له بالقسم الاول الذي كان طابع الفتح واخباره هـــو الغالـــب عليه ، حتى انه يعتبر ظهور المسودة في خراسان وزوال بني امية بداية مرحلة جديدة

في التاريخ الاسلامي ، انتهى فيها عهد غلبت عليه الفتوح ، وبدأ عهد طبعته السياسة بطابعها ، وابن الاعثم علوي متشيع يعتبر الثورة العباسية من صنع اناس كانوا يعملون لصالح آل البيت وينقم على بني العباس استلابهم لهذه الثورة ، فيظهر السنوات الاولى من حكمهم وكانها فترة مجازر هدفت للثأر من الامويين لال البيت عموما . والمدائني غير دقيق في نقل اخبار هذه الفترة فهو انتقائي في سرده للروايات يسقط ما يريد ويحتفظ بما يناسب ميوله . وأيا كان فان في كتابه من المعلومات ما يزيد في زاد الباحث ومعلوماته ، ولكن لابد من الحذر في استعمال هذه المعلومات والتدقيق بما يؤخذ عنه من اخبار .

ويوصلنا ذلك الى الحديث عن كتاب تاريخ الموصل للازدي (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م) ، والذي طبع مؤخرا في القاهرة عام ١٩٦٧ والذي يعتبر من البواكير الاولى في التآليف التي نسميها « بالتواريخ المحلية » . ومعلوم ان هذا النوع من التواريخ ظهر متأخرا عن سواه من انواع التأليف التاريخي ، وغدا بعد ذلك من الميادين الشائعة التي طرقها المؤرخون المتأخرون (الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن تغري بردى في النجوم الزاهرة وسواها) وميزة هذا النوع من التواريخ انه يولي البلد الذي يتحدث عنه اهتماما خاصا من خلال اهتمامه باحداث التاريخ العام . والازدي في « تاريخ الموصل » قصد أن يضع سجلا يبحث في طبقات المحدثين الذين اشتهروا ، وكانوا من اهل الموصل او زاروها او اقاموا فيها (على نمط ابن عساكر في تاريخ دمشق) وقد فقد الجزء الاول من الكتاب ، وبقي الجزء الثاني الذي يبدأ باحداث العام ١٠١ هـ / ٧٢٠ م . وفي هذا الجزء نجد المؤلف يحرص على ذكر الاحداث التي كان لمدينة الموصل اثر هام فيها .

ورغم ان الكتاب من كتب « التاريخ المحلي » فان مؤلفه حرص على الا يفوته ذكر الاحداث الجسام التي حدثت خارج الموصل ، ولا سيما في منطقة الجزيرة وسواها من اقاليم الدولة الاسلامية . وقد اعتمد الازدي في جمع معلوماته وسردها طريقة المحدثين ، فاعطى لكل رواية سندها . وكان بين رواته ثقاة من امثال : المدائني وأبي معشر ، والهيثم بن عدي وسواهم . وعلى الرغم من ان الازدي يظهر في كتابه ميلا للعلويين الا أن صفة العدالة والضبط تظل غالبة على الكتاب حتى انه يقول في مقدمة بحثه انه « لم يعدل عن الصدق » . ومن تفحص المادة الموجودة في الجزء الذي نشر مؤخرا ، والذي يبدأ بالعام ١٠١ هـ كما اسلفنا ، نجد ان المؤلف قدم لنا معلومات هامة عن الفترة المتأخرة من حياة الدولة الاموية التي كانت خلالها دعوة بني العباس ناشطة . وتوضح الاخبار الواردة عند هذا المؤلف ان العنصر

العربي لعب دورا نشيطا في تأييد الثورة العباسية وانه ساهم مساهمة فعالة في القوة العباسية الضاربة التي حققت النصر لهذه الثورة . كما انا نقرأ عنده ما يظهر الـدور الذي لعبته الكتل القبلية العربية وشيوخها في دعم الثورة وايصالها الى جسم الصراع مع الامويين لصالحها ، ويشير الى دور العرب اليمانية ومن كان منهم بيـن طبقة النقباء في سلم الدعاة العباسيين ، ويؤكد اعتماد الثورة على العنصر اليماني ومعرفـة حقه ، هذا فضلا عن الدور الذي كان للموصل في احداث هذه الفترة ، وذكر اسماء اشرافها الذين قتلوا في تلك الاحداث(١٥) . وقد نقل عن الازدي بعض المؤرخيـن المتأخرين ولا سيما ابن الاثير ، دون ذكر اسمه ، وقد كشفنا ذلك بعد ان قيض لمخطوطة تاريخ الموصل ان ترى النور .

هذا وهناك مصادر اخرى اقل اهمية من هذه التي ذكرنا ولكنها مازالت تنتظر يد المحقق الامين ، ولعل اهمها مخطوطة كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م) والتي عاش صاحبها زمن المأمون والمعتصم ، ولكنها اقل اهمية من سابقاتها على ما يبدو ، لان صاحبها كان يهتم بجمع الاحاديث التي يزعم ان رسول الله كان قد تنبأ بها بفتن ستحدث(١٦) .

ان توافر هذه المخطوطات للباحثين ، وحتى قبل ان تحقق وتنشر ، كان نقطة البدء في الانعطاف الذي رأينا تباشيره عند جب ولويس والدوري ، وسواهم مـن الباحثين المحدثين ، الذين لبوا دعوة دانييل دينيت الى اعـادة النظر في موقـف الباحثين الاول ، من امثال فلهاوزن وفان فلوتن وسواهما ، وضرورة النظر بعيـن الاعتبار الى الدور الذي لعبه المقاتلة الخراسانية العرب وقبائل الازد وربيعة في ايصال الثورة العباسية الى النصـر .

وجاء بعد ذلك باحثون عرب من بينهم محمد عبد الحـي شعبان الـذي ذكـر في اطروحة دكتوراه قدمها لجامعة هارفرد الامريكية بعنـوان : « الجـذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية » ان هدف الثورة العباسية كان « دمج كـل المسلميـن العرب وغير العرب في الامبراطورية في مجتمع اسلامي واحد لكل فرد من ابنائه حقوق متساوية »(١٧) . وعلى الرغم مما في هذا الافتراض من مقولة قد تكون مقبولـة فـي الظاهر الا أن ما حدث بعد وصول العباسيين الى السلطة ، يثبت ان ذلك لم يتحقـق أبدا ، كما سنرى فيما بعد . وجاء بعد شعبان الدكتور فاروق عمر ليعلن « اننا يجـب أن نبحث عن أسباب للثورة العباسية في ظواهر أخرى غير ظواهر الصراع بين الفرس والعرب، أو التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسته السلطة الاموية تجاه الموالي، فقد أهمل المؤرخون المحدثون سياسة الامويين الادارية والماليـة في خراسان ، وردود

الفعل لدى اهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة »(١٨) . وفي موضع آخر يؤكد الدكتور عمر بأن « ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والسلطة المركزية الاموية في دمشق ، أثرت في ايجاد الجو المناسب للثورة دون شك »(١٩) ، وينبه بعد ذلك الى أنه يجب عدم اهمال دور المقاتلة من العرب الذين كانوا يتذمرون بسبب سياسة التجمير (التجميد) ، ولان الوالي الاموي كان يسلبهم فيئهم وغذاءهم في بعض الاحيان ، هذا فضلا عن النزاع المستمر بين شيوخ القبائل العربية في خراسان بسبب طموحهم للحصول على ولاية خراسان وما أدى اليه ذلك من اشمئزاز هذه القبائل ، وشعورها بأن لها في الثورة العباسية املا بحياة اكثر استقرارا ورفاهية(٢٠) كما أنه يركز على دور العرب الفعال في نجاح الثورة العباسية ، هذا الامر الذي أهمله الباحثون السابقون .

بعد هذا العرض السريع للاراء المختلفة حول هوية الثورة العباسية والعوامل التي ساهمت في صنعها وانجاحها ، والدور الذي لعبه ظهور مصادر جديدة في تغيير مواقف الباحثين ، نقول ان هذا النقاش بين الباحثين والالحاح على موضوع هوية هذه الثورة ومدى عروبتها أو عجمتها قد انتهى لصالح الفريق القائل باصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر رأي العديد منهم على أنها قامت على أكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . هذا بالاضافة الى عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس ابن أبي طالب عم الرسول ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، وأهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب اقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتأتلف قبائلهم من ورائهم ، حتى ان بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر ان الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها بالبعض الآخر لتنكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عماله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعة، وقد نجح في ذلك(٢١) . اما كتلة الموالي فلم تكن ذات هوية عرقية معينة، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفا مثل الجاحظ يميز بين (الموالي و (العجم) من جهة ، وبين (العرب) و (العجم) من جهة أخرى . فولاء (الموالي) كان خالصا للدولة ، لا لجنس معين وهذا يعني كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « أن التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجا من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للارستقراطية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة : الاسلام »(٢٢).

ومعلوم ان الثورة العباسية التي اسقطت حكم بني امية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيبا من جميع افراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان آخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكا عضوضا كسرويا(٢٣) .

واذا اضفنا الى ذلك ان الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع ابو بكر الصديق أن يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لايتزعزع بوجوب استمرار الدولة المسلمة الموحدة الاولى التي أقام الرسول دعائمها في المدينة ، ان هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت ان تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى ، واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت أن تنشر السيادة العربية وان توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد أن أكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف اصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي ولتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة أممية تزداد فيها أهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء (أمهات ولد) .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بانه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان أموية عربية ، ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر انه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها »(٢٤) ، ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاظم اهتمام أصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضاؤل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء أفراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربعها مكان الصدارة في السياسة والمجتمع . ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قامت بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعوبية والزندقة .

ورغم أنه لايدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا انه لابد لنا ان نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعي ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . ويتضح هذا الذي نزعم بصورة أكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعوبية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة أخرى . فالشعوبية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية اخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي . وما لبثت أن بدات حركات مريبة ، كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني ، وسواها ، تطل برأسها لتعمل في الجسد العربي نخرا وتخريبا . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا أنها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثارا أقلها انفصال أقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيرا ما كانت تحجبها عنه . وقد وضح هذا الصراع اكثر ما وضح في العراق ، قلب الدولة العباسية والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحا لصراع مماثل بين العروبة والعجمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبأت من قوى عرقية وبما استقطبت من نقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على أن هذا لا يعني أن المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لان انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر أغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من أحقاد ، كان أقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف ان السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الاخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي أقوى وأعمق اثرا من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس أتيح له ان يتفجر في لحظة ضعف فطغى ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

وهنا لابد لنا أن نشير الى أن هذا الصراع المرير بين العرب وغير العرب لم يكـن شرا كله ، اذ انه ساعد على بلورة فكرة « أمة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولـة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطا طويلا تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعـي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقـة محدودة الى صعيـد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتـاق .

وكان أول مظاهر هذا الوعي التأكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية ، فقد استطاعت العربية أن تصمد وان تحفظ وجها عربيا للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، الا نسرف في شـرح ابعاد واثار هذه الظاهرة ، ولكن لابد من التنويه بان كل من حمل راية معارضـة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهما في هذه المرحلة من بحثنا ان نتساءل عن الاسباب التي تكمـن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس ، التي بدأت حياتها وهي تلوح عاليا بهويتها العربية معتزة بها ، وبالدعم العربي الذي أوصلها الى سحق بني امية والتربع على كرسي السلطان ، بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية السوداء ، وما اخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد امد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟ وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين انصار الرأي القديم الذي يقول بعجمة الثورة وانصار الراي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع أصحاب الراي القائل بعجمة الثورة ان يستغلوا الاخبار التي نجدها في مصادرنا حول تذمر العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الاول كدليل على صحة نظريتهم . وفساد راي القائلين بان العرب عموما ، وعرب المشرق خصوصا ، هم الذين اوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لا بـد لنا مـن ان نتذكر الامور التاليـة :

اولا : ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي ان نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب اخبار الدولة العباسية(٢٥) ، باسماء النقباء ونظراء

النقباء والدعاة حتى يتبين لنا ان القائمين على الثورة كانوا عربا وغير عرب وان الذي يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني أمية وايصال بني العباس الى الحكم ، وان الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وانه كان لهم في ذلك مصلحةمشتركة

ثانيا : كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو ان هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الاول من أمثال سالم بن بجير (سالم الاعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي:

« ولما اجمع محمد بن علي على توجيه ابي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا أن نستبد بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد احببت ان استأذنك في شيء قد كنا رأيناه فخالفنا فيه بكير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما احب ان تخالفوا بكيرا فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في أمرنا هذا فرايناك قد حللت بين اهل الشام ، ورأينا لاهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فرأينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيه . قال محمد : أصاب بكير واخطأتم أبى الله أن يأتي بالشمس من المغرب ، وأحب أن يأتي بها من المشرق ، وان أهل الشام أعوان الظالمين وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاعين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني أمية ، واغرى اكثر أهل العراق بمشايعة بني أبي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم أنصارنا وأعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك ان تتبعهم ريح الحياة فتعز ذليلهم ، وتقوى ضعيفهم ، وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق وأهله ، يقول الله عز وجل : (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها) فكأنكم بالاودية قد سالت برجال خراسان أشد في طاعتنا من زبر الحديد ، أسماؤهم الكنى ، وانسابهم القرى ، يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، من غير اهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير اهلها مجيب »(٢٦) .

ويتضح من هذا الحوار ان سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد بن علي وموضع ثقته استغرب موقف بكير بن ماهان من أهل دمشق ومحاولته ابعادهم عن الدعوة ، على الرغم من ان بكيرا كان من موالي بني مسلية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من أهل الديوان قبل ان يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت(٢٧) . ومع ان سالما لا يطلب من محمد بن علي ان يشق بجميع اهل الشام وان يطلعهم على أسرار الدعوة ، وان يقتصر في ذلك على الثقاة منهم الذين يطمع في اجابتهم ، ولكن محمدا يرفض وينعت أهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد ان الله قد خصهم (اي بني العباس) باهل خراسان ، وان رحمة الله ستعز ذليلهم وتقوي ضعيفهم ، وكان في ذلك اشارة الى فئة خاصة من أهل خراسان هي

فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسيــة . كما انــه لا يمكن ان يفهم من وصف محمد بن علي للرجال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « اسماءهم الكنى » بانهم كانوا من العرب فقط ، لان زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكنون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى « بأبي هاشم » وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بابي اسحق ، وابو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . اما قوله بان « انسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عــن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقريــة التي يقطنونها . وعندنا ان هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركة السياسية الجديدة كان نتيجة قهر اجتماعــي واقتصــادي كبيرين ، عاشــه في تلــك المنطقة عرب وغير عرب ، جعل الشعور العصبي يتضاءل أمام الآمــال المعقــودة علــى نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي المنشود ، كما انه دليل على انصهار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من اخلاط الامم اللذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي ادى الى انتساب الناس الــى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري في عروقهم .

ثالثا : ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بانه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني امية ان ينكر اثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط أولئك ، كما انه لابــد أن نلاحــظ ان الاوضــاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني امية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب ايضا . واذا مــا استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة أو تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمرنفوذها في ظل بني امية ، لوجدنا ان النقمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك ، والتي ضمت العديد من رعايا الدولة ، عربا وغير عرب ، كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضا في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجددا ، لا سيما وان عوامل جديدة اخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجددا للغرض نفسه(٢٨) . فقد تبين لهؤلاء ان ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لاظهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء واخذ الحق من الاقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله أبو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملــة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي ابي مسلم وجماعته (٢٩) .

على ان الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونمامبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار امرها ان يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي اوصلتها للحكم ، واوجدت الوحشة بينها وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضداً قويا أمدها بالدماء والمهج التي حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من أن نذكر ان القضية الاقتصادية والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس ادل على هذا من قول محمد بن علي في وصف أهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « وما يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون »(٣٠) . فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحال والذين انضموا للثورة بأمل الخلاص لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على اقدامها ، حتى وضح لهم انها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا انهم سيتظللون أفياءه اذا ما كتب النصر لبني العباس . ومعروف ان التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد أن ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غدا تركيبا لا تجانس فيه تتقسمه المطامع الفئوية والعرقية لتعمل يد التخريب في جسد الدولة ووحدتها السياسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهرا واضحا من مظاهر الحكم زمن بني امية ، ولا سيما خلال فترات القوة ايام معاوية وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد ادت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع اهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة أو حركة اعتقدوا ان فيها تنفيسا عن كربهم او املا بنجاتهم ، حتى وصل الامر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احياء ما كان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفا دينيا او قوميا فحسب كما يحلو للبعض ان يفسره ، ولكننا نرى فيه أيضا تعبيرا عن نقمة اجتماعية واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة في نفوس هؤلاء المرتدين ، لاسيما وان السلطة العباسية لم تكن وفية لمبادىء المساواة والعدالة التي اطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الامويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيه، تفحص واع لبعض اخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ ايامها الاولى، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن ابي جعفر المنصور والتي تقدم مثلا واضحا على ما أصاب المحرومين من خيبة امل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه(٣١) .

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بانها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل احداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب اعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين

يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البدء في هذا النوع من التحركات مقتل ابي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل أبي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر انه كان مجوسيا ومن اتباع ابي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري ، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لا نجد في مصادرنا اجابات عليها ولا مجال لبحثها هنا .

وتتوضح هذه الصورة بابعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة اخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور ، كحركةالراوندية الذين خرجوا زمن ابي جعفر المنصور ، وكانوا من أهل خراسان ، وعلى رأي ابي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل ابي مسلم جهروا بقولهمبتناسخ الارواح ، وزعموا ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك .

على ان هذا الموقف من جانب ابي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين ادرك ان ما يقولون بالسنتهم ما هو الا تزييف لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم فحاولوا ان يأخذوا بظاهره لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة مالبثت ان انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على ان حركة الراوندية تظل رمزا بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

١ ــ هويتها الخراسانية .

٢ ــ حقدها الدفين على العرب .

٣ ــ حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لابد لنا ان نلاحظ ، ان خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعة علي بن ابي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس لهم . وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي من ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصا للاسلام .

واذا استعرضنا اهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها ، فيما كان يعرف باسم بلاد ماوراء النهر ، لوجدنا انه لم يكن يمر يوم دونما

انتفاضة في اقليم من الاقاليم او مدينة من المدن ، أو دونما ثورة يحركها زعيم محلي، وحتى ان القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة .

وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفا دائما ، وما تكاد تسد خرقا حتى تواجه بخرق أدهى وأمر . اذا أضفنا الى كل ذلك ان الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد اسلموا بعد ، أو ان الكثير ممن أسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفا أو مشوها لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا ان الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك الاصقاع ، كما ان أطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقاتهم وسلطانهم لجني أكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لاينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان أهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي أعلنتها ثورة بني العباس على أسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية ، وفي الاطار العام لسياسة الدولة .

فقد سار العباسيون بعد ان غدوا أصحاب السلطان شوطا أبعد في التنكرلشعارات ثورتهم اذ انهم وجدوا أن اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي ، وان حقهم في ولاية أمور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا ما لايقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم أحياء يرزقون ، أحق بارثهم عن أبيهم .

كما ان ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الغلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة تقوم على أساس من حق عمومتهم لرسول الله من جهة وثورتهم على « أهل الجور » اي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ، من جهة اخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو ان العباس عم الرسول (ص) وانه وريثه بعد ان انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وئيدة استمرت منذ عهد أبي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور .

واذا تركنا هذا المظهر الاول من مظاهر مخالفة العباسيين للاهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بآل البيت من العلويين ، وانتقلنا الى أمر آخر من الامور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني :

« أمرني الامام ان انزل في أهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا أدع نصيبي من صالحي مضر ، وأحذر أكثرهم من اتباع بني أمية ، وأجمع الي العجم »(٣٢) . وقوله « قد أمرنا الامام باختصاص اليمن » (٣٣) . هذا فضلا عن النقاش الطويل الذي أسلفنا الاشارة اليه حول هوية الثورة العباسية ، والذيجنح فيه الباحثون المحدثون الى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجها بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقريهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب وفي كل مدينة فيها حامية عربية ، لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولا كسبهم الى الدعوة العباسية » (٣٤) و « ان سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » كما يقول عبد الحي شعبان(٣٥) . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصبا على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوتن وسواه ، الذي يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة، ومحاولة منهم لابراز دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، وأناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الاول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية ، بقيادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكما لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الاسرة ، كان طبيعيا ان تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الامر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة ليغدوا شعورا عاما ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت أن الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ، لتحل محلها ثورات يمانية على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف أكدته جميع مصادرنا . ورغم أنه لايدخل في نطاق هذه الدراسة

التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا أقل من أن نذكر أن اهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيسا ويمنا الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شبث العقيلي عام ١٩٨ هـ ، والتي بررها بقوله انه لايكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لانهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الاعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دورا محرضا ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والاردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ والتي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة ألف رجل واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح أنها بدأت منذ الايام الاولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وان أسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما أعلنته من مبادىء ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على ابي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفا . . . وخرج جماعة علي أبي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » (٣٦) . وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين أمر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الاول وظنوا انها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيرا عن نقمة أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الاموية ، ولابتعاد مركز الخلافة عن دمشق . ولكن تتبع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من أخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لاتقتصر على الشام فحسب بل تقوم في أغلب اصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الامير احمد بن محمد العمري ، المعروف بالاحمر العين ، ببلاد اليمن (٣٧) ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربية التي شغلت الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن خلال حكم الواثق ، وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة ، وكانت كلها تعبيرا عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الامين يقولها

مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الامين ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الى الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه (أي على المأمون) ، هو لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوى على حلبة العرب » (٣٨) .

ولم تكن مصر أقل تحسسا لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي الاول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها واكثرها خطرا ثورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لان يعهد بقمعها لامهر قوادة عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته مصر (٣٩) . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر المصادر الاولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ، الامر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولا رد الامور الى نصابها ، واحتلال المكانة التي لم تعط له منذ اليوم الاول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الامر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائيا عن المسرح السياسي وتدال دولته ما قام للعباسيين أمر . وسيحل محله كما هو معروف، ومنذ خلافة المعتصم، العنصر التركي، ثم سواه من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي ان هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره وما يدل عليه منذ الايام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني أمية . فرغم انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالامر لبني عباس في مرو ، ان دورهم لن يكون الا ضئيلا وثانويا . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبوا وتحذروا واقتتلوا وهم متحيرون » ، كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » وهكذا ، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفات وافعال من وسدت اليهم الامور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك ، فكانت الثورات العربية للاسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الامر ببعضهم الى اعلان الاستقلال بما تحت أيديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كما كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها(٤٠) .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي ، فقد أعلنت الثورة العباسية في أكثر من مناسبة وعلى لسان أكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليها

السلطة خالصة لا ينازعها فيها من منازع ، ان الثورة انما قامت لتقاتل « قوما حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن أمره »(٤١) ، كما انها عازمة أصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه » . وندد زعماؤها « بأهل الجور » (أي الامويين)الذين فشلوا في تطبيق مبادىء العدالة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم(٤٢) .

ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلا ، وجاءت الاحداث في هذا الدور لتثبت ان الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الامر المطبق دائما ، ولاسيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع ان نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمرة طيبة حينا ، وخبيثة حينا آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الامم المختلفة التي عاشت على أرض الدولة الاسلامية وحملت معها ارثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت أحقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

ولست اريد وانا اضع خاتمة لهذا البحث أن ادخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من ادوار ، وأثر هذا كله في توجيه احداث هذه الفترة ، وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب أموال الاغنياء ، من السادة والتجار ، تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطي للفقراء والمحرومين ، ولهذا موضع آخر ، أرجو أن يتاح الى تناوله في بحث قادم ، ولكني أود أن أذكر بأن طبيعة الظرف الذي ادى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، أدت كلها الى أن ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون ، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد أدى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رتعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بين

ما رفعته الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الـى البيـت العباسـي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسمهم بـين مادح مستفيض في المدح ، وقادح مغرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة الموقـف وتباين الآراء وفق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لا يكتفوا بالظاهر ، والا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحـداث مـن دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتـزم المنهجية العلمية ، ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .

★ ★ ★

الحواشي :

(1) انظر من بين هذه الدراسات اطروحة : Demett, D.C., Marwan Ibn Muhammad ph. d., thesis, Harvard university, 1929.

Sha ban, M.A., The social and political back-ground of the Abbassid revolution, ph. d. thesis, Harvard, 1960.

Omar, F., The Abbasid Califate, ph. d. thesis, London university, 1967.

2 — See, Demett. op. cit., p. 276.

3 — Van Vloten, Recherche sur la domination Arabe, ed. Amsterdam, 1894, pp. 35FF.

(٤) انظر ، فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ١٢٠ فما بعد .

5 — Gibb, H.A.R., The Arab conquests in central Asia, London, 1925p.94.

6 — E. I. 2. Art, Abbassids.

(٧) حقق هذه المخطوطة ونشرها الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي بعنوان «اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده »دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٥ — ١٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٠) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١١) عمر (فاروق) بحوث في التاريخ العباسي ، ط. بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٤ .

(١٢) انظر ، مصورة ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، نشر موسكو ١٩٦٧ ، الملخص باللغة الانكليزية ص ٥٣.

(١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، بيروت ١٩٧٨ .

(١٤) انظر المصدر السابق ، فهرست المحتويات ،ص ٣٨٠ وما بعدها .

(١٥) انظر ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة١٩٦٧ ، الصفحات المتعلقة باحداث الأعوام ١٣١ — ١٣٣ هـ .

(١٦) حول هذه المخطوطة ، انظر ، فاروق عمر ،بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٩ — ٢١ .

(١٧) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ – ٤١ .

(١٩) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٨ .

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٢٢) انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ص ٢٨١ .

(٢٣) انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب« النبذة » الذي يعتبر بان الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واسندت القضايا والاحكام الى خيارها » وقارنه برأي ابن الطقطقى صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » او ابن عذاري وابن حزم الذين يعيان سقوط دولة بني امية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٨–٢٧٩ .

(٢٤) انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين ج٣ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج٧ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

(٢٥) اخبار العباس وولده ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦

(٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٢٨) من أجل تفاصيلَ اوفى حول هذا الموضوع ،انظر كتابنا ، خلافة بني امية ، ط . دمشق ١٩٧٢، ص ٣٧٣ – ٣٨٦ .

(٢٩) اخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢ .

(٣٠) اخبار العباس وولده ، ص ٢٠٧ .

(٣١) من اجل اخبار هذه الثورة انظر ، الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .

(٣٢) اخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥ .

(٣٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣٤) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨.

(٣٥) انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣٦) العيون والحدائق ، ج٣ ، ط . المثنى ، بغداد، ص ٢١١ .

(٣٧) انظر النجوم الزاهرة ، ج٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا الطبري والبلاذري .

(٣٨) الطبري ، ج٨ ، ص ٥٩٩ .

(٣٩) انظر اخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج٨ ،ص ٦٠٩ وما بعدها .

(٤٠) انظر ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج٨ ،ط . حيدر اباد ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ – ٣١٣ .

(٤١) فتوح ابن اعثم الكوفي ، ج٨ ، ص ١٧١ .

(٤٢) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ،ص ١١٧.

★ ★ ★

الطّاعونُ وَالجَفافُ وأثرُهما على البيئةِ
في جنوبِ الشّامِ (الأردن وفلسطين)
في العصرِ المملوكي

د. يوسف درويش غوانمة

جامعة اليرموك

الطاعون مرض وبائي معد ينتقل الى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان ، ويصيب الغدد الليمفاوية ، وخاصة غدد الفخذ وتحت الابط والاذن ، فتتضخم وعنها تنتقل الميكروبات الى الدم ، فيصاب المريض بألم شديد ويتقيأ دما لمدة ثلاثة أيام دون انقطاع . وفي العادة فان هذه الاورام التي تصيب الجسد يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس ، فاذا تقيحت نجا المريض ، وان بقيت صلبة فمعنى هذا هلاك المصاب في اليوم الخامس من الاصابة . وأحيانا يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء وتنتشر في أماكن متعددة منه . ونعت الطاعون في المصادر العربية « بالوباء » و « الفناء العظيم » ، اما المصادر الاوربية فنعتته بالموت الاسود (Black death) . ويصف أبو المحاسن أعراضه فيقول : « كان يخرج خلف اذن الانسان بثرة فيخر صريعا ، ثم صار يخرج للانسان كبة فيموت أيضا سريعا ، ثم خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا ، ثم صار الآدمي يبصق دما ويموت من وقته »(١) . والطاعون سريع الانتشار شديد الفتك حتى بالحيوانات على اختلاف أنواعها(٢) .

وذكرت المصادر ان بلاد الشام أصابها في سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) ما عرف « بطاعون عمواس »(٣) ، وكان عاما ببلاد الشام والعراق ومات في البصرة بسببه عدد كبير من الناس(٤) . وصاحب طاعون عمواس قحط وجفاف ، واكثره كان ببلاد الحجاز(٥) ، فأصابت الناس مجاعة شديدة ولزبة وجدوب وقحوط أدى الى فناء العديدين وهو ما سمي « بعام الرمادة »(٦) .

ثم أصاب فلسطين في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) طاعون وصف « بأنه طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخربت أرضهم وتعطلت(٧) ، فلم تجد الارض من يملكها أو يستغلها ، فتحولت ضياع كثيرة الى الدولة واصبحت « ضياعا للخلافة » (٨) ، فأوكل بها من يزرعها ويعتني بها .

اما اشد انواع الطاعون فتكا وأوسعه انشارا فذاك الـذي انتشر في العصر المملوكي ، ووصفته المصادر العربية « بالفناء الكبير ، أو الطاعون الاعظم »(٩) ، وشمل كل أنحاء العالم . وكان ابتداؤه في حلب سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، ومنها انتشر الى جميع بلاد الشام ، فأصاب الاردن وفلسطين ، وعم كل مدينة وقرية . وعن طريق السفن التجارية انتقل الى بلاد الفرنج (أوروبا) فأصاب قبرص ، والاندلس ، وايطاليا وفرنسا والمانيا ، والدول الاسكندنافية وروسيا ، وبريطانيا(١٠) .

واستمر الطاعون يفتك بمنطقة الاردن وفلسطين منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . وكان أشده ذاك الذي ابتدأ سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، فأصاب أولاأواسط آسيا والصين ثم الهند ، وانتقل غربا بواسطة المسافرين الى بلاد الاناضول والعراق . وفي مستهل جمادى الاولى ٧٤٨ هـ (٩ آب (أغسطس) ١٣٤٧ م) ظهر بحلب(١١) ، فعم جميع بلاد الشام ثم انتقل الى مصر ، ومنها الى أوروبا نقله التجار الجنويون الى ايطاليا(١٢) . ويصف أبو المحاسن هذا الطاعون فيقول : « أفنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي ، حتى أنه لم يبق ببلد جنين غير عجوز واحدة خرجت منها فارة ، وكذلك وقع بالرملة وغيرها وصارت الخانات ملآنة بجيف الموتى »(١٣) . أما ابن بطوطة فذكر أن الطاعون أصاب عجلون وبيت المقدس(١٤)، وأن غزة فنيت بسببه ، وأكد ذلك كل من المقريزي وأبي المحاسن ، فذكر أن غزة فقدت اثنين وعشرين ألفا من سكانها(١٥) .

وعقب الطاعون أصيبت بلاد الشام سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) « بوباء ومرض كثير » ، فأصاب غزة والقدس ودمشق ، وادى الى هلاك خمسة آلاف شخص في شهر واحد في مدينة دمشق لوحدها(١٦) . ثم عاد الطاعون للمنطقة في السنوات ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) ، ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ م) فأصاب شمال الاردن والاغوار وغزة وادى الى هلاك اعداد كبيرة من سكانها(١٧) . ولكن سرعان ما عاد الطاعون والوباء والحميات الى البلاد في السنوات ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) ، ٧٩٧ هـ (١٣٩٤م) ، ٨٠٠هـ (١٣٩٧م) ، ٨١٩هـ (١٤١٦م) ، ٨٢٦هـ (١٤٢٣م) ، فأهلك العديد من سكان الاردن وفلسطين(١٨) وقدر ابن الصيرفي عدد من مات في بلاد الشام في سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) بستة وثلاثين ألفا(١٩) .

وفي سنة ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) تفشى الوباء في الاردن وفلسطين ، واشتد تأثيره في غزة والرملة والقدس وصفد ، فمات بسببه خلائق لا يحصى عددهم (٢٠) . ووصف المقريزي هذا الوباء بأنه يشبه النزلات، اذ كان ينحدر من الدماغ الى الصدر ، فيموت

الانسـان في أقل من سـاعة بغير تقدم مرض ، وكان أكثره في الاطفال والشـباب(٢١) . ثم عاد الوباء للاردن و فلسطين في سنة ٨٤١ (١٤٣٧ م) فمات الكثيرون ، وكـان أشده في غزة والرملة ومنطقة الاغوار .(٢٢) وباعتقادي ، ان هذا الوباء الذي تقدم وصفه ، هو نوع من أنواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذه السرعة وبهذا الشكل الخطير . واستمر الطاعون يفتك بالاردن و فلسطين في السنوات ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م)، ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) ، ٨٩٧ هـ (١٤٩١ م) ، وأفنى العديد من السكان(٢٣) .

أما الجفاف الذي أصاب الاردن و فلسطين في العصر المملوكي فكان مزامنا في أكثر الاحيان لوباء الطاعون ، ففي سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) أصاب البلاد جفاف فانحبست الامطـار ، وجفت الآبار وانعدمت الزراعة ، وهلكت المواشي ، فنزح الناس عن بلادهم ، وتعطلت حركة التجارة الداخلية في المدن وتسبب ذلك في كساد اقتصادي كبير ، والى مـوت العديدين جوعا(٢٤) .

ثم ان بلاد الشام عامة أصيبت في سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) « بالقحط العظيم »، فجفت الآبار وانخفض منسوب مياه الانهار حتى انها لم تكن قادرة على ادارة الارحيــة المعدة لطحن الحبوب ، فأغلقت لذلك أرحية عديدة(٢٥) . وجفت الينابيــع في أنحــاء متفرقة من البلاد ، وأدى الجفاف الى هلاك الناس وانعدام الزراعة واتلاف المحاصيــل الزراعية وقلة مياه الشرب(٢٦) ، فارتفعت الاسعار واضطر الناس الى أكل الشعير لعدم وجود القمح . وباع الناس أغلى ما لديهم بأبخس الاسعار لشراء الطعام ، وفي هذا القحط قال الشاعـر :

سنين القحط قد دارت علينا ... وعمت للكبـير مـع الصغـير
وبعنا الفرش والبسط الغوالي ... ونمنا بالثياب عـلى الحصير
لقينـا من أذاهـا مـا لقينـا ... وزاحمنا الحميرعلىالشعير(٢٧)

ونتيجة لهذا القحط قل الخبز في الاسواق ، وصار الناس يتزاحمون على الافران صفوفا خلف بعضهم من المطلع الى المغيب ، وهو عجين أسود « وكثير من النـاس مـا يحصل له خبز ، وبقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل لـه خبـز »(٢٨) . وقـد ارتفعت اسعار اللحوم وانعدمت الفواكه والخضراوات من قلة الماء ، وكان النـاس في شـدة عظيمـة(٢٩) .

ثم أن القحط أصاب الاردن و فلسطين سنـة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) « فأجدبـت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطـر في أوانه ونـزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم وقلت المياه عندهم »(٣٠) . وذكر المقريزي في

سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م) ان جنوب الشام أصيب بقحط وجفاف أدى الى ارتفاع الاسعار في بلاد غزة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماه(٣١) .

ومن الملاحظ ان سنين القحط والجدب كانت متزامنة مع سني الطاعون والاوبئة فأثر ذلك في بيئة جنوب الشام فقلت المواد الغذائية وأصيب الناس بالمجاعة والعطش والفناء الكبير . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل تعرضت البلاد في تلك السنوات العجاف لزحف الجراد القادم عبر الصحراء ، فأثر في البيئة الزراعية والنباتية وزاد من عناء المواطنين وبؤسهم . ففي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ظهر بالشام جراد عظيم لم يسمع بمثله وامتد من مكة الى الشام ، وكان أكثره بحوران ومنطقة الاردن حتى أكل الاشجار والاخشاب وأبواب الدور ، « وكان من شأنه بعجلون أنه امتلأت منه المدينة وغلقت الاسواق وطبقت أبواب الدكاكين والطاقات وسدت الابواب وحضروا لصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع وترأس على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة ، وانتنت (المدينة) لكثرة ما قتل منه »(٣٢) .

من خلال سردنا للاحداث السابقة نلاحظ أن منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) أصابها الفناء العظيم (الطاعون) ثم الوباء والقحط عدة مرات منذ أوائل القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ، وحتى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فما تأثير ذلك في البيئة الاردنية الفلسطينية ؟؟

وصفت المصادر منطقة الاردن بالخصوبة والمناخ المنعش، فشمالها كان من أحسن المناطق الصحية في العالم(٣٣) . وغطت غابات السرو والسنديان والبلوط معظم مرتفعات عجلون ومؤاب والشراه ، وانتشرت الينابيع في الاودية المديدة شمالها وجنوبها . أما سهولها فاشتهرت بالخصوبة ووفرة الغلات في كل من عجلون والبلقاء والشوبك والكرك(٣٤) ، وكثر القمح في عمان والصلت فوصفت « بمعدن الحبوب » . أما غابات الزيتون فانتشرت في عجلون ومؤاب ووادي موسى والشراه ، وكانت كروم العنب في كل مكان من الاردن . وذكرت المصادر أن جبال مؤاب اشتهرت بأشجار اللوز والرمان والتين(٣٥)، واودية الكرك والصلت وحسبان بفواكهها المفضلة من المشمش والرمان(٣٦) وأشجار الجوز ، حتى ان سيلا اجتاح أودية الكرك سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) فأخذ في طريقه اثني عشر الف شجرة جوز(٣٧) . ووجد في الاغوار زراعة الارز وقصب السكر والموز والنيل والنخيل(٣٨) ، وانفردت مدينة بيسان بنبات السامان الذي يصنع منه الحصر السامانية(٣٩) . ووجد النخيل في أيلة (العقبة) ومدينة زغر في الغور الصافي جنوب البحر الميت(٤٠). أما المراعي فقد انتشرت في الجبال والسهول والاغوار والبادية وكثرت فيها الاغنام والابقار والابل (٤١).

أما منطقة فلسطين فقد وصفها الجغرافيون بالخصب ووفرة الانتاج ، فاشتهرت المناطق الجبلية في الجليل ونابلس والقدس والخليـل بالاشجـار المختلفـة كالسـرو والسنديان والخروب والسماق ، والزيتون والكرمة والتين والجميز ، والتفاح والخوخ واللوز والجوز والرمان والمشمش(٤٢). أما السهول الساحلية فاشتهرت بقصب السكر والبرتقال والسفرجل والحبوب كالقمح والشعير والسمسـم والـذرة والخضراوات بأنواعهـا(٤٣) . وهكذا فاننا نرى أن منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) في العصر الاسلامي كانت من أخصب المناطق واجملها ، وافرة الغلات ذات مناخ منعش وطبيعـة جميلة وكثافة سكانية عالية .

ولكن الطاعون والوباء ثم القحط والجفاف تركت آثارها بارزة في البيئة الاردنية الفلسطينية . فالطاعون أصاب البلاد منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميـلادي) ثم تتابع في فترات أخرى لاحقة . فالطاعون الذي أصاب البلاد في عهد الرشيد أثـر علـى الديموغرافية في الاردن وفلسطين ، وفنيت عائلات بأكملها ، وتعطلت الزراعة وفلاحـة الارض ، مما دعا الدولة الى تأجير هذه الاراضي لفلاحين جدد ، بل ان قسما من هذه الاراضي أصبح ملكا للخليفة(٤٤) .

أما الطاعون والوباء الذي أصاب البلاد في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فكان تأثيره كبيرا في ديموغرافيتها فمات العديدون من سكـان الاردن وفلسطين ، وفقدت البلاد ثلثي سكانها(٤٥) . فابن بطوطة ذكر ان عجلـون والقـدس وغزة كان معظمهـا خاليـا من كثـرة من مات فيهـا من الطاعـون(٤٦) . أمـا جنين والرملة واللد والكرك والاغوار فبعضها فقد كل السكان ، لذا تأثرت الزراعة ولم تجـد الارض من يزرعها ، فكانوا يجدون الفلاحين أمواتا خلف محاريثهـم ، وبعضهم مـات وبيده البذار(٤٧) . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أصاب الطاعون الطيور كالنعام والغربان والحيوانات كالابقار والابل والاغنام وأهلك اعدادا كبيرة منها(٤٨) . وامتـد الى الحيوانات البرية ، فوجدت الاسود والحمر الوحشية والذئاب والخنازير والارانب مطعونة في منطقة الاغوار(٤٩) . فالطاعون والوباء (الحميات) أثر في ديموغرافية البلاد في العصر المملوكي واستمر وجوده في المنطقة منذ أواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وادي الى نقص كبير في عدد السلكان . فتوقف النمو السكاني تمامـا في فترة مـن الفتـرات ، فالاطفال الذين يولدون كانوا يموتون بعد يوم أو يومين(٥٠) . وحدث مثـل ذلـك في أوروبا فقد توقفت الخصوبة والنمو الديموغرافي تماما بسبب طاعون القرن الرابع عشر الميلادي(٥١) . وأفنى هذا الطاعون ثلث سكان أوروبا ، ففقدت كل من جنوا وفينيسيا

ستين ألفا من سكانها(٥٢) ، أما فلورنسا ولندن ففقدت كل مدينة منهما مئة ألف نسمة ، وفقدت بيزا سبعة أعشار سكانها . اما سكان قبرص فقد هلكوا جميعا ، وفقدت المانيا مليونا وربعا من سكانها ، وفرنسا ثلاثة ارباع سكانها وايطاليا نصف السكان(٥٣) . وهذا النقص الهائل في عدد السكان كان تأثيره كبيرا في الثروة الزراعية والاقتصادية والحيوانية ، فانخفضت بل وقلت مواردها ومردودها على البلاد .

وقد تأثر نظام الملكية في الشام جميعها نتيجة للطاعون بسبب هلاك العديد من الملاكين والمزارعين ، فانحلت الاقطاعات بموت أصحابها ، وانتقلت ملكية الاراضي الى ملاكين جديد(٥٤) . وظهرت طبقة جديدة من العامة كالخياطين والاساكفة ملكت الاقطاعات(٥٥) ، ولم يسمح لها في السابق امتلاك مثل هذه الاملاك ـ لان الاقطاعات المملوكية كانت في معظمها عسكرية من حق الامراء والاجناد فقط ـ بل ان معظمهم ملك البيوت والاموال لموت أصحابها ولعدم وجود من يرثها او يطالب فيها(٥٦) . ولقلة الفلاحين العاملين في الارض حدت الدولة من حرية الفلاحين ومنعت انتقالهم من أرض الى أخرى الا بعد مرور ثلاث سنوات ، وان فعل وترك الارض أعيد اليها بالقوة(٥٧) . ونرى أن الامر حدث في نفس الوقت في انجلترا ، فبعدما أصيبت البلاد بالطاعون قرر البرلمان بقانون العمال عودة الاقنان وعمال الحرف الى أجورهم القديمة وحرم عليهم الانتقال من جهة الى أخرى(٥٨) .

وكان من نتيجة الطاعون كذلك ان تأثرت الثروة النباتية فلم تجد البساتين والكروم من يعتني بها لموت اصحابها ودوابهم ، فخربت وجفت اشجارها ، وادى ذلك الى نقص في الثروة الشجرية والنباتية . ثم ان القحط والجفاف الذي واكب الطاعون والوباء في العصر المملوكي أثر على البيئة في الاردن وفلسطين ، فهلكت الحيوانات وجفت الزروع والاشجار وخربت البلاد لجفاف المياه من الينابيع ونقص منسوبها في الانهار ، أضف الى ذلك ما سببه الجراد الكثيف الذي دهم البلاد في تلك الفترة الحرجة من تاريخها وادى ذلك الى غلاء في الاسعار فهجر السكان والفلاحون قراهم(٥٩) . اذن حدث تغير في الكثافة السكانية في بلاد الشام ، وهجرة داخلية ، مما ادى الى تغييرات في التجمعات السكانية آنذاك . وهكذا فقد كان للعوامل الطبيعية السابقة من قحط وجفاف وأوبئة وطاعون وجراد آثار مباشرة في عدم النمو السكاني . فالنمو السكاني هو الام للتقدم الزراعي الذي هو متطلب طبيعي للتقدم التجاري والصناعي ، والنمو السكاني يحتاج الى البيئة النقية المناسبة ، والى الامن والاستقرار الذي كان مفقودا في فترات لاحقة من العصر المملوكي الثاني . فغزوات التتار بقيادة تيمورلنك ، والتطاحن

المملوكي على السلطة وثورات النواب والمماليك ثم حرب المماليك مع العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، ثم الاجتياح العثماني للبلاد ومهاجمة العشير للمراكز الحضرية بعد أن انحل حبل الامن والاستقرار ، وضعف السلطة المركزية ، لكل ما سبق خربت القرى وهجرها سكانها ، فلم يأت القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي الا وعدد كبير من القرى خال من السكان ، حتى ان السجلات العثمانية نعتت العديد منها ب (خراب وخالي) (٦٠) .

وكان للطاعون والوباء والقحوط آثار سلبية في المجتمع الشامي بشكل عام ، فانتشر الفساد والفسق والفجور ، وتعاطى الناس الفواحش ، فابن صصرى يقول في سنوات القحط العظيم الذي أصاب الشام : « وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه ، وسمعنا فيه ما لا اسمعناه ، وأبصرنا عجائب ، وشاهدنا غرائب ، فلهذا الحال قلت الارزاق ، وكسدت بضائع الاسواق ، وقل نزول الغيث ، وتعطلت أسباب الناس ، وقست قلوب الملوك ، وتجبر الغني على الصعلوك ، فهلكت الرعية وعظمت البلية »(٦١) . وبسبب القحط والغلاء ظهرت طبقة طفيلية استغلت حاجة الناس ، فاحتكرت الاصناف وتلاعبت في أقوات المواطنين ، وفرضت الاسعار التي تريدها ، مما دعا العامة الى الثورة على هؤلاء المحتكرين ، فحطمت قصورهم ، واستولت على اهراءاتهم وما بها من مغلات وأطعمة(٦٢) . وعلى نقيض ذلك حدث في فترة انتشار الطاعون والاوبئة والموت الكثير ، فنجد أن الاسعار انحطت ، وبيعت السلع بأبخس الاسعار لعدم وجود من يشتريها ، وانحطت قيمة الذهب والفضة .

ومن الآثار السلبية للطاعون على المجتمع الشامي بشكل عام . قلة الصناع والعمال ، وارتفاع الاجور ، مما اضطر الدولة الى استخدام القوة لمنع مثل ذلك وارغام العمال على القبول بأجور معقولة(٦٣) . وحدث نفس الشيء في الدول الاوروبية أثناء الطاعون الكبير ، لكن دولها تغلبت على هذه المعضلة وما قد يترتب عليها من نتائج ثورية قد تؤدي الى تغييرات هامة في مجتمعاتها ، فسنوا القوانين التي حرمت على سائر عمال الحرف تقاضي الاجور الباهظة(٦٤) .

كما ان التجارة تأثرت لعدم وجود السلع ومن يحملها أو ينقلها ، وانعكس ذلك على البلاد ، لا بل على الدولة عامة ، فقلت مواردها المالية مما دفع السلطان للاستدانة من تجار الكارم لتجريد الحملات لمحاربة الثائرين على الدولة(٦٥) .

ومن النتائج أيضا ظهور حركات التمرد والعصيان بعد أن انحل حبل الامن في الدولة المملوكية بشكل عام لموت أكثر جيشها في الطاعون والوباء ، وخصوصا في

دولة المماليك الثانية(٦٦) . ولقلة مواردها الاقتصادية والمالية لم تتمكن من شراء مماليك جدد تزود بهم قواتها العسكرية ، مما دفع بعض الامراء للثورة على السلطة المركزية ومحاولة الاستقلال في نياباتهم وخصوصا في بلاد الشام(٦٧) . ومما لا شك فيه ان ذلك كان سببا من أسباب ضعف الدولة المملوكية وعدم استطاعتها الصمود والوقوف أمام العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

ونتج عن ذلك أيضا تغييرات اجتماعية خطيرة ، فظهرت طبقة جديدة امتلكت الاراضي والاموال وكانت في السابق محرومة من هذا الامتياز ، فنرى أصحاب الحرف العامة يمتلكون الاقطاعات علما أن هذه الاقطاعات كانت حكرا على الامراء والاجناد مقابل تقديمهم خدمات عسكرية للدولة . وكان للكساد الاقتصادي والقحط والمجاعة والموت بأعداد كبيرة مردوده الاجتماعي ، فأثر في السلوك والقيم والاخلاق العامة ، وهجرت قرى عديدة وأصبحت خربة خالية من السكان . وحدثت ردة لدى المواطنين في الشام ، فأصابهم اليأس فعمدوا الى الفسق والفجور والملذات هروبا من واقعهم المرير ونهايتهم السريعة . بينما عمد آخرون للجوء الى الله بسبب الضائقة التي كانوا يعانون منها ، فهرعوا الى المساجد ودور العبادة يطلبون الرحمة من الله ، وحدث نفس الشيء في أوروبا . وقد شاهد ابن بطوطة لوحة معبرة عن التوبة والرجوع الى الخالق أثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : ان الدمشقيين « باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح ، وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة . وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا ، صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وانبيائه(٦٨) ، أن يزيل عنهم هذا الوباء ويحميهم منه ، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس ونذروا النذور لهذه الغاية »(٦٩) .

وتسبب الطاعون في موت أعداد كبيرة من علماء وفقهاء البلاد ، فابن بطوطة مر بالقدس أثناء انتشار الطاعون في الاردن وفلسطين سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : « ووجدت من كنت أعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى ، فلم يبق منهم الا القليل »(٧٠) . وحدث مثل ذلك في غزة التي فقدت ثلاثة أرباع علمائها وفقهائها وشهودها العدول(٧١) ، وانسحب ذلك على بقية البلاد الشامية والمصرية ، ولاشك ان موت العديد من علماء وفقهاء البلاد كان له تأثيره على الحياة العلمية وتطورها .

خـاتمـة :

وفي نهاية هذه الدراسة نشير الى ما يلي :

١ ـ أصيبت المنطقة بالطاعون منذ عام ٦٣٩ م وهو ما عرف بطاعـون عمـواس وصاحبه جفاف وقحط ومجاعة . ثم طاعون القرن الثامـن الميـلادي في عهد هـارون الرشيد ومن نتائجه انحلال الملكيات وعدم وجود من يمتلك الارض ويستغلها .

٢ ـ ثم عاد الطاعون والوباء للمنطقة والذي سمي بالطاعـون الاعظـم أو المـوت الاسود منذ سنة ١٣٤٧ م ، وعم كل مدينة وقرية ، وكان هذا عاما في العالم ، ولكنهبقي في منطقتنا مدة اكبر اذ استمر من اواسط القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر أي (١٥٠ سنة) .

٣ ـ صاحب الطاعون في مرات عديدة جفاف وقحط ومجاعات وفي أحيان كثـيرة انتشر الجراد الذي فتك بالثروة والغطاء النباتي في البلاد .

٤ ـ لم تكن الدولة سلبية ازاء ذلك ، فمنذ العصر الايوبي انتشرت البيمارستانات (المستشفيات) في جميع انحاء بلاد الشام وذكرت المصادر ان سبب ذلك هو الاوبئـة التي فتكت بالناس ، فوصل عدد المستشفيات الى (٣٠) مستشفى ، معظمهـا كـان يدرس الطـب ، لذا فقد كثر الاطباء ولدينا كتب تراجم لمئات منهم ، بل وجد في معظم القلاع اطباء للمحافظة على سلامة الجنود والسكان المجاورين .

٥ ـ اذا كان الطاعون الذي أصاب اوروبا أدى الى تغييرات اجتماعية كبيرة بـل كان مقدمة للثورة الصناعيةوانحلال نظام الاقطاع فما هيالتغييرات التي أصابت المنطقة عامة وهل كانت بنفس الدرجة التي حدثت في أوروبا ؟؟.

٦ ـ الانقلابات او التغييرات التي حدثت في المجتمعات الاوروبية لم تكن مفاجئة بل انها ادت الى تغييرات أساسية بطيئة نستطيع ان ندرجهـا في مجملهـا في قائمـة الانقلابات ، فهل حدث ذلك في منطقتنا ؟؟.

٧ ـ البحوث الاوروبية رتبت على طاعون القرن الرابع عشر ، معظـم الحركـات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فهل نستطيع ان نرتب علـى الطاعون في بـلاد الشام تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ؟؟.

٨ ـ المصادر التي لدينا تذكر ان قرى منطقة الكرك في نهاية الدولة المملوكية كانت ٤٠٠ قرية وفي منطقة البلقاء حول عمان ٣٠٠ قرية وفي شمال الاردن وحوران ١٢٠٠ قرية ما عدا منطقةالاغوار وان معظم المدن كانت عامرة مزدهرة بالسكان كالكرك والشوبك وعمان والعقبة وعجلون واربد وحبراص والسلط وغيرها .

٩ ـ هناك تساؤل كبير لماذا هذه الخرائب المنتشرة في جنوب البلاد وشمالها والتي تبلغ المئات ولماذا خربت وأين سكانها ؟؟ ثم لماذا أصبحت البتراء والشوبك وعمان ومأدبا وجرش وعجلون وحبراص وبيت راس وجدرا وفحل وقويلبه وام الجمال خرائب قليلة السكان ، فعند وصول الرحالة الاوربيين الى المنطقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكروا بل وصفوا قلة السكان في كل هذه المراكز الحضارية القديمة .

١٠ ـ اذن لابد من وجود سبب لكل هذا التغيير في الديموغرافية السكانية ليس سببه الانسان وحده بل لابد من وجود عوامل طبيعية قاهرة كانت فوق قدرة الانسان فلم يتمكن من السيطرة عليهاوادت الى تدمير وخراب كل هذه المدن والقرى ، اذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل هذه المدن والقرى كانت عامرة في العصر الايوبي والمملوكي .

١١ ـ وهنا اطرح سؤالا الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة ، هل تعتقدون ان هناك دورة مناخية ؟ فقد ذكر البعض ان الاردن مثلا كانت في فترة ما أكثر رطوبة وأكثر أمطارا وغطاؤها النباتي كان كثيفا .

١٢ ـ وأخيرا اتوجه الى الباحثين بأن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار ، وان يبحثوا جديافياسباب هذه التغييرات في منطقتنا وهذا الاضمحلال السكاني الذي أدى الى خراب البلاد وذلك من خلال تحليل العظام التي تعود لهذه الفترة واعطائنا سببا علميا لهذا الوباء الذي لم يتمكن الانسان من السيطرة عليه ، وكذلك سببا علميا لهذه الجدوب والقحوط والمجاعات التي فتكت فيالمنطقة فيالعصر الوسيط . وباعتقادي أنفي هذا جواب قاطع لكل الادعاءات التي تعلل سبب هذا الاضمحلال بالحكم العربي الاسلامي في المنطقة ، فنحن في العصور الوسطى بلغنا أوج التقدم الحضاري والعلمي والمصادر التاريخية تثبت ذلك .

الحواشي :

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص١٩٨ .

(٢) ابو المحاسن ، نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

Nohl, The Black death, London, 1924, P. 18.

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمدابو الفضل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م ، ج ٤، ص ٦٣ .

عمواس : بلدة في فلسطين قرب القدس وعلى بعد ستة اميال من الرملة ، بدأ طاعون عمواس منها زمن الخليفة عمر بن الخطاب . (لي سترانج ، ص٤٢٦). وقد دمرتها اسرائيل حاليا واجلت سكانها عنها وجعلت منها منتزها عاما . (الباحث) .

(٤) الطبري ، المصدر السابق ، ج٤ ص ٦٣.

(٥) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

(٦) يقول الطبري : « اصابت الناس سنة بالمدينة وما حولها ، فكانت تسفي اذا ريحت ترابا كالرماد فسمي ذلك العام عام الرمادة ».(ج٤،ص ٩٨).

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٣ .

(٨) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق علي المنتصر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١ ص ١١٤ .

(١٠) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٧ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،ج ١٠،ص١٩٨.
Nohl, op. cit. P. 18.

(١١) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٥ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،ج١٠ ،ص١٩٨.

(١٢) Nohl, op. cit. P. 18.

(١٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،ج١٠ ص ١٩٧ .

(١٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج٢ ص ٧٤٩ .

(١٥) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ص ٧٧٥.
ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج١٠ ص ١٩٨ .

(١٦) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش ، دمشق ١٩٧٧ م،ج٣،ص ٢٤٤ .

(١٧) ابن قاضي شهبة ، نفس المصدر ،ج٣ص ٨١،٨٢،١٢٥،٤٦٧،٤٦٨.

(١٨) ابن قاضي شهبة ، المصدر نفسه،ص٥١٣، ٥٧٨، ٦٥٨، ٦٥٩، ٢٦٢.
المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق٢ ص ٦٣٩.

(١٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢، ص ٣٦٩ .

(٢٠) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٣٦ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٤ ص ٣٢٨، ٣٤٨ .

(٢١) المقريزي السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٤ .
يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ص ١١٨ .

(٢٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق٢ص١٠٢٩ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٤ .

(٢٣) الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ص ٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٦١ .

يوسف غوانمة،تاريخ نيابةبيت المقدس،ص١١٩.

(٢٤) ابن صصرى ، الدرة المضيئة في الدولةالظاهرية تحقيق وليم بريز ، كاليفورنيا ، ص ١٦٤ .

(٢٥) ابن صصرى المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ج٣ ص٦٤٨ .

(٢٦) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٢٧) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٢٨) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٢٩) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٣٠) المقريزي ، السلوك ، ج٤ق٢ ص ٦٠٩ .

(٣١) المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ٧١١ .

(٣٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ص ٤٥٧ .

(٣٣) Smith. The historical geography of the Holy Land, p. 535.

(٣٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .
أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ .

(٣٥) الادريسي ، نزهة المشتاق ، القسم الخاص ببلاد الشام ، ص ٥ .

(٣٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ، القرماني ، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٢٥٩ .

(٣٧) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ١٩٧٧ ، ج٣ ص ١٥٧ .

(٣٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٩ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٩٢ ، الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣ ، ٤ .

(٣٩) الادريسي ، ص ٤ .

(٤٠) المقدسي ، ص ١٧٩ . Fulcher of Chartres, P. 146.

(٤١) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٤٢) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٩ ، الحنبلي ، الانس الجليــل بتاريــخ القدس والخليل ، ج٢ ص ٥٩ .

(٤٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٣٥ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١ ، ابن بطوطة ، ج١ ص ٣٥ .

يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص٨٠ ، لي سترانج ، ص ٩٧ ـ ٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٨٦

Benvenisti, The Crusades in the Holy Land, P. 217.

(٤٤) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٤٥) يوسف غوانمة ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٤٦) ابن بطوطة ، ج٢ ، ص ٧٥٠ .

(٤٧) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة،ج١٠ ص ١٩٨ .

(٤٨) Nohl, op. cit. p. 18.

(٤٩) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ص ٧٨٤ ، ابو المحاسن ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، وانظر ابن اياس، ط الشعب ، ص ١٦٤ .

(٥٠) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . Nohl, op. cit. p. 40

Lopez, The Commercial revolution in the middle ages, p. 29.

Kedar, Merchants in Crisis, p. 165.

(٥٢) Kedar, op. cit, p. 5, 19.

(٥٣) Nohl, op. cit. p. 38, 40.

(٥٤) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج٢ ص ٢٣٠ .

(٥٥) أبو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٣٩، ٣٤٠ .

(٥٦) أبو المحاسن ، نفس المصدر ، ج١٠ ، ص ٢٠٨ .

(٥٧) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٤، فهو يقول : « وقد جرت العادة بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهرا ويلزم بشد الفلاحة » .

(٥٨) محمد مصطفى زيادة ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، بحث في التاريخ والاثار ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ١٦١ .

(٥٩) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ٢٠٢
المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق٢ ص ٦٠٩ ، ٧١١.

(٦٠) Utteroth & Abdal Fatah, Historical Geography of Palestine. p. 26.

(٦١) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٦٢) ابن صصرى ،المصدر السابق ،ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٦٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ص٢١٠.

(٦٤) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ،ص١٦١.

(٦٥) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ص٢٧١.
الكارم والكارمية ، هم التجار الذين كانوا يتا جرون بسلع الهند والصين ووجدوا في مدن دمشق والقاهرة والاسكندرية .

(٦٦) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج١٤ ص ٤٠٣.

(٦٧) Kedar, op. cit. p. 14.

(٦٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ص ١١٤ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٧٥٠ .

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج٢ ص ٧٥٠ .

(٧١) المصدر نفسه .

* * *

دور أسرة آل الحنش

والمهام التي أوكلت إليها في ريف دمشق الشام

٧٩٠ هـ/١٣٨٨م - ٩٧٦هـ/١٥٦٨م

«دراسة وثائقية»

د. محمد عدنان البخيت

الجامعة الاردنية

تدور هذه الدراسة حول دور أسرة آل الحنش السنية المذهب القيسية الولاء ، كقوة محلية في منطقة البقاع وذلك خلال عهد المماليك البرجية ، بالاضافة الى تقصي موقف هذه الاسرة من الاحتلال العثماني لبلاد الشام .

وتركز هذه الدراسة على توضيح الامور التالية :

١ ـ موقف أسرة آل الحنش تجاه حركة العصيان التي قادها منطاش في بلاد الشام ضد السلطان برقوق .

٢ ـ موقفها تجاه القوى المحلية الاخرى في نيابة دمشق الشام .

٣ ـ المهام الادارية والضرائبية التي اوكلت اليها في العهدين المملوكي والعثماني .

٤ ـ الصورة التي تقدمها لنا الدفاتر العثمانية عن توزع السكان في القرى التي كانت توكل لاسرة آل الحنش . وكميات الضرائب التي كانت تجبى من سكان تلك القرى .

٥ ـ مدى اسهام هذه الاسرة في وجوه الوقف الخيري .

من المعروف لدى الباحثين أن المماليك كانوا قد أعادوا تقسيم بلاد الشام ، بهدف تنظيمها اداريا ، الى عدد من النيابات أو الممالك كان من أبرزها نيابة دمشق الشام التي كانت مؤلفة ، بالاضافة الى حاضرة المدينة وبرها ، من أربع صفقات :

١ ــ الساحلية والجبلية .

٢ ــ القبليــة .

٣ ــ الشماليــة .

٤ ــ الشرقيــة .

والجدير بالذكر أن الصفقة الواحدة كانت مكونة من عدد من الاعمال . وتوضح لنا المصادر المملوكية أن الصفقة الشمالية من نيابة دمشق الشام كانت تضم في العهد المملوكي ، البقاع (بعمليه) ، وعمل بعلبك وعمل بيروت وعمل صيدا(١) .

كما وتبين لنا أن البقاع كان في حينه مقسما الى عملين :

١ ــ البقاع البعلبكي « وليس له مقر ولاية » .

٢ ــ البقاع العزيزي « ومقر الولاية به كرك نوح عليه السلام » .

والملاحظ أن عملي البقاع كانا يجمعان « لوال واحد جليل مفرد بذاته » وذلك على الاقل الى حين زمن القلقشندي . وكان يليهما « مقدم حلقة وتارة جندي »(٢) .

ففي البقاع وحول مدينة بعلبك ظهرت أسرة آل الحنش(٣) لتلعب دورا بارزا في تاريخ كل من بعلبك والبقاع معا . وذلك منذ أواخر القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي ، الى أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

وارتبط هذا الدور بالصراع على السلطة ما بين عناصر المماليك البحرية ، الذين أفل نجم سعدهم ، وما بين المماليك الشراكسة أو البرجية كما تسميهم المصادر . ففي أواخر سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م نشبت حركة عصيان كبيرة ضد السلطان الملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين برقوق بن انص العثماني اليلبغاوي (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ــ ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) ، بقيادة كل من نائب ملطية تمربغا الافضلي الاشرفي المعروف باسم منطاش(٤) ونائب حلب يلبغا الناصري(٥) . انضم اليهما عدد من النواب والولاة : كان من بينهم نائب بعلبك الامير كمشبغا المنجكي ، الذي ترك بعلبك بدون حاكم ، بعد أن سلب الكثير من موجوداتها ، لينضم الى حركة العصيان هذه .

نجحت هذه الحركة سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م في اعادة تنصيب السلطان صلاح الدين الصالح حاجي الثاني سلطانا ولمدة عام واحد، بعد أن عزلت السلطان برقوق وأودعته السجن في قلعة الكرك(٦) . أما بعلبك التي تركت بدون حاكم كما ذكرنا ، فقد بادر علاء الدين بن الحنش « شيخ العشير » وتولى نيابتها(٧) . الا أن انهزام السلطان برقوق في معركة خان لاجين يوم السبت في ١٩ شهر ربيع الاخر ٧٩١ هـ / ١٧ أيار ١٣٨٩ م كانت ضربة موجهة لعلاء الدين بن الحنش الذي تمكن ، كما يظهر ، من أن يحافظ على حياته بعد أن خسر منزلته نتيجة لهزيمة السلطان برقوق وسجنه في قلعة الكرك .

تمكن السلطان برقوق بفضل مساندة اهالي الكرك واجنادها له ، من الفرار من سجن قلعة الكرك ، باتجاه دمشق في يوم الاربعاء عاشر شهر رمضان سنة ٧٩١ هـ / ١٢ أيلول ١٣٨٩م . وعندما علم علاء الدين بن الحنش بذلك بادر الى معاضدة السلطان برقوق ضد مناوئيه ، مما ترك أطيب الاثر لدى برقوق ، ففرح به برقوق ، وخلع عليه ، وكما يبدو فانه أوكل الى علاء الدين أمر نيابة بعلبك والبقاع(٨) . ومن الذين عاضدوا أيضا السلطان الظاهر برقوق في معركته لاسترداد سلطنته ، آل بحتر وهم أمراء الغرب بجوار بيروت، بينما كان تركمان كسروان بزعامة اولاد الاعمى من الموالين لمنطاش . فعندما توجه أمراء الغرب الى القاهرة بعد انتصار السلطان الظاهر برقوق على مناوئيه دون ان يتمكن من القضاء عليهم وسفره الى القاهرة ، قام أولاد الاعمى بمهاجمة قرى أمراء الغرب ونهبوها واحرقوها . فكلف السلطان برقوق علاء الدين بن الحنش بتأديب عشائر كسروان التركمانية . فهب لتلبية طلبه ونهب عددا من قرى كسروان وقتل أحد زعماء التركمان وهو علي بن الاعمى مع جماعة من اتباعه . وبعد مدة تمكن من القبض على أخيه عمر بن الاعمى ثم أفرج عنه(١٠) فيما بعد .

وعندما اقدم السلطان برقوق على محاصرة دمشق وحرق حي القبيبات فيها وقطع الماء عن المدينة استغل منطاش تصرفه هذا فأخذ نسخا من فتوى العلماء ضده ، ويضيف المقريزي الى ذلك قوله « وزيد فيها : واستعان بالكفار على قتال المسلمين »، وضمن توقيع العلماء على هذه الفتاوى بما في ذلك توقيع عبد الرحمن بن خلدون بحضور الخليفة المتوكل(١١) . وتلى ذلك خروج الخليفة والسلطان الصالح صلاح الدين حاجي الثاني ومنطاش من القاهرة لمحاربة السلطان برقوق وكان المصاف في ١٤ محرم سنة ٧٩٢ هـ / ٢ كانون الثاني ١٣٩٠ م ، في معركة شقحب جنوبي دمشق ، التي انتصر فيها برقوق وتمكن من أسر الخليفة والسلطان حاجي(١٢) ، الا أن منطاش كان قد أفلت من السلطان برقوق وتحصن في دمشق . أما السلطان حاجي فقد خلع نفسه عن السلطة، وتمت البيعة مجددا لبرقوق ليعود بعد ذلك الى القاهرة تاركا وراءه منطاش يعيث في بلاد الشام(١٣) .

اما علاء الدين بن الحنش فقد « عصى في قلعة بعلبك هو وجماعته واحرقوا المدينة ونهبوا وسبوا حريمها وفعلوا كل قبيح وجرد اليهم منطاش عسكر مع محمد شاه بن بيدمر » فحاصر مدينة بعلبك ، الا ان مدة الحصار طالت وخربت عساكر منطاش بلاد البقاع ، واستعصى الامر لدرجة ان منطاش نفسه كان يركب الى بعلبك ويتفقد أسوارها(١٤) الى ان تم اسقاطها .

وعندما وصل خبر انتصار منطاش على علاء الدين بن الحنش الى دمشق يوم الثلاثاء ١١ ربيع الاخر ٧٩٢ هـ / ٨ كانون أول ١٣٩١ م فرح الناس وزفت البشائر . « لانه (علاء الدين) كان قد أساء الى أهل دمشق وقطع عنهم المياه ونهبوا عشيره دمشق في أيام السلطان وهو على قبة يلبغا »(١٥) .

وبعد ذلك بأسبوع ، في يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الاخر / ١٦ كانون الاول ، وصل الى دمشق علاء الدين بن الحنش ومعه مائة وعشرون من أعوانه حيث وسطوا جميعاً وعلقوا من حائط جامع يلبغا الى جسر الزلابية بدمشق بحضور اهالي المدينة(١٦) . ان هذه النهاية المحزنة لعلاء الدين بن الحنش لم تلغ دور الاسرة في البقاء على ولائها لبرقوق ضد منطاش الذي كان قد هرب من دمشق الى ريف حلب ليعود بغتة الى دمشق في مستهل شهر رجب سنة ٧٩٣هـ حزيران سنة ١٣٩١م ، بينما كان نائبها خارجها يطارد منطاش . ولقد تعرضت مدينة دمشق هذه المرة للنهب على يد ما يسمى بالمناطشة وتحولت الى ساحة للاقتتال ووصف خطيب الجامع الاموي ما حل بمدينته « بالنازلة العظيمة » . ويضيف ابن صصرى الى ذلك قوله « وهلك الفقير وانكشف حال الغني ولا بيع ولا شرى والناس منتظرين رحمة الله تعالى »(١٧) . فما كان من علاء الدين بن الحنش الثاني ونائب قلعة بعلبك الا ان هبا نجدة لنائب مدينة دمشق. اما ردة الفعل من جانب منطاش فتمثلت بارسال قوات ضدهم من ضمنها عشائر يمنية بقيادة ابن هلال الدولة ، فانكسرت القيسية بقيادة ابن الحنش الذي هرب مع نائب قلعة بعلبك وكان مقدار ما قتل من الفلاحين نحو الف شخص واسر مائتان من جماعة ابن الحنش القيسية مع ثمانية من اجناد بعلبك . ولقد أوكل أمر القيسية من الاسرى لليمانية « فعروهم من ثيابهم وسيوفهم ودارت اليمنية حولهم بالسيوف كل من يلحق واحد يضربه يقتله وهو عريان لم يرق لهم عليهم قلب قبحهم الله تعالى ، ما انحسهم وما اجهلهم وما أقل دينهم » . ويروي ابن صصرى على لسان من يثق به ان القيسية ماجاءت الا لنهب دمشق كما فعلت في السابق « ففعل الله تعالى بهم ما فعل »(١٨) .

بالرغم من كل هذه النكبات فان علاء الدين ابن الحنش الثاني استمر في تأييده لنائب الشام . بل نراه يفد عليه في دمشق مع نائب طرابلس الشام أقبغا الصغير

ويشاركون في محاربة المناطشة(١٩) . بل زيادة في ولائه للوالي نراه ينضم الى قوات الوالي في محاربة الامير نعير(٢٠) وعربه الذين كانوا ينزلون على قرية عذراء ضمير(٢١) ويتعرضون للناس فركب نائب الشام عليهم يوم الخميس ٢٧ شعبان سنة ٧٩٣ هـ / ٣٠ تموز سنة ١٣٩١ م ، الا أن نعير انتصر على عساكر الشام وقتل نحوالف ومائتين وستين شخصا من بينهم ابن الحنش نفسه (٢٢) ويقول ابن صصرى عن ذلك : « ورجعت الترك مكسورين وراحت العرب منصورين ومن أعظم العظائم أن تفوز العرب من الترك بالغنائم »(٢٣) . ويصف صالح بن يحيى علاء الدين بن الحنش هذا بقوله « وكان ذا سطوة وتجبر وكان قبله قد قتل منطاش والده واخيه مسكوهما من بعلبك وكان علاء الدين المذكور قد أعطاه السلطان برقوق امرية طبلخانة »(٢٤) .

والذي يبدو من خلال ما ذكرناه آنفا عن الحملة التأديبية التي قادها علاء الدين بن الحنش ضد تركمان كسروان انتصارا للامراء البحتريين ، أن آل الحنش كانوا يهبون لنجدة البحتريين كلما تعرضوا للمضايقة على يد أي من القوى المحلية . ويفهم من اشارة يوردها صالح بن يحيى ان كبير بيت آل الحنش المعروف باسم علاء الدين علي، ربما يكون حفيدا او قريبا لعلاء الدين الذي قتل في حادثة نعير ، قام بقطع رأس أمير حاج بن الحمراء من قرية صغبين بالبقاع ، وأرسل برأسه الى نائب الشام الذي أرسله بدوره الى أمير البيت البحتري ، متولي بيروت ، عز الدين صدقه (ت ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م) . فمن المعروف أن أبناء الحمراء وهم سنة ، من قرية صغبين قد بداوا بالنزوح الى بيروت واخذوا يزاحمون آل بحتر على اقطاعاتهم في جهات بيروت . كما وانه قد سبق ذلك ايضا أن فاجا أمير حاج هذا عز الدين صدقة في بيروت وهاجم المدينة ولم يتمكن عز الدين من اللحاق به او التخص منه الى أن تدخل آل الحنش وخلصوه منه(٢٥) . ويلخص اسطفان الدويهي هذه العلاقة في وصفه لعز الدين صدقه بقوله : « وكان بينه وبين الامراء أولاد الحمرة الذين نزلوا من البقاع واخذوا السكنة ببيروت دشمنة (عداوة) غير قليلة من باب الحسد في الحكم »(٢٦) .

وعلى الاغلب فان منزلة آل الحنش بدات تقوى على حساب الاسرة البحترية فمثلا نجد ان احد أمراء آل الحنش المعروف باسم الامير عساف كان نائبا لبيروت وصيدا « وتلك المعاملة » ، وهذه المناطق كانت توكل عادة لآل بحتر . واتصف بقسوته على « المناحيس ببلاده » مما اكسبه محبة الناس لذا عندما وجد مقتولا سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م في أحد أحياء مدينة دمشق ، ربما بتدبير من نائب دمشق نفسه ، تأسف الناس عليه هناك(٢٧) . الا انه يفهم من النصوص المتفرقة التي فيما بعد تذكر هذه الاسرة ، ان نائب دمشق أخذ بسياسة تقليص نفوذ أسرة آل الحنش ، واعادتها من جديد الى

مستوى « المقدمية » ضمن اطار البقاع وتولى أمور الاسرة بعد مقتل عساف الامير شهاب الدين أحمد بن الحنش (ت ١٤٩٨ م) . وبرز من بعده على مسرح الاحداث ناصر الدين محمد الذي كانت علاقته مع نواب الشام متقلبة ، ومما زاد الطين بلة أن التنافس بدأ يستشري بين أبناء البيت الحنشي . ففي أواخر شعبان سنة ٩٠٤ هـ / ١١ نيسان ١٤٩٩م قبض نائب الشام جان بلاط على عدد من مقدمي ريف نيابة دمشق الشام ، كان من بينهم ناصر الدين المذكور « وطلب من كل واحد من المقدمين وجماعته وبلاده مائة الف دينار (٢٨) » . وبناء على توسط القاضي الشافعي لدى النائب تم اطلاق سراح ناصر الدين على أن يدفع للنائب ألف دينار . ويظهر لنا أن النائب أثناء احتجازه لناصر الدين كان قد عين أخاه الامير حسن، مقدما على البقاع مما أثار غضب ناصر الدين ودفع به الى قيادة حركة عصيان ضد نائب دمشق ، وذلك في مطلع شهر رمضان من ذلك العام . تمكن ناصر الدين من منع أخيه من الوصول الى « المقدمية » ، بل ترددت الاخبار بأنه كاد مع جماعته وعشيره يهاجم مدينة دمشق ذاتها ، فكان ذلك سببا في اثارة غضب النائب عليه(٢٩) . فبادر النائب بدوره الى قيادة قوات عسكرية من دمشق وخرج بها من أجل تأديب ناصر الدين ، فنهب عسكره البقاع وحرق بيت ناصر الدين في قرية قب الياس(٣٠) بالبقاع . ومن هناك توجه نائب دمشق الى بيروت حيث صادر من التجار الافرنج الموجودين فيها ، عددا من الاحجار الكريمة وقطعا من الجوخ ، وختم على بضائعهم بعد أن قيمها بأضعاف أثمانها في سبيل تحصيل ما هو أكثر من العشر الذي يجمع عادة على البضائع . ومن بيروت قصد صيدا حيث طلب من قاضيها أن يضبط له جهات ابن الحنش فيها ثم عاد من هناك الى قرية زنتون(٣١) بالبقاع ، ومنها توجه الى دمشق التي وصلها على حين غفلة في ١٤ رمضان سنة ٩٠٤ هـ / ٢٥ نيسان ١٤٩٩ م ، دون أن يتمكن من القاء القبض على ناصر الدين الهارب من وجهه(٣٢) .

وعلى الارجح أن المماليك ادركوا عدم جدوى استخدام العنف ضد ناصر الدين فنهجوا أسلوب التقرب اليه ، لاسيما بعد عزل جان بلاط ونقل والي حلب قصروه ليتولى نيابة دمشق سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م . فكان من أولى خطواته التي اتخذها في هذا الخصوص أن أمر بصلب ابن عم ناصر الدين الذي كان قد سعى على الاخير ، وكان السبب في نهب بلاد ابن الحنش « وهتك حريمها وحريق قراها وقتل خلق كثير فلما صلب عاد ابن عمه (ناصر الدين) المذكور اليها(٣٣) . » وقوي عنصر الثقة بين ناصر الدين وبين نائب دمشق بحيث أنه تعاون في ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م مع قوات النائب في كبس العربان بالقرب من بحيرة الهيجانية « وقتلوا منهم خلقا ونهبوا منهم شيئا كثيرا: نساء وأولاد وجمالا وغنما وغير ذلك ورجعوا الى دمشق(٣٤) » . والظاهر أن هذه

الخطوة جاءت كتأديب للعرب (من المغارجة وبني لام) الذين هاجموا اطراف دمشق « ونهبوا مغلا كثيرا وخربت بلدان كثيرة(٣٥) . » دلالة على الانسجام الذي اتسمت بـه علاقات ناصر الدين مع المسؤولين في دمشق نلاحظ انه في نفس العام يخرج مع كبار المسؤولين من أرباب الوظائف لاستقبال النائب الجديد المعروف باسم قانصوه نائب البرج الذي كان معزولا بمكة المكرمة ، الا انه صفح عنه ، وعين لنيابة الشام . وقدم قانصوه الى الشام عن الطريق الغزاوي برفقة قافلة الحج الشريف(٣٦) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلاقة الودية مع المسؤولين في دمشق عادت وانتكست لاسباب لاتذكرها المصادر المتوفرة لدينا . وجل ما توردہ أن نائب دمشق قانصوه ، خرج من صباح يوم الاربعاء ثاني ذي القعدة سنة ٩٠٩ هـ / ١٨ نيسان ١٥٠٤ م ، بعسكره وبالسلاح وقصد البقاع . فلما علم ناصر الدين بذلك هرب من وجه النائب الذي قام بحرق بيت ناصر الدين بقرية مشغرا بالبقاع وكالعادة « خربت بلاد كثيرة من الظلم(٣٧) » . وقبل عودته الى دمشق أوكل قانصوه أمر البقاع لدواداره المعروف باسم جانبك الفرنجي ، فما كان من ناصر الدين الا أن هاجم جانبك وقتله وقتل معه « جماعة من شيوخ البلاد(٣٨) » .

ومن ضمن الزعامات المحلية التي حاربها ناصر الدين ، عبد الستار بن بشارة في قرية شيحين(٣٩) . الا أن النجاح لم يحالف جيشه المؤلف من خمسة آلاف مقاتل بل خسر نحو مائتين منهم هذا بالاضافة الى ما عاناه جيشه من الوحل بسبب هطول الامطار(٤٠) . ازاء ذلك وجد النائب أن الامر لا يحتمل المماطلة فجهز حملة شارك فيها مشاة من حارات دمشق ، دفع لكل فرد منهم « معلوما » مقداره خمسون درهما . ونظرا للسقم والمرض اللذين كان يعاني منهما النائب في ذلك الوقت ، فقد أوكل أمر قيادة هذه الحملة الى أحد مماليكه . ولقد خرجت القوة باتجاه البقاع ليلة الاثنين ١٣ صفر سنة ٩١٠ هـ / ٢٧ تموز ١٥٠٤ م ، الا أنها عادت بدون طائل عندما علمت بوفاة النائب(٤١) .

ان وفاة النائب قانصوه المحمدي كانت نهاية فصل من العلاقات السيئة ما بين ناصر الدين والمسؤولين المماليك . بل ان ابن طولون يذكر بأن ناصر الدين كان قد أرسل مشاة لمستلم دمشق الجديد ، قلج ، ودار المستلم بهم حول دمشق ينادي بالامان وبأن لا يحمل احد السلاح(٤٢) زيادة على ذلك عندما تعرض نائب بيروت سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، والذي كما يبدو كان من آل بحتر ، لصابون تعود ملكيته لناصر الدين بن

الحنش، وقام بطرحه على أسواق دمشق، خرج نائب دمشق، اركماس، الى سطيح المزة، ربما كمظاهرة ، من أجل نصرة ناصر الدين بن الحنش ضد عدوه نائب بيروت . ويذكر ابن طولون في مفاكهة الخلان بأن النائب وصل الى البقاع حيث لحق به الحاجب الجديد جان بردي الغزالي وعادا معا الى دمشق مرورا بقبة يلبغا اليحياوي جنوبي دمشق(٤٣). وربما منذ هذه الرحلة أصبح جان بردي يقدر دور ناصر الدين بن الحنش كزعيم محلي وصاحب منزلة متنفذة في منطقة البقاع .

في ١٧ محرم سنة ٩١٢ هـ / ٩ حزيران ١٥٠٦ م خرج سيباي ، نائب دمشق الجديد ، على رأس قوة عسكرية الى بلاد البقاع من أجل القبض على ناصر الدين . الا أن الفشل كان مصير حركته (٤٤) تلك ، مثله في ذلك مثل سلفه . نتيجة لتكرار فشل جميع المحاولات العسكرية في القضاء على ناصر الدين ، نجد أن النائب يقبل مبدأ الوساطة . ففي صفر من العام ذاته « دخل الامراء بين النائب وبين مقدم البقاع ناصر الدين بن الحنش في الصلح على مال معين للنائب عليه مع عدم حضوره عليه(٤٥) » ولقد أتت تلك المصالحة أكلها فلم يعد ناصر الدين يدخل في حركات عصيان أو سوء تفاهم مع السلطنة المملوكية ، واستعاد منزلته السابقة بحيث يذكر سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م على انه نائب صيدا بالاضافة الى مقدمية البقاع(٤٦) . ونجد انه عندما دخل الى دمشق صباح يوم الخميس ١٦ ذي الحجة سنة ٩١٧ هـ / ٦ آذار ١٥١٢ م « ... تلقاه المباشرون الى الصالحية وأتى الى النائب وهو يسير بالميدان الاخضر فسلم عليه طائعا مذعنا ثم آتيا الى دار السعادة فخلع النائب عليه وعلى جماعته(٤٧) » . نجح ناصر الدين في ان يحافظ على هذه المنزلة المتميزة لدى المماليك ، فنجده سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م من ضمن كبار الشخصيات المحلية التي كانت في استقبال السلطان المملوكي الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري عند مروره بدمشق في طريقه الى حلب لمواجهة العثمانيين . وقدم للسلطان الغوري « تقدمة أخرى كثيرة من المال قيل الف دينار ومن الخيل ومن الغنم ومن الجمال ومن البقر ومن الاوز ومن الدجاج ومن الزيت ومن العسل ومن الارز ومن الدبس وغير ذلك(٤٨) » .

بالرغم من الانتصار الذي أحرزه العثمانيون في ٢٤ آب ١٥١٦ م فان ناصر الدين لم يحول ولاءه عن المماليك بسرعة الى السادة الجدد بل اشترط مقابل استمرار تعاونه مع جان بردي الغزالي ، الذي أصبح يدير شؤون المماليك المنهزمين ، ان يولى نيابة حمص وأن يقوم الغزالي بقطع رأس أحد خصوم ناصر الدين المعروف باسم المقدم علاء الدين بن العماد المقدسي الشهير بابن العلاق . ولقد وافق الغزالي على جميع هذه المطالب ، لا سيما ان ناصر الدين كان يتصرف في هذه المرحلة الانتقالية من مركز قوة

خاصة وانه كان صهرا لامير عرب بلاد الشام ابن جانباي البدوي ، الذي يصفه ابن طولون بـ « أمير الشام(٤٩) » . الا ان انسحاب المماليك الى مصر أرغم ناصر الدين على تحويل ولائه الى العثمانيين .

ويذكر ابن طولون أنه مر يوم الاحد ثاني شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ / ٢٩ ايلول ١٥١٦ م على مخيم السلطان سليم ، فرأى ناصر الدين « فاذا به قد البسه باشاوات الخنكار خلعة واعطوه سنجقا وزادوا على التقدمة اقطاع الامرية الكبرى بالشام واقطاع نوى واقطاع ذخيرة ابن السلطان والزموه باحضار العرب فالتزم بذلك . وان سخاء العثمانيين نحوه لم يقف عند هذا الحد فبالاضافة الى مسؤوليته عن البقاع وما والاها، ولي كلا من صيدا وبيروت(٥٠) » .

بعد الانتصار الذي أحرزه السلطان سليم الاول على المماليك في مصر ، فان عددا من المماليك كان قد هرب والتجأ الى الزعامات المحلية في بلاد الشام . ولقد بعث السلطان سليم برسائل الى عدد من زعماء القوى المحلية في بلاد الشام ، كابن طربية(٥١) في مرج ابن عامروكذلك الى ابن الحنش يخبرهما عن انتصاراته . كما ويطلب منهما حفظ الطرق والبلاد والقاء القبض على المماليك الهاربين والانجاز عليهم . ويتوفر في مكتبة طوب قبو باسطنبول ملخص رسالة بعث بها ناصر الدين بن الحنش بتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ / ٢٢ آذار ١٥١٧ م الى السلطان يهنئه فيها بالانتصار على الجراكسة الظلمه ، ويعلمه أنه تتبع الفارين منهم . ولكنه ينفي في هذه الرسالة ما قد ينسب اليه من التسبب في الحوادث التي وقعت في كل من البترون وصفد . ويؤكد للسلطان أنه تعاون مع كل من نائبي الشام وصفد . والجدير بالذكر أن أخبارا وصلت الى صفد تفيد أن العثمانيين كانوا قد وهنوا أمام المماليك ، فقام عدد من « الفسق » يفتشون عن « الروم » (العثمانيين) لقتلهم فثارت الفتنة مما بين الطرفين(٥٢) . ويعود وينفي التهم التي الصقت به من قبل شخص يذكره باسم موسى التركماني ، فحواها ان ناصر الدين بن الحنش كان سيهجم على طرابلس الشام . والظاهر أن حوادث الشغب كانت قد امتدت الى كل من الظنية والبترون ، فيبادر ناصر الدين في رسالته للسلطان الى نفي اية علاقة له بها(٥٣) . كل هذه التهم التي ربما وصلت الى مسامع السلطان هي التي دفعت به الى عدم الاكتفاء بمخاطبة السلطان فقط ، بل نراه زيادة في الحيطة ، أو من باب مداراة الامور ، يبعث برسالة الى الوزير العثماني يونس باشا(٥٤) ، الذي كان برفقة السلطان سليم بمصر ، خلاصتها أن الضغينة والحسد والاغراض الانانية تتحكم بأهالي بلاد الشام الذين تحتدم العدواة بينهم ، وهم يرمون بعضهم البعض بأقذع الالفاظ ، وهكذا كان حالهم منذ زمن الجراكسة مما كان سببا في خراب البلاد. وبالرغم

من زجرهم للتوقف عن ذلك الا انهم بعد انتصار السلطان سليم على المماليك لم يرتدعوا، بل أبقوا على عادة الدس ضد بعضهم البعض لدى نائب الشام(٥٥) العثماني ، مما تسبب في حصول بعض حوادث القتل . والذي كان يخشاه ناصر الدين ، كما جاء في رسالته ، هو تفشي الفتنة التي ستؤدي حما الى اغلاق الطرق وخراب الولاية . وبما أن وضع ناصر الدين رسمي وقانوني فانه التمس في رسالته ، من الوزير يونس باشا ان يوصل الى المسامع الشريفة طلبه في اصدار مرسوم يمنع بموجبه الاصغاء الى أهل السوء، ما دام جميع أهالي البلاد في طاعة السلطان . وينهي رسالته تلك بذكره لاحد حجاب دمشق في العهد المملوكي واسمه سنطباي(٥٦). يعلم الوزير عنه بأنه مسكين وبائس(٥٧) ونظرا للمودة القديمة التي تربط بين سنطباي وناصر الدين فقد التجأ سنطباي هو وحريمه اليه ، فأرسل ناصر الدين بسنطباي بالامان الى والي دمشق شهاب الدين أحمد بن يخشى أوغلو الذي قام بسجن سنطباي حتى يشاور به السلطان(٥٨) .

ويستفاد من الاشارات المتفرقة ومن التهم التي يحاول ناصر الدين نفيها عن نفسه انه أوى عددا من المماليك الهاربين ، فيشير مثلا ابن طولون الى أحد الامراء المماليك المعروف باسم الامير قرقماش ، أمير أربعين الذي هرب بعد معركة مرج دابق ، والتجأ لدى الامير ناصر الدين بن الحنش ، ويذكر أنه توفي في قرية جب جنين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م (٥٩) . لم يكتف ناصر الدين بن الحنش بهاتين الرسالتين ، بل نراه يبعث برسالة ثالثة الى الاغلب للسلطان سليم نفسه ويعود ليذكر فيها أصحاب الحسد والبغض وانه بريء الساحة مما ينسب اليه ، ويطلب في هذه الرسالة الكشف عن حاله وأحواله. والذي يهمنا هنا ماذكره من وقوع فتنة ما بين أهالي بيروت وبين حاكمها . ولكي يثبت عدم علاقته بتلك الفتنة فانه يلتمس من السلطان أن يسأل صدقه من خلال أحد أقطاب الصوفية المقيمين في بيروت والمعروف باسم الشيخ محمد بن عراق(٦٠) (ت ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م) . كما ويذكر للسلطان بأن نائب طرابلس يلقي القبض على بعض الناس ويعذبهم من أجل أن يطعنوا به وهو الخادم المطيع وان تم الكشف عن الحقيقة فان في ذلك احسان اليه(٦١) .

على ما يظهر ، فان جميع تلك الذرائع التي أبداها ناصر الدين لم تكف لازالة الشكوك لدى السلطان سليم من تأرجح ولاء ناصر الدين بن الحنش ، لذا نراه بعد عودته الى دمشق في ١٩ رمضان سنة ٩٢٣ هـ / ٦ تشرين أول ١٥١٧ م ، يولي محمد بن قرقماس النيابة على بيروت وصيدا وتقدمة البقاع وما والاها ، ويسترد ما أعطاه لناصر الدين من الاقطاعات، كاقطاع الامرية الكبرى واقطاع نوى وذخيرة ابن السلطان.

زيادة على ذلك، خرج السلطان بنفسه الى البقاع للقبض على ناصر الدين وعلى من لديه من الجراكسة الهاربين . فلما علم ناصر الدين بذلك هرب من وجه السلطان الى عرب الجولان(٦٢) .

وضمن محفوظات مكتبة طوب قبو توجد رسالة بلغة عربية ركيكة موجهة من ناصر الدين بن الحنش الى السلطان سليم بعد طرده من البقاع وتسليمها لمحمد بن قرقماس ، يذكر فيها : انه بعد الانعام على الامير محمد بن قرقماس « ببلاد المملوك،أن جان بردي الغزالي كان قد توجه لتسليم تلك البلاد لمحمد بن قرقماس وأنه وصل بعساكره الى صيدا ، ويذكر للسلطان أنه مداوم وجماعته على الخدمة ، كما يضيف الى ذلك انه تلقى مراسيم شريفة من السلطان نفسه صادرة من منزلة قطية « يتضمن اطابة خاطر المملوك باستمراره على جاري عادته في بلاده وعليه أمان الله تعالى وأمان رسوله ، والامان الشريف وان المملوك يضمن البلاد والطرق » ويذكر أنه جاءه مثل ذلك بعد وصول المقام الشريف الى دمشق وانه يستمر على عادته « من تعمير البلاد وتطمين الرعايا وتمشية السبل والطرقات والوقوف في الخدمة الشريفة » وأنه أرسل ولده الى المقام الشريف وعاد مجبور الخاطر ومعه مرسوم « باستمرار المملوك في بلاده على عادته واطابة خاطره بكل ممكن » . ويعود ويؤكد أنه منذ وصول السلطان الى دمشق وانه مواظب على الطاعة وأداء الواجب ويعود ويذكر أنه ليس من الشيم السلطانية الاصغاء الى كلام المفسدين ذوي الاغراض الفاسدة والاراء الكاسدة » . ويذكر أن جان بردى الغزالي كان قد أرسل له وهو في بلاد التيم بأن يخرج من البلاد « وعدم حدوث خلل فيها وتطمين أهلها ، امتثل المملوك المرسوم المشار اليه وقابله بمزين السمع والطاعة والمملكة مملكة المقام الشريف والمملوك مملوك الابواب الشريفة وعبدها ، وابن سر نعمتها » . ويذكر أنه جهز جماعة لخدمة جان بردي الغزالي ليتوجهوا معه لتسليمه صيدا وناحيتها عامرة آهلة . والذي كان يخشاه ناصر الدين ، بعد أن يغادر السلطان سليم البلاد ، هو ان « يحدث في المملكة خلل من ساير أهل الفساد وربما ينسب للمملوك ، والمملوك يخشى من زيادة تغير الخواطر الشريفة عليه وان لم ترض الخواطر الشريفة على المملوك والا يتوجه المملوك الى البرية ويصير من جملة العربان بها فان المملوك ما يمكنه أن يتوجه الى عند أمير من الامراء يكون في خدمته ولايرى على نفسه أن يتوجه الى مملكة غير مملكة المقام الشريف « ويطلب من السلطان مرسوما شريفا » الى ملك الامراء المشار اليه بالوصية على جماعة المملوك وعلى فدادينه المشدودة في البقاع والساحل(٦٣) .

بعد مغادرة السلطان سليم لدمشق ، أوكل أمورها الى الامير المملوكي جان بردى الغزالي الذي التقى في قتال مع ناصر الدين بن الحنش يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة ٩٢٤ هـ / ٢٧ نيسان ١٥١٨ م وكانت الوقعة بأرض جوسية من أعمال بعلبك

حيث أسر ابن الحنش وقطع رأسه وجهزه للسلطان . أما بقية أنصار ناصر الدين فقد فروا(٦٤) . ولقد أوكل أمر بلاد البقاع « ومالنضاف اليها » للامير سنان الرومي ويذكر ابن طولون أن جان بردي الغزالي كان قد خرج الى بيروت « ليأخذ سلب افرنج خرجوا من البحر وقتلهم أهلها ويتفقد أبراج ذلك الثغر في السلاح » الا أنه عاد الى دمشق فجأة خامس عشر ذي القعدة سنة ٩٢٦ هـ / ٢٨ تشرين أول سنة ١٥٢٠ م عندما جاءه أولاق (مرسال) بخبر وفاة السلطان سليم . وأثناء عودته مر بالبقاع وعزل سنان الرومي ، وولاها للمقدم أحمد بن الحنش(٦٥) . وبذلك أعاد الاعتبار مرة أخرى لاسرة آل الحنش . وعلى الارجح أنه أقدم على تلك الخطوة ليستفيد من نفوذ آل الحنش في البقاع ، استجلابا لخاطرهم وحشدا لهم ضد العثمانيين . ولقد شارك ابن الحنش في جيش الغزالي عند خروجه لحصار حلب . ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن أول من قتل من العسكر العثماني المحاصر بحلب كان بنشاب من عسكر ابن الحنش(٦٦) . ومنذ ذلك الوقت نلاحظ ان المصادر لم تعد لذكر ابن الحنش ، وعلى الاغلب انه بعد القضاء على الغزالي ، اما ان احمد بن الحنش كان من بين القتلى أو أنه هرب من وجه السلطة وتوارى عن الانظار .

وتجدر الاشارة هنا الى ما يذكره اسطفان الدويهي من أن قسما من سكان بلاد البقاع قد انتقلت واستوطنت في قرى فتقا وسواحل علما وفيطرون وفقيع وعرمون والجديدة (٦٧) . ويبدو أن قسما من أسرة الحنش قد هاجر واستقر في قرية فتقا وأصبحوا أمراءها ، ودخلوا في مؤامرة مع مقدم زوق مكايل المعروف باسم ميخائيل لقتل منصور بن عساف(٦٨) ، وعندما ساروا اليه في غزير بهذه النية كان قد كشف خطتهم فاستضافهم وتخلص منهم وهم يتناولون الطعام كضيوف عليه وكان ذلك في سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م (٦٩) .

وتذكر المصادر العثمانية شخصا مهما من آل الحنش يعرف باسم محمد ابن الحنش ، وقد ادرج اسمه في نظام التيمار وأعطى خمس حاصلات قرية رقادة نيابة كرك نوح ، كما وخصص له بالاضافة الى ذلك مزرعتي : تل ابن حسين ومزرعة دير الاماسي في نفس الناحية(٧٠) . بل ما هو أهم من ذلك أنه كان ملتزما للخاص السلطاني في كل من ناحيتي كرك ونوح والشوف حوالي سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م . وتذكر المصادر كذلك انه ذهب الى دمشق ومعه من ثلاثة الى أربعة آلاف قطعة ذهب من أجل تسليمها للخزينة ، الا أنه قتل هناك ، وأخذ مرافقوه ما لديه من مبالغ ، وطلب السلطان في حكم شريف من دفتر دار الشام باسترداد المبلغ بدون نقص(٧١) .

وباختفاء محمد ابن الحنش فسح المجال في منطقة البقاع لبروز أسرة بدوية سنية أخرى هي أسرة الفريخ لتملأ الفراغ الناجم عن اختفاء أسرة آل الحنش . والجدير بالذكر ان أسرة تحمل اسم أسرة آل الحنش تذكر في القرن الثامن عشر في حمص(٧٢) ، ولا نعرف ان كانت هذه الاسرة الموجودة في حمص من سلالة أسرة آل الحنش في البقاع ام لا .

نلاحظ من خلال هذا الاستعراض التاريخي ان هذه الاسرة قد أنيطت بها مهام ادارية ، كالولاية على البقاع وصيدا وبيروت وبعلبك وحماه . كما أنها التزمت الضرائب في منطقة البقاع خاصة في ناحية كرك نوح . وعند العودة الى دفاتر الطابو العثمانية نجد أنها تقدم لنا صورة شبه مفصلة عن توزيع السكان وتعدادهم في تلك الناحية ، وتبين كميات الضرائب وأنواعها المحصلة من أهالي القرى .

نرفق بهذه الدراسة كشفا مفصلا بها من أجل فهم أدق لدور هذه الاسرة ضمن الاطار البشري . ونأمل من خلال هذه الشريحة اعطاء فكرة عن أنواع الضرائب والرسوم المجموعة على أساس الاقجة وهي وحدة النقد العثماني المسكوكة من الفضة . .

★ ★ ★

اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
١	ابلـح	خانة مجرد امام	٢٠ ١ —	١٦ ٢	١٦١) مسلم ١٤ ٥٠ خانه) نصارى ١ مجرد)	٤٥ نصارى ٧ — —	٤ ٣٦) ٢+٩) نصارى) — —
٢	ارحاب	خانة مجرد امام	٨ — —	١٧ — ١	٩ ٦ ١	١١ ٢ —	١٣ — —
٣	ارعيث	خانة مجرد امام	٤٠ ١ ١	٨٠ ١٢ —	٥٢ ٣٨ ١	٧٢ ٢ ١	٤٤ ٢١ —
٤	أشرفية	خانة مجرد أمام	٨ — —	مذكورة بدون سكان	١٦ ٤ ١		
٥	بجاجة	خانة مجرد أمام	٤ نصارى ٧ — + ١ — —	٣ — —	٩ ٩ ٥ —		

تابع أسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
٦	بحوشية	خانة	٤	–	٤		٥
		مجرد	٢	–	٢		٢
		امام	–	–	–		–
٧	براق البصل	خانة	١٣	١٦	١٨	١١	٩ لكن مجموع
		مجرد	–	٢	٦	١	٤ الاسماء ١٢
		امام	١	١	١	–	– فقط
٨	بشوات	خانة	– ١٦ نصارى	٤٤	٣١	١٠	٨
		مجرد	– + ٣	٥	١١	–	٢
		امام	– –	–	–	–	–
٩	بودية	خانة	٢٨	٤٧	٤٥	٥٤	٤٠
		مجرد	٥	–	٥	١	١٥
		امام	١	–	١	–	–
١٠	بيت سابه	خانة	٨	١٨ (جاءت خطأ ٨	١٩	١٩	
	(شامة ؟)	مجرد	٢	٤ ومجموع	٤	١	
		امام	١	الاسماء ٢٢)	١	–	
١١	بيت نايل	خانة	٢٢	٤٩	٢٨	٣٧	٢٦
	(مايل)	مجرد	٤	–	١٢	٣	١٣
		امام	١ + ٢ أعمى	–	١	–	١

تابع أسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
١٢	تربـل	خانة	٢١	٥٦	٣٥	٥٢	٥٠
		مجرد	٧	—	٨	٣ + ٣ معاق	١٥
		امام	١	١	١	—	—
١٣	تمنين التحتا	خانة	٩٤	١١٣	١٢٦	٣٢	٢٤
		مجرد	١٠	—	٣٦	—	٨
		امام	٢	—	٢	—	—
١٤	تمنين الفوقا	خانة	٤٨	٧٠	٦٣	٥٩	٤٤
		مجرد	١	—	١١	—	١٥
		امام	١	—	١	—	—
١٥	تيحا	خانة	١٨	٥١	٣٦	٣٩	٣٥
		مجرد	٦	—	٢	٧	١١
		امام	١	—	١	—	—
١٦	حارسا (؟)	خانة			١٤٤		
		مجرد	غير مذكورة	غير مذكورة	١١		
		امام			١		
١٧	حدث الفستق	خانة	٩٩	٢٥٢ (٨٧ خانة محلة يمن)	١٧٩	١٥٤	١٢٠
				١٦٥ خانة قيس	٣٥	٥	٤٠
		مجرد	١٩	١٩ (١٩ مجرد قيس)	٢	١	—
		امام	١				

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
١٨	حشمش دشمش	خانة مجرد امام	١١ ٢ ١	٤٣ – –	٢٩ ٨ ١	٣٠ ١٠ –	
١٩	دارية	خانة مجرد امام	٦٨ ١٢ ٢	٨٥ ٣٠ –	غير مذكورة	١٢٨ ٢ –	١٠٥ ٢٠ –
٢٠	دلهمية	خانة مجرد امام	١١ ٣ ١	٢٥ ٢ ١	٢١ ١٠ ١	١٥ – –	١٠ ٥ –
٢١	دير الاحمر	خانة مجرد امام	١٦ ١ –	٨ ١٦ نصارى (سجل –– عدد النصارى ١٧ بينمـا –– مجموع الاسماء ٢٤)	٦ ٢٣ نصارى ١ + ٤ –	٨ ٢١ نصارى – – – –	٨ ١٢ نصارى – ٤ – –
٢٢	دير زنتون	خانة مجرد امام	١٨ ١٠ ١	٣٤ – ١	٢٣ ١١ ١	٢٥ ١ –	٢٦ نفرا – –

تابع أسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٢٣	دير الغزال	خانة	١٣	١٥	١٤	٢٣	١٦
		مجرد	—	٦	٩	—	٧
		امام	١	١	١	—	—
٢٤	رقادة (رقادية ؟)	خانة	١١	٢٦	١٩	٢٠	١٥
		مجرد	٢	—	٦	—	٥
		امام	١	—	١	—	—
٢٥	زحلة	خانة	٩٧	١٢١	١٣٠	٨٧	٦١
		مجرد	٩	١٢	٤	٣	٢٠
		امام					
٢٦	شمصطار	خانة	لم يذكر اسماء	٥٥	٤٢	٥٠	٣٥
		مجرد	السكان ولا	١٠	٢٣	—	١٥
		امام	عددهم	—	١	—	—
٢٧	طلبة الغربية (طليبةالغربية)	خانة	٢٣	٥٨	٣٣	٣٦	٤٢ (لكن المجموع سجل على النحو
		مجرد	٣	—	١٦	١٦	٩٠ (التالي خطأ)
		امام	٢	١	١	—	١ (خانة مجرد امام ٢٤ ١٠ ١)

تابع أسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٢٨	عيناتا	خانة مجرد امام	٨ ٤٣)) نصارى (٣ ـ ١	٢٠ ٦٧ ـ ـ ١ ـ	٢٢ ٦٢)) نصارى ٥ + ٢١) ـ ـ	١٨ ٦٢ ـ ٧٣ نفرا نصارى ـ	١٨+٥٦))نصارى ١٥)
٢٩	عين توسانة (قوساية)	خانة مجرد امام	٢٢ ٢ ١	٢٩ ٢ ـ	٢٨ ٨ ١	١٥ ١٠ ـ	٢٥ ـ ـ
٣٠	فرزل	خانة مجرد امام	٢٠٤ ٢١١٨ نصارى ١٣ + ٢ ٢ + ١ سيد + ١ اعمى	٢٩٣ ، ٣٤٩) نصارى ٤٣ +٨) ٣ ـ لكن المجموع ٣٥٦ نفرا	٢٩٤ ، ٢٦٢)) نصرى ٦٢ +٥٣) ٢	٣٦٣ ٣٢٥ ٤٧ +٣٠ ـ	٣٤٣ ٢٩٥ لكن ٦٥ +٥٠ المجموع دون على ـ ـ اساسى ٢٩٢ خانة
٣١	قصربنا (قصريقا ؟)	خانة مجرد امام	١٤ ٦ ١١	٦٥ ـ + ١٦ ١	٥٠ ١٦ ١	٦٠ ـ ـ	٤٦ لكن مجموع ١٥ الاسماء ٦٠ ـ نفرا .

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٣٢	قوساية	خانة	٨٣	١٧٦	٩٦	١٥٢	١١٩
	(قوسانة)	مجرد	١٩	١٧	٦٤	—	٣٦
		امام	١	—	١	—	—
٣٣	نفس كرك	خانة	١٢١	٥٩٠	٣٠٠ ٤٤ (لكن مجموع الاسماء ٤١٤)	٥٢٠	٣٦٨
	نوح	مجرد	٤٥ + ٢ خطيب + ٢ اعمى	—	٧٢	٧٥	٨٥
		امام	٢	—	٥ + ٤٤ شريف	١	٥
٣٤	كفردان	خانة	١٩	٢٢	٢٧	١٨	١٤
		مجرد	٦	٣	٥	٢	٦
		امام	١	—	١	—	—
٣٥	كفر دبش	خانة	١١	٤٥	٢٤	٣٦	٣٠
		مجرد	—	—	٨	٤	١٠
		امام	١	—	١	—	—
٣٦	كفر زبد	خانة	٢٠	٥١	٣٧	٥٤	٣٤ لكن المجموع
		مجرد	٤	٤	١٠	١	٣ ٣٨ نفراً
		امام	١	١	١	—	—

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٣٧ كومسته	خانة مجرد امام	غير مذكورة	٦ ١ —	— — —	٧ — —	٥ ٢ —
٣٨ لونة	خانة مجرد امام	٩ ٣٦) —+١٤) نصارى ١ —	١٠ ٣٤ نصارى — — ١ —	٣٣ ٨٠) ٥ +٥)نصارى — —	٨ ٢٠ نصارى — — — —	٥ ١٤) ٣+٦) نصارى —
٣٩ معصرين ؟ معوان ؟	خانة مجرد امام	١٥ ٤ ١	٣٨ — —	١٤ ٦ ١	١٣ — ١	٩ ٤ ١
المجموع	خانة مجرد امام سيد شريف	١٢٢٩+٣٢٠ نصارى ١٩٩ ٢٣ ٣١ ٤ +٥ اعمى	٢٦٤٧+٤٦٦ نصارى ١٧٤ ٨ ١٤	٢٠٧٢+٤٧٧ نصارى ٣٤١ ٨ ٣٦ ٤٤ شريف	٢٢٤٢+٤٠٤ نصارى ١٨٦ ٣٠ ٤ ٣ مساق	١٧٥٧+٤١٣ نصارى ٤٥٣ ٧٥ ٨

نلاحظ عند استقراء الارقام الواردة في هذه الدفاتر ما يلي :

١ ــ الزيادة المضطردة والملحوظة في عدد السكان المسلمين على مستوى الاسر (الخانات) . وجاءت هذه الزيادة ، على الارجح نتيجة للاستقرار الذي وفره العثمانيون للبلاد في مطلع عهدهم بها ، ثم نلاحظ أن هذه الزيادة تأخذ بالهبوط في نهاية القرن السادس عشر . وهاتان الملاحظتان تتوافقان مع ما لوحظ في بقية النواحي التابعة لواء دمشق الشام في القرن السادس عشر ولم يستطع الباحثون الى الان ، اعطاء تفسير مقنع لظاهرة النقصان هذه . وهناك تخمينات لتفسير هذه الظاهرة كانتشار الامراض والاوبئة أو موجات الجراد والكوارث الطبيعية . ولكن عند دراسة الشواهد التاريخية المتوافرة في المصادر التاريخية لانجد أن المنطقة كانت قد تعرضت لمثل تلك النكبات بشكل مكثف يدعو الى حدوث هذا الهبوط في مجموع السكان . وهناك احتمال آخر ، ان مجموع عدد السكان ، في حقيقة الامر لم يهبط بهذا الشكل ، بل ان الادارة العثمانية والقائمين على أمر الاحصاءات لم يعودوا دقيقين في اجراء احصاءاتهم السكانية .

٢ ــ نلاحظ أن عدد المجردين المسلمين كان يتأرجح ما بين الزيادة والنقصان ، ثم يعود الى الارتفاع في نهاية القرن السادس عشر ، وربما كان مرد ذلك الى حالة عدم الاستقرار وانتشار الاضطرابات الداخلية التي شهدتها بلاد الشام في أواخر القرن السادس عشر .

٣ ــ فيما يتعلق بالسكان المسيحيين ، نلاحظ الزيادة المضطردة باعدادهم ولا نلاحظ هبوطا بارزا كالذي لاحظناه في احصاءات السكان المسلمين . وربما اهتم رجل الاحصاء العثماني بالتدقيق بأعداد المسيحيين لاغراض جمع الجزية .

٤ ــ اذا ما نظرنا الى مجموعة الائمة والخطباء نجد أن عددهم قليل بالنسبة لمجموع عدد السكان من المسلمين . ولعل مرد ذلك أن نسبة مهمة من سكان كرك نوح كانوا من الشيعة ، هذا مع ان الدفاتر العثمانية المعروفة بالطابو لم تشر الى ذلك ، وكما هو معروف فان الدولة العثمانية من الناحية الرسمية لم تعترف بالطوائف الشيعية واعتبرت الجميع سنة . واذا صحت هذه الملاحظة فانها لم تكن تعفي رجال الدين من الشيعة من الضرائب على غرار رجال الدين السنة الذين كانوا يعفون من العوارض الديوانية ومن التكاليف العرفية . ويجدر بنا هنا ان نلفت النظر الى اشارة

احد الدفاتر لثلاثة من السادة واشارة دفتر آخر الى أربعة وأربعين من الاشراف . وكما هو معروف فان كلا من السادة والاشراف كانوا يعفون من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية . كما ان وجودهم بهذا العدد البارز يلفت النظر الى وجود عنصر شيعي بارز في المنطقة .

٦ ـ أبرزت هذه الدفاتر ، التقاليد الادارية العثمانية في تدوين واحصاء اعداد المعاقين والمرضى والعميان وأهل العاهات من السكان ، بهدف اعفائهم من الضرائب .

٧ ـ يلاحظ وجود تجمعات سكانية كبيرة في كل من القرى التالية : حدث الفستق ، دارية ، الفرزل ، زحلة ، نفس كرك نوح وتمنين التحتا .

٨ ـ من الامور اللافتة للنظر أن دفتر رقم ٣٨٣ (ح ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م)عند تعداده لسكان قرية حدث الفستق ، قد قسم السكان على أساس يمنية وقيسية ، وان كلا منهما كان له محلته الخاصة به .

٩ ـ نلاحظ أن مجموع السكان كانوا من العاملين في الزراعة ولا تشير الدفاتر الى وجود عناصر بدوية أو تركمانية في تلك الناحية .

١٠ ـ يلاحظ عدم التطابق ما بين الاسماء المدونة وما بين المجاميع المرفقة في آخر قائمة الاسماء . وهذا أمر معروف لدى الباحثين والدارسين الذين توفروا على دراسة دفاتر الطابو العثمانية .

ان تناول الباحثين لموضوع الاوقاف في بلاد الشام جاء لماما ومقتضبا ، ففي الوقت الذي نجد بعض الدراسات الجادة عن الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر(٧٣)، لا نجد ما يوازيها في الكتابات التاريخية التي عالجت بلاد الشام . لقد قامت بعض المحاولات من اجل نشر بعض الوقفيات المتعلقة في بلاد الشام(٧٤) ، الا أن كميات الاوراق الوقفية المتوافرة تستدعي من الباحثين دراستها على ضوء السجلات والدفاتر العثمانية . واننا اذ نقدم نص وقفية الامير محمد بن ناصر الدين بن الحنش على مقام النبي نوح في كرك نوح من بلاد البقاع ، نجد ان دفتر طابو ٥٤٣ ، يقدم كغيره من الدفاتر مادة تاريخية ثرة عن الاوقاف، الذرية منها والخيرية . ومما يستلفت النظر هنا كثرة أوقاف العمارة في قرى ناحية كرك نوح ومزارعها التي شيدها السلطان سليمان القانوني في مدينة دمشق الشام . فيورد لنا هذا الدفتر أسماء القرى التالية في ناحية كرك نوح على انها من أوقاف هذه العمارة : أرعيث ، بيت شامة ، تمنين الفوقا ، دلهمية، فرزل

قصربنا ، وقوساية . أما أوقاف معلم السلطان سليم الثاني ووالي الشام ، فيما بعد ، لالا مصطفى باشا صاحب الخيرات والعمائر العديدة فقد شملت أوقافه في بلاد الشام عددا كبيرا من القرى والمزارع والبساتين والدكاكين والطواحين . فمن أوقافه في ناحية كرك نوح ، قسم من قرية أشرفية وعدد من المزارع واذا ما دققنا في وقفية لالا مصطفى باشا فاننا نجد تطابقا كبيرا بين ما توورده الدفاتر وما تذكره وقفيته المنشورة(٧٥) . ومن جملة الاوقاف الخيرية ، واردات قرية حشمش المخصصة كوقف لجامع السلطان الملك الاشرف سيف الدين برسباي ، وما يرد من قرية دارية الذي كان ينفق على برج القنطاري بطرابلس الشام ، كما نلاحظ أن نصف ما يتحصل من قرية كفردان كان يخصص للانفاق على البرج في بيروت ، واذا ما أجلنا النظر في الجدول المرفق فاننا نتبين بالاضافة الى ذلك أوقافا على المدارس والمساجد وعلى فكاك الاسرى . كما نجد ذكرا للوقف الذري ومنها قرية بيت نايل اذ كانت بكاملها وقفا ذريا محبسة من قبل محمد منجك .

ومن ناحية ثانية نجد ذكرا لاسماء القرى والمزارع التي كانت تجبى كجزء من خاص العاملين في دفتردارية دمشق الشام ، كقرية كفردان ، وقرية تربل التي كانت مقطعة لمراد بن علي دفتر دار الخزانة العامرة ببلاد الشام ، ويلاحظ ادماج زعيم أسرة آل الحنش ، محمد بن ناصر الدين ، في نظام التيمار فخصص له ربع قرية رقادة مع قسم من حاصلات مزرعة وقسم من مزرعة ثانية تابعة للقرية المذكورة .

أما أنواع الضرائب التي كانت تجبى والمبينة في الجدول المرفق فان ضيق المجال لا يفسح لنا أن نستطرد في تحليلها ووصفها ، ونكتفي منها بالاشارة الى الدراسات الحديثة التي تمت مؤخرا وتناولت هذا الموضوع(٧٨) .

* * *

ناحية كرك نوح بموجب طابو دفتر رقم ٥٤٢
مطلع عهد السلطان سليم الثاني

(الضرائب مقدرة بالأقجة - وحدة النقد العثماني المضروبة من الفضة)

#	القرية	السكان: خانه	مجرد	خطيب	امام	عدد البلاوين	يكون حاصل
١	أبلج	٧				٣٩	٤٤٤٤
٢	ارحاب	١١	٢				١٦٧٠
٣	ارعيث	٧١	٢		١		٤٦٤٨
٤	براق ابطل	١١	١				١٥٤٥٨
٥	[illegible]	١٠					[illegible]
٦	بيت شاة	١٩	١				١١٨٤٠
٧	بيت جابر؟	٣٧	٣			١٩	٤٦٤٤
٨	بودية	٥٤	١			١٦	٥٩٢٦
٩	[illegible]	٥٤	٢				٣٢٥٠
١٠	[illegible]	٣٠					٤٤٥٨٠
١١	[illegible]	٥٩					٩٦٩٤
١٢	[illegible]	٢٩	٧				٤٦٩٤
١٣	[illegible]	١٥٤	٥	١			٤٦٨٠٠
١٤	[illegible]	٣٠	١٠				٤٥١٢
١٥	دارية	١٢٨	٢				١٧٥٨٠
١٦	دير الأحمر	[illegible]				١١	٣٤٤٦
١٧	دير [illegible]	٤٣					
١٨	دير [illegible]	٤٥	١				
١٩	[illegible]	١٥					٩٠٧٤٠
٢٠	رقادة	٤٠					٤٠٠
٢١	رحمة	٨٧	٣				
٢٢	شهار	٥٠					٩١٤٥
٢٣	[illegible]	٣٦	١٦				٩٦٠
٢٤	[illegible]	١٥					١٦٤
٢٥	[illegible]	١٥	١٠				٥٢٩٤

	القرية	السكان: خانة	مجرد	خطيب	امام	محمد افندي	نسبة ... سنجق	مقطوع (بدل رسم وغيره)	ملاحيق	جزية	الحاصل: حنطة غرارة	شعير غرارة	خراج كروم وبساتين	طاحون	معصرة	رسم جاموس	رسم غنم	معزى ونحل	حق رعي	فدادين	عروس وبادهوا	مزرعة/بستان/قطع ارض ٢/د/ق	الوقف: حصة وقف	العشر	ملك	رسوم متنوعة	يكون مع الرسوم والعشر	ملاحظات
٢٦	فردل	١٧٦٣	[illegible]					٩٠٠٠																		[illegible]	١٣٢٩٥	[illegible]
٢٧	[illegible]	١٣		١				١٠٠٠٠						٢٠ [illegible]	١٢			٩٥٠	٦٠٠		١٠٠						١١٨٨٤	
٢٨	قصر [illegible]	٦٠						٩٠٠٠							٤٤			١١٠٠			٥٠٠						٩٠٦٠٤?	
٢٩	فوساتة?					٣٠		١٥٠٠٠							٤٤			١٨٠٠			٤٠٠٠						١٨٨٤٤?	
٣٠	[illegible] كرك	٥٦٠	٧٥		١						[illegible]	[illegible]	[illegible]	٦٠	[illegible]	٤٠٠	١٠٠٠ [illegible]	•			١٠٠٠					٤٠٠٠ [illegible]	٨٤٧٨	[illegible]
٣١	كفرران	١٨	٩				١/٤ ١٠٠٠	•	١٠٠٠ [illegible]		[illegible]	[illegible]			٤٤			٩٠٠	٣٦		٤٤٠		[illegible]	٤٠٠			٤٧٠٠	[illegible]
٣٢	كفرديش	٢٦	٤				١/٥				٢٧/٢٦٠٠	١٧/١٢٦٠	٩٠٠		١٢			٢٥٠			٩٠٠	[illegible]					٧٨٤٤	
٣٣	كفرزبد	٥٤	١				١/٤	٥٠٠٠			٢/١٥٠	١٥/٤٠٠	١٤٠٠		٤٤	١٥٠		٦٠٠			٥٠٠	٦٠/ب					٨٩٤٤?	[illegible]
٣٤	كوسنة?	٦					١/٥				٤٥/٣٨٠	٩/٧٧	١٠٠٠					٥٠	١٠٠٠		١٠٠						٦٢٧٠	
٣٥	لونة?	[illegible]					[illegible]	٥٠٠ [illegible]						[illegible]	٤٢			٥٠٠			٤٠٠						٣٦٦٤	

الملاحـق

١ ـ ترجمة رسالة ابن آلحنش الى السدة السعيدة ٢٨ صفر ٩٢٣ هـ/٢٢ آذار ١٥١٧

٢ ـ ترجمة ملخصات رسائل من ابن الحنش الى السلطان سليم وليونس باشا، والـى خير بـك .

٣ ـ رسالة ناصر الدين ابن الحنش رقم ١٠٧٣٤ الى السلطان سليم .

٤ ـ وقفية الامير محمد بن ناصر الدين المعروف بالحنش .

٥ ـ ترجمة الحكم السلطاني الشريف ، ١٧ صفر سنة ١١/٩٧٨ تموز ١٥٧١ .

وثيقة رقم ٦٣٤١ المحفوظة بمكتبة طوب قبو ، باسطنبول

ترجمة مكتوب ابن حنش الوارد الى السدة السعيدة

بعد تقبيل الارض عند حضور الصدقات الشريفة ، بورود المراسيم الشريفة لعبدكم ، والمتضمنة ما من به الله تعالى من النصر على الجراكسة الظلمة ومن تملك السلطان لتخت يوسف عليه السلام وتتضمن هذه المراسيم الشريفة الذكر بأن عددا من أصحاب السيوف الجراكسة قد هربوا الى هذه الجهات ، ولما يعرف عنا وعن رجالنا من اليقظة فان المطلوب ملاحقة هؤلاء الظلمة والقاء القبض عليهم وقتلهم .

وانه بعد ان تسلم المراسيم الشريفة قرأها على مسامع الجميع وعلى رؤوس الاشهاد ويشهد الله ورسوله انه قد زاد سروره وسجد شاكرا لله على نعمته التي أسداها للاسلام والمسلمين كما انه كتب الى سائر الجهات والمواضع التي يعتمد عليها من أجل القاء القبض على (السيوف) الهاربين ، وأوعز الى كافة الاطراف انه اذا قبض على أحدهم أن يقتل حالا . كما يذكر انه لا يوجد بطرفه اي خلاف وانه يعمل حسب ما هو وارد في المراسيم الشريفة حيث أنه واحد من خدم الآستانة ومعترف بفضله وصدقه واخلاصه . ومنذ أن توجه الركاب الشريفة الى مصر المحروسة عم البلاد الامن واثبت اجتهاده في أحسنَ الطرق كما انه خدم نائب الشام ولم يتوان في خدمة العساكر المنصورة مهما كان (مستوى) من حضر منها ولو كان عبدا أسود لقام على خدمته وأكمل ما يريد ويبغي . وهذا ديدنه في كافة اطراف البلاد . كما انه يقسم

انه منذ أن تحرك الركاب الشريف في البلاد الشامية وبعد المغادرة منها الى القاهرة المحروسة فان احدا من العساكر المنصورة لم يفقد ولا درهما واحدا ولله الحمد والمنة. كما يريد أن يبلغ المسامع الشريفة انه عندما غادرت متوجهة الى القاهرة بحرز الله وسلامته وقع في صفد فتنة وقتال بسبب اعتقال شخص من أهالي صفد وكان الخلاف بين اهالي صفد ونائبها . وانه (ابن حنش) حالما اطلع على هذا الامر يشهد الله أنه جمع رجاله فورا وارسل الى نائب صفد : أنه اذا أراد التوجه الى الشام فهو على استعداد لمساعدته للذهاب الى الشام واذا أراد التوجه الى مصر فهو على استعداد لاخذه الى مصر ولكن نائب صفد أرسل شاكرا هذا العرض ويصر عى البقاء في صفد ، مقررا تخويف الاهالي بالسلطة الشريفة وبالسطوة. وبقي الوضع على هذا المنوال ثلاثة أيام لم ينزلوا من القلعة وبعدها جمع الاعيان (ابن حنش) وشرح لهم طبيعة الحال على صورة جلية واضحة ولكن والي صفد لم يقبل التفاوض . وبعد ذلك أرسل (ابن حنش) رسالة تهديد الى أهالي واعيان صفد وحذرهم من قوة وسطوه الدولة وسلطانها فتفرقوا في جميع أنحاء البلاد بعدما خافوا من الانتقام خاصة بعدها علموا بالنصر والاستيلاء على العرش الشريف (مصر) . وتوزعوا على سائر الاراضي ومن هؤلاء جماعة يدعون جماعة ابن حامد شيخ الاسلام وشخص مشهور باسم ابن دوادار وهو قاضي صفد وقد حضر الى ولاية خادمكم المطيع هذا . وعندما عرف نائب صفد ذلك ارسل اليهم رسالة يستدعيهم للخدمة لديه وقد استدعاهم ابن حنش اليه وطيب خاطرهم وضمن لهم الوصول الى كل الخير مع الصدقات الشريفة وقد أعلم سابقا بهذا صاحب الصدقات الشريفة واسع الحلم (السلطان) . وقد اعتذروا بشدة وأبدوا ندمهم واسفهم حتى انهم طلبوا أن يسجنوا جزاء لهم على وقوعهم في خطيئة الجهل والخوف من نائب صفد وقد عرضت سابقا هذه القصة على المسامع الشريفة مع طلب الرحمة من الصدقات الشريفة . وقد صدر مرسوم شريف بالامان لهم .

ومن القضايا التي يريد أن يعرضها على المسامع الشريفة أيضا أنه يوجد بطرابلس من أهالي طرابلس قاضي حنفي كما يوجد نائب طرابلس في زمن الجراكسة دواداري وخزينة داري (صاحب الخزينة) وقد حضروا لطرف ابن حنش واعلنوا ولاءهم واخلاصهم . ومن أجل زيادة التأكيد والابرام على طاعتهم فانهم مستعدون للذهاب والتمسح بالاعتاب السنية والدخول في الطاعة الشريفة . وقد افادوا انهم بينما كانوا يرافقون مجموعة من حريم طرابلس بغية تأمينهن بمكان أمين مرورا بقرية اسمها البترون وكان في هذه القرية مجموعة من الاكراد وقد باتوا تلك الليلة في هذه القرية وفي الليلة الثانية كان يوجد شخص اسمه موسى التركماني وكان عدوا لهؤلاء الاكراد وقد ذهب الى نائب طرابلس وأعلمه أن قاضي طرابلس والدوادار وبعض رجال ابن الحنش قد حضروا

ومرادهم الهجوم على طرابلس وعندما سمع نائب طرابلس هذا الامر توجه فورا الى البترون وحاصر من فيها من الاكراد وقتلهم جميعا وبلغ عدد القتلى سبعين نفرا بمافيهم القاضي وقد جرى كل ذلك بسبب أغراض موسى التركماني هذا . وقد حاول الدوادار الهرب والذهاب الى مكان اسمه ظنية ولكن الخيالة تتبعته وقبض عليه وقتل فورا . كما ذكر (اي موسى التركماني) أن ابن حنش هو الذي جهز هؤلاء وارسلهم الى هناك .

ان ابن حنش خادمكم المطيع يشهد الله ورسوله ويقسم على القرآن المجيد انه لم يرسل أي فرد من جماعته لا مع هؤلاء ولا مع غيرهم الى أي مكان كان وانه لم يغادر مكانه ولم يركب حصانه وانه لم يذهب الى اي مكان كان بغير حاجة ماسة . وخوفا من كلام المفسدين فانه يتوجه الى الصدقات الشريفة ويسألها أن ترسل استفسارا عنه عما اذا كان قد ركب للحرب أم لا ، منذ أن توجه الركاب الشريف : ان ابن حنش خادمكم المطيع قائم على خدمة نائب الشام وكان قد أرسل خبرا مع القاصد (رجل نقل الاخبار والرسائل) في تاريخ سابق ، وقد جهز الهجانة القادمين في الخدمة الشريفة وهو حاليا يهيء قاصده لتهنئة الصدقات الشريفة لما منه الله تعالى على المسلمين ، وأن خادمكم المطيع هو خادم صدقاتكم الشريفة ويدعو الله بدوام أيامكم وعزكم وليكن دعاؤه مقبولا ولينصر الله الصدقات الشريفة ويجعل الظفر دوما في ركابها على كل من عاداها . فليقبل الله هذا الدعاء من خادمكم المطيع ومن داعي مخلص ، آمين بمحمد وآله وصحبه أجمعين .

الثامن والعشرين من شهر صفر / ثلاث وعشرين وتسعماية

(٢٢ آذار ، ١٥١٧ م)

* * *

١ ـ وفي مكتوب ثان من ابن حنش مؤرخ بالعاشر من ربيع الاول (٢ نيسان ١٥١٧ م) وحسب ما ورد بشكل مفصل فانه يذكر وجود الضغينة والبغض من بعض أصحاب الحسد ضده ويطلب الكشف عن أحواله ويشير الى انه قد وقعت فتنة بين أصحاب الرتب والحكام ولكن يوجد شخص لايشك بأنه من أولياء الله الصالحين ولا يوجد أي شبهة بولايته وهو الشيخ ابن عراقي ومعروف عنه انه لا يقول أي شيء غير الصدق ويطلب السؤال عنه (عن ابن حنش) .

كما انه علم ان نائب طرابلس قد قام بتعذيب وقتل بعض من قبض عليهم حتى يدلوا بما يريده هو عن خادمكم المطيع (ابن حنش) والله وحده عليم بأحواله وهومتاكد انكم سوف تحسنون اليه بالكشف عن الحقيقة .

٢ – وقد ورد في مكتوب آخر من ابن حنش المذكور لحضرة يونس باشا ومؤرخ بالثامن والعشرين من شهر صفر (٢٢ آذار ١٥١٧)،بعد أن فصل بكتابه هذا تقريرا عن جملة أحواله ذكر في الحواشي انه من الامور المهمة التي يجب أن تصل الى المسامع الشريفة هو أن العداء والمشاحنات الشخصية والعداوات كثيرة ولذا تجدهم يتكلمون عن بعضهم البعض الكلام السيء مما يؤدي الى ايقاع الناس ببعضهم البعض بعداوات ومشاحنات .

وان هذه الظاهرة كانت موجودة لديهم من زمن الجراكسة ومنذ ذلك الزمان وهم يتعرضون الى كافة أنواع الزجر ولكنهم لم يرتدعوا وفي الوقت الحاضر وبعد الاستيلاء على العرش الشريف (عرش مصر) فانهم يأتون الى نائب الشام ويتحدثون اليه بأحاديث الفتنة مما أدى الى اراقة الدماء والقتل وان خادمكم المطيع (ابن حنش) يخاف أن تزداد الفتنة وتمتد وتغلق طرق الولاية وتصبح الولاية خرابا .

ان أهل هذه الولاية هم رعايا المقام الشريف وحيث ان مقر خادمكم هو قانوني ورسمي وبهذا الخصوص أرجو أن يصل الى المسامع الشريفة ضرورة ارسال مرسوم شريف يمنع المغرضين عن تماديهم في الفتنة ويمنع اعتقال اي شخص الا لجريمة ارتكبها حيث أن جميع أهالي بلاد الشام هم في أكمل الطاعة والولاء ولا يوجد بينهم أي خارج أو متمرد وسيسجل هذا الثواب في الكتاب المحفوظ وفي هذا الباب الاجر العظيم والخير الكثير .

كما يرجو (ابن حنش) أن يصل الى المسامع الشريفة أيضا انه يوجد شخص باسم سنطباي كان حاجبا سابقا في الشام في زمن الجراكسة وكان يوجد بينه وبين ابن حنش مودة سابقة منذ زمن بعيد وقد التجأ وحريمه وأهل بيته الى خادمكم المطيع (ابن حنش) وأعلن طاعته وولاءه . ويتضرع خادمكم المطيع (ابن حنش) بالاحسان اليه بالامان الشريف وانه يقبل الاعتاب السنية وانه يريد أن يدخل في سلك الخدم الشريف . واذا غادر المذكور بيت ابن حنش فانه لو كان ابنه فلن يكون له عقابا سوى قطع رأسه . وهو شرقي مسكين وقد التجأ الى حريم خادمكم المطيع (ابن حنش) وقد اتخذه ابن حنش وسيلة للوصول الى الصدقات الشريفة وان ابن حنش هو مملوك الصدقات الكريمة والمراحم الشريفة وانه واقف على قدم الطاعة .

٣ ـ كما أن المكتوب الذي بعثه ابن حنش المذكور الى خير بك هو نفس المكتوب الذي بعثه الى حضرة الباشا بلا زيادة ولا نقصان .

كتاب ناصر الدين ابن الحنش الى السلطان سليم الاول

ماخوذة عن وثيقة رقم ١٠٧٨٤ المحفوظة بمكتبة طوب قبو ، باسطنبول

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الملكي المظفري القضائـي

يقبل الارض وينهي ان الموجب عرضها على المسامع الكريمة . . . بالله تعالـى انه ليس بخاف عن العلوم الكريمة ما انعمت به الصدقات الشريفة الخندكارية ضاعـف الله شرفها على الامير محمد بن قرقماس ببلاد المملوك ، وتوجه الركـاب الكريم . . . الكافلي ملك الامراء جان بردى الغزالي ومن صحبته من العساكر المنصورة الى بـلاد صيدا . ولم يعلم المملوك سبب ذلك ، والذي . . . .انه ما كان هذه المدة مقيم في بلاده الا بالمراسيم الشريف . . . . الشريف وما وقع من المملوك تقصير في خدمةالمقام الشريف ولا جماعته . . . . .

ولما حل الركاب الكريم بمنزلة قطية عائدا من القاهرة برزت المراسيم الشريفـة والمراسيم الكريمة على يد احد الخاصكية بالخدمة الشريفة يتضمن اطابة خاطر المملوك واستمراره على جاري عادته في بلاده وعليه أمان الله تعالى وأمان رسوله ، والامان الشريف وان المملوك يضمن البلاد والطرق ، قابل المملوك المراسيم الشريفة والكريمة بمزيد السمع والطاعة وتضاعفت أدعيته بدوام الايام الشريفة والكريمة ولما حل الركاب الشريف بدمشق المحروسة ورد على المملوك أمثلة كريمـة من الصدقـات ومن المقـر الاشرف محمد باشا ومن المرحوم حليمي شلبي بمعنى ذلك ، وفي مثال المشار اليه على لسان المقام الشريف عز نصره يخبر المملوك في ثلاث وجوه : أما ان المملوك يحضر نفسـه الى الاعتاب الشريفة بعد ايقاع حلف شريف ، او يجهز أحد. . .خدمة الابواب الشريفة أو يستمر على جاري عادته ويدعو للمقام الشريف ويستمر على ما كان . . . من تعمير البلاد وتطمين الرعايا وتمشية السبل والطرقات والوقوف في الخدمة الشريفة . وهذه الثلاث وجـوه متساويـة الاطراف عنـد المقام الشريف . هـذه عبـارة المثـال الحليمي للمشار اليه فلما قرأ المملوك المثال الكريم المشار اليه جهز ولده الـى خدمـة

الابواب الشريفة وعاد مجبور الخاطر وورد على يده مرسوم شريف باستمرار المملوك في بلاده على عادته واطابة خاطره ، بكل ممكن ، فتضاعفت ادعية المملوك في الصحايف الشريفة . هذا والمملوك من حين حلول الركاب الشريف من المملكة الرومية ... والى يوم تاريخه لم يقع من المملوك تقصير في حق احد من مماليك المقام الشريف ولا في مهم من المهمات ... ولم يحدث من المملوك ما يغير الخواطر الشريفة وما علم المملوك لـه ذنب سوى اخلاصه في الطاعة الشريفة ووقوفه على اثبت قدم والمملوك يحاشي ... الشريفة السلطانية من نقض كلامها الشريف بغير سبب يقتضي ذلك فان كلام الملوك ملوك الكلام . وما شهر فيه عن المقام الشريف ولا عن ابائه واجداده سقى الله عهدهم صبوب الرحمة والرضوان. والصدقات الكريمة لاتصغي لكلام المفسدين ذوي الاغراض الفاسدة والآراء الكاسدة .... والمملوك ما قصد ذلك الا ليزيد ما .. على الصدقات الشريفة والكريمة ان شاء الله تعالى . ولما حل ركاب الكافلي جان بردى الغزالي بوادي التيم جهز للمملوك مثال كريم يتضمن طاوع المماوك من البلاد وعدم حدوث خلل فيهـا وتطمين اهلها ، امتثل المملوك المرسوم المشار اليه وقابله بمزيد السمع والطاعة والمملكة مملكة المقام الشريف والمملوك مملوك الابواب الشريفة وعبدها ، وابن سر نعمتها ، وجهز المملوك جماعته الى خدمة المشار اليه ليتوجهوا صحبة ركابه الكريم الى مدينة صيدا ويسلموه الناحية المذكورة ، عامرة آهلة امتثالا للمراسيم الشريفـة ، هذا والمملـوك مستمر على الاخلاص في الطاعة الشريفة وهو مقيم على العهد والميثاق وباق عليهما واينما كان وحيث سار هو مملوك الابواب الشريفة ، وسؤال المملوك من الصدقات الكريمـة التي ما خاب سائلها ولا رد املها (؟) استعطاف الخواطر الشريفة على المملوك بكـل طريق ممكن وان انعمت الصدقات الشريفة على المملوك فيكون قد توجه الركاب الشريف، فان المملوك يخشى ان بعد توجهه في حرز الامن والسلام يحدث في المملكة خلل مـن ساير اهل الفساد . وربما ينسب للمملوك والمملوك يخشى ... من زيادة تغير الخواطر الشريفة عليه وان لم ترض الخواطر الشريفة على المملوك والا يتوجه المملوك الى البرية ويصير من جملة العربان بها ، فان المملوك ما يمكنه ان يتوجه الى عند امير من الامراء يكون في خدمته ولايرى على نفسه ان يتوجه الى مملكة غير مملكة المقام الشريف فـان المملوك ما ينسا الاحسان والانعامات الشريفة وهو ولد حلال . ان شاء الله تعالى سؤال المملوك من الصدقات الكريمة تجديد العناية الكريمة في عمل مصلحة المملوك في شـيء يكون خلاصة وخلاص الصدقات الكريمة من الله تعالى ، فان المملوك ليس هو معتمـد الا على الله تعالى ثم على المراحم الكريمة ولاتخلي الصدقات الكريمة مملوك ابوابها العالية الولد امام (اقام ؟) على من حسن نظرها الكريم فانه مملوكها وفي خدمتها وان انعمت الصدقات الكريمة على المملوك كتابة مرسوم شريف الى ملك الامراء المشار اليه بالوصية على جماعة المملوك وعلى فدادينه المشدودة في البقاع والساحل فيكون ذلك اسعافـا

للملوك وعمارة بيته فان المملوك ما يسد جميع الامور الا بما يتحصل من المغل والمملوك وما يملكه للصدقات الشريفة ومهما حسن في الآراء الكريمة واقتضته ففيه اليمن والبركة والمملوك ليس هو معمتد الا على الله تعالى ثم الصدقات الكريمة سائلا استمراره على الخواطر الكريمة ليفوز .... واخرا والمملوك واقف على قدم الطاعة لما يرد عليه من المراسيم الكريمة المطاعة . انهى المملوك ذلك (على الهامش : أن شاء الله تعالى ، الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) .

★ ★ ★

لقد سعيت على مدار عدد من السنين في البحث من أجل الإطلاع على النسخة الأصلية لـ « وقفية الامير محمد بن الامير ناصر الدين المعروف بالحنش » لكني لم أوفق في العثور عليها ، لان النصوص الاصلية لمجموعة وقفيات دمشق مجهولة المكان وغير متوفرة للباحثين ، ويخشى أن تكون قد فقدت .

والنص الذي أقدمه هنا مأخوذ عن النص الاصلي ، وموجود في المجلد الثاني لمجموعة أوقاف دمشق المحفوظ في مديرية أوقاف مدينة دمشق ، ويقع ما بين الصفحة ١٩٦ ــ ٢٠٠ من المجلد .

والدعوة التي أتوجه بها هنا الى المعنيين بالدراسات الاقتصادية والاوقاف أن يصار الى تشكيل هيئة علمية لحصر وقفيات بلاد الشام ومن ثم فهرستها والتعريف بها والعمل على نشرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفية الامير محمد ابن الامير ناصر الدين المعروف بالحنش

(٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)

قال الله تعالى وهو اصدق القائلين : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »(٧٩) « ولا يضيع أجر المحسنين »(٨٠) وعلى الله وعلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

حضر لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام وارث علوم الانبياء والمرسلين مفيد الطالبين حجة الحق على الخلق اجمعين ، المحفوف بعناية الملك المعين ، ابو المناقب شمس الدين محمد(٨١) ابن مفتي المسلمين ملك الفقهاء والمحدثين ، المرحوم طاهر قاضي قضاة الاسلام وينبوع الفضل والعلوم ، وهو بمجلس حكمه العزيز بدمشق الشام أدام الله تعالى اجلاله ونفذ أحكامه وختم بالصالحات أعماله بحق محمد وآله حضر مفخر الامراء ذو القدر والاحترام جامع المجد والكرم والسيف والقلم الامير الجليل محمد بن المرحوم الامير الجليل ناصر الدين المعروف بالحنش ادام الله تعالى مجده ورحم اباه وجده الامير على البقاع مع كرك نوح النبي عليه السلام ونواحيهما. وأحضر معه مفخر السادة الاجلاء العالم المحقق المدقق المحدث فرع الشجرة الطاهرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية النبوية وغصن الدوحة التهامية المصطفوية ذو الحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر النسابة في الديار البعلية وامير السادة الاشراف الحسينية قدوة علماء السادة الشافعية ودرتهم الباهجة المضية مولانا وسيدنا مفخر السادة الاجلاء الاشراف الكرام السيد علوان(٨٢) ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين مولانا السيد علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين جامع الشرف والتقوى والدين مولانا السيد حسين اعزه الله تعالى وزاد شرفه عظما ونجحه في الدارين قصده ورحم اباه وجده . وهو النقيب على السادة الاشراف الكرام والمتولي والناظر على أوقاف حضرت النبي نوح (٨٣) على نبينا وعليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة واتم السلام . واشهد على نفسه لمولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه انه وقف وحبس وابد واخرج عن ملكه جميع وقفه هذا على الشروط الاتي ذكرها فيه من غير زيادة ولا نقصان ولاتعدي بوجه ولا بسبب من ساير الاوجه وسائر الاسباب الشرعية :

وذلك جميع الطاحون المعروفة بالمخطبية تابع البقاع حجرين الراكبة على نهر الغزير ومنه دورانها التي حدها قبلة الطريق وشرقا النهر وتمامه الباب ، وغربا النهر وتمامه أرض داخله في الوقف سيأتي ذكرها وشمالا النهر ومن ذلك جميع الطاحون المعروف بالجامعية تابع كرك حجر واحد الراكب على نهر البردون(٨٤) ومنه دورانها الكائنة فوق الجسر بالقرب منه حدها من القبلة النهر وشرقا الطريق وفيه الباب وغربا النهر وشمالا كذلك . ومن ذلك جميع القطعة الارض الكائنة لصيق طاحون المخطبية وينتهي حدها الى الجسر وشهرتها في مكانها تغنى عن التحديد . ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة في المعبدية تابع بر الياس حدها من القبلة أراضي الصاوة ؟ العادة ؟ وشرقا اراضي بلوطبا وغربا تل الصرحون وشمالا اراضي تربل(٨٥) ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بالبرقية تابع البقاع ولها أوصاف وشهرة في مكانها تغني عن الوصف والتحديد . ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بحقل التوت من أرض قرية علين التي حدها قبلة أرض البحصاص وشرقا أرض الممالك وغربا الطريق وشمالا أرض محمد عبد الله . ومن ذلك جميع القطعة الارض ، المعروفة بالحمرا من اراضي (١٩٦ أ) كفر عنا تابع الفرزن(٨٦) الكاينة قرب الجسر حدها من القبلة الطريق وشرقا كذلك وغربا النهر المنيع ، وشمالا الارض سليخ . ومن ذلك جميع القطعة الارض تابع رعيث(٨٧) المعروفة بالوقف التي حدها من القبلة ساقية حشمش(٨٨) وشرقا الطريق يدور مع الساقية وغربا أرض الكفيرات وشمالا كذلك . ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بعين حميدة تابع كرك التي حدها من القبلة أرض الحقل وشرقا كروم دار لاباس وغربا أراضي عرجموش وشمالا ملك عبد الله . ومن ذلك جميع القطعةالارض المعروفة بالحفوف تابع الكرك التي حدها من القبلة الطريق وشرقا جسر مسعود وغربا البستان وشمالا الطريق .

ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بالرجم تابع كرك التي حدها من القبلة حقل الروض وشرقا البستا نوغربا الطريق وشمالا في يد اربابه .

ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروف بالبرانية تابع كرك التي حدها من القبلة ارض وقف جامع السيد وشرقا ملك محمد وغربا كذلك وشمالا حقل سليخ بيد اربابه .

ومن ذلك جميع البستان التوت تابع كرك الذي حده من القبلة ملك الحاج أيوب وشرقا البستان وغربا ملك السيد وشمالا النهر .

ومن ذلك جميع البستان المعروف بالطحان تابع كرك وشهرته في مكانه تغني عن الوصف والتحديد :

ومن ذلك جميع نصف البستان الكاين قرب الحمام المشتمل على أشجار توت وجوز وغير ذلك الذي حده من القبلة الطريق السالك وشرقا بستان السيد وغربا البيادر وشمالا ملك الشيخ عبد العال .

ومن ذلك جميع كامل البستان المعروف بالشمعة تابع كرك الذي حده من القبلة البستان بيد أربابه وشرقا الفريجة (الفريجية ؟) وغربا الطريق وشمالا بيد أربابه .

ومن ذلك جميع نصف البستان تابع كرك المشتمل على أشجار توت، وجوز وغير ذلك حده من القبلة الطريق وشرقا بستان الحاج أيوب وغربا بيد الجاموس وشمالا البستان بيد اربابه . يجمع حقوقها كلها طرقها ومرافقها من كل حق هود داخل فيها وخارج عنها وقفا مؤبدا ومحرما وايقافا ثابتا ومحيا سرمديا لايباع أصل ذلك و لايوهب و لايناقل ولا يتلف ولا يخرج الى ملك أحد كل ما مر به زمان أكده وكلما أتى عليه حين وأوان اطده وسدده فهو محرم بحرمات الله تعالى مدفوع عنه بقوة الله تعالى يبتغي فيه مرضات الله تعالى لايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الاخر ويعلم أنه لربه الكريم صابر ينقص هذا الوقف ولا يغيره ولا يزيده عن وجهه وشروط الاتي ذكرها لا بوجه ولا بسبب .

على مبتدأ ان يكون جميع غلال ذلك على عمارة المشهد الذي فيه النبي نوح المشار اليه صلى الله عليه وسلم . وعلى عمارة اوقافه وعلى خدامه المقيمين به ، وللمتولي والناظر .

وسلم جميع ذلك لمولانا وسيدنا السيد علوان المشار اليه فاعترف بالتسليم تسليم مثله شرعا . ثم شرط له التولية والنظر على وقفه هذا له ، ثم من بعده لاولاده وأولاد أولاده، ولاعقابه وانساله ابدا ما داموا ودايما ما بقوا الارشد منهم . وفوض لهم التصرف في في ذلك وعلى انه لاتوجه وظيفة ولا خدمة الا لمن يرضاه المتولي منهم ، وعلى أن وقفه هذا لا يؤجر لمتقلب ولا لسفيه ولا لذوي شوكة ولا يؤجر الا سنة بسنة شرطا شرعيا.
وقبل ذلك منه مولانا السيد علوان المشار اليه القبول الشرعي وفوض له التصرف في ذلك وان يكون في ذلك متابعا لما شرطه المرحوم المغفور له تنكز(٨٩) أمير امراء بدمشق الشام سابقا في وقفه رحمه الله تعالى المبرز من يد مولانا السيد علوان المزبور في المجلس فتأمله الحاكم المشار اليه ثم امر بنقله حرف بحرف بهذا الكتاب وهو مضمونه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحابته اجمعين .

حضر لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين حجة الله على الخلق اجمعين وارث علوم الانبياء والمرسلين قاضي القضاة علاء الدين مفتي المسلمين أوحد العالمين صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين أبا الحسن علي بن سيدنا ومولانا قاضي القضاة مفتي المسلمين مفيد الطالبين أوحد العلماء والمدرسين ولي أمير المؤمنين المرحوم ابي بكر محمد القاضي بمدينة دمشق الشام واعمالها أدام الله تعالى تأييده حضرة أمير الامراء الكرام وكبير الكبرا الفخام ذو القدر والاحترام صاحب الخيرات والمبرات رافع الكرب والمضرات أبو الفقراء والمساكين قائد جيوش المسلمين المحفوف بعناية الملك المعين أمين مولانا وسيدنا سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي كافل ولاية دمشق الشام أيد الله أيامه وختم بالصالحات أعماله بحق محمد وآله . وأحضر معه مفخر العلماء والمدرسين قدوة الفقهاء والمحدثين السيد الجليل الشريف الحسيب النسيب فرع الشجرة الطاهرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية النبوية وغصن الدوحة التهامية المصطفوية ذا الحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر مولانا وسيدنا السيد حسين بن المرحوم السيد الجليل شيخ الاسلام والمسلمين وصدر المدرسين السيد موسى بن المرحوم السيد الجليل الشريف شيخ الشيوخ والمحدثين السيد علي الحسيني زاد الله تعالى شرفه عظما وهو الامير على السادة الاشراف، ونقده وحكم بصحته واوقعه على وجه مولانا شيخ الاسلام والمسلمين تقي الدين ابو بكر ابن الشيخ محمد المتولي على وقف جامع المرحوم تنكز الواقف المشار اليه بالالتماس الشرعي من مولانا السيد حسين المتولي المشار اليه أعلاه ، مؤرخ أواسط شهر المحرم الحرام سنة اثنين وستين وسبعماية ومتصل بشهادة الشيخ حسن ابن الشيخ محمد وبشهادة الشيخ عمر بن الحاج عبد الله جميع ما نسبب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين عبد الله محمد قاضي القضا بدمشق من الاتصال والحكم والايقاع وسائر ما نسب من الاتصال اليه لمولانا شيخ الاسلام قاضي القضاة صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين ابي العباس أحمد بن المرحوم شيخ الاسلام شمس الدين محمد القاضي بدمشق الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من مفخر السادة الاشراف الكرام السيد الشريف علاء الدين علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين السيد حسين المشار اليه أعلاه مؤرخ في أواخر شهر شعبان سنة تسعين وسبعماية ومتصل بشهادة الشيخ علي بن الشيخ أحمد المالكي وبشهادة الشيخ ابراهيم ابن الشيخ عبد الله جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا قاضي القضاة صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن المرحوم شيخ الاسلام شمس الدين محمد القاضي بدمشق من الاتصال والتنفيذ والحكم والابقاء ، وساير ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام قدوة القضاة والحكام ينبوع الفضل والكلام أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العارف ابراهيم الحسيني الحاكم يومئذ ببعلبك ، الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من مولانا

وسيدنا شيخ الاسلام السيد الجليل الشريف علاي الدين علي ابن المرحوم شيخ الاسلام السيد الشريف حسين المتولي على الوقف المرقوم المشار اليه مؤرخ في أوائل شهر رجب سنة خمسة وعشرون (كذا) وثمانماية ومتصل بشهادة الشيخ محمد ابن الشيخ عمر البوني وبشهادة الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد الحافظ جميع ما نسب لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام قدوة القضاة والحكام ينبوع الفضل والكلام أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العارف ابراهيم الحسيني الحاكم بمدينة بعلبك من الاتصال والحكم والتنفيذ وساير ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين أوحد العالمين صدر المدرسين أبي الوفاء شمس الدين محمد ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبو (كذا) المواهب نور الدين القاضي بدمشق الشام الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من فخر السادة الاشراف الكرام السيد الشريف محمد ابن المرحوم السيد الشريف علي الوصي الشرعي على الطفل القاصر السيد الشريف علي بن المرحوم شيخ الاسلام السيد الجليل نقيب السادة الاشراف علي ابن المرحوم السيد الشريف حسين المشار اليه المنحصر به التولية والنظر على هذا الوقف الاقتضاء الشرعي . واذن مولانا الحاكم للسيد المزبور ان يتعاطى مصالح الوقف المزبور إلى حين رشد السيد علوان المزبور ، وذلك حسب ما أوصى به والده رحمه الله تعالى اتصالا وتنفيذا واذنا مقبولات شرعا ، مؤرخ في الخامس من شهر ربيع الاخر سنة خمسة وخمسين وثمانماية ومتصل بشهادة الشيخ عبد الغني ابن الشيخ محمود بشهادة الشيخ علي ابن الشيخ عز الدين جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبي الوفا شمس الدين محمد بن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبي المواهب نور الدين القاضي بدمشق الشام من الاتصال والاذن والتنفيذ وسائر مانسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين أوحد العلماء والمدرسين أبي الفضل علاي الدين ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين أبي المكارم خير الدين القاضي بدمشق الشام الاتصال الشرعي . أوقعه على وجه الشيخ حسن ابن الشيخ محمد الخطيب ايقاعا شرعيا بالتماس شرعي من مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين السيد الشريف علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين السيد الشريف حسين الحسيني المتولي على الوقف المزبور حسب ما هو مشروط له فيه ومنعه من الاحداث على الوقف والطلب والتعرض له عملا بشرط الواقف المزبور مؤرخ في يوم الخميس الثاني عشر من شهر الحجة الحرام سنة خمس وسبعين وثمان مائة وهو آخر ما وجد فيه من الاتصالات والتقاييد . وفي ادناه رسم شهادة تسعة انفار الاول ما قراته (١٩٩) شهد بذلك العبد الفقير محمد بن علي الثاني ما قراته شهد بذلك افقر الورى محمد الحسيني والثالث ما قراته شهد بذلك الفقير عمر العدوي والرابع ما قراته شهد بذلك العبد الضعيف علي

الشاكي والخامس ما قرأته شهد بما فيه شمس الدين الشاكي والسادس ما قراته شهد بذلك الفقير حسن البصري والسابع ما قراته شهد بذلك ابراهيم الوفاء والثامن ما قراته شهد بذلك العبد الضعيف علي الانطاكي والتاسع ما قراته شهد محمد العدوي وقوبل على اصله حرف بحرف وكلمة كلمة وانصال بعد انصال ، المقابلة الشرعية وثبت مقابلة لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام الامر بنقله الثبوت الشرعي بشهادة شهود آخرة ، ثم اتصل بشهادة المذكورين سيدي الشيخ عمر العدوي والشيخ شمس الدين الشاكي والشيخ محمد العدوي لطف الله تعالى بهم وبالمسلمين جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين أوحد العلماء والمدرسين ابي الفضل علاء الدين بن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين وقدوة الفقهاء والمحدثين أبي المكارم خير الدين القاضي بدمشق الشام سابقا رحمه الله تعالى من الاتصال والحكم والتنفيذ والايقاع والمنع وساير ما نسبب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين حجة الله على الخلق أجمعين وارث علوم الانبياء والمرسلين المحفوف بعناية الملك المعين أبي المناقب شمس الدين محمد ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين طاهر ، الاذن بنقلها المشار اليه أعلاه الاتصال الشرعي .

فعند ذلك عين مولانا الامير محمد الواقف المشار اليه اعلاه ان يكون جملة هذا الوقف مشاعا وان يصرف على عمارة النبي نوح عليه السلام وعلى عمارة أماكنه وعلى عمارة أوقافه والقرار فيها وما فيه التماس المزيد في الوقف . ثم على تنويره وفرشه ثم على مطبخه في ثلاثة اشهر شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان المعظم واطعام العبدين والواردين والمنقطعين، ثم على المتولي والناظر عليه ثم على خدامه وارباب شعايره حيث انه لايزاد ولايحدث على الوظايف الآتي ذكرها وهي : امام وخطيب والمؤذنين وقيم وتربدار وكاتب وجابي ومن يتعاطى مصالح المطبخ والطبخ ولوازمه ومن يخدم الاسمطة والماء وذلك كله يكون تبعا للمتولي والناظر المزبور ينصب لذلك من يختاره ويرضاه ويصرف ذلك بحسب ما يراه مفوض في ذلك حسب ما عينه الواقف المشار اليه . ثم أشرط التولية والنظر على وقفه لمولانا وسيدنا السيد الشريف علوان ابن المرحوم السيد الشريف علي ابن المرحوم السيد الشريف حسين الحسيني المشار اليه اعلاه ، ثم من بعد لاولاده وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده واعقابه وانساله ابدا ما داموا ودايما ما بقوا للارشد في الارشد منهم وعلى أن لاتوجه خدمة ولا وظيفة الا لمن يرضاه المتولي منهم وان لاتزاد على هذه الوظايف المذكورات ولا يحدث عليها ، وعلى أن وقفه لايؤجر لمتغلب ولا لذوي شوكة بل يؤجر سنة بسنة لمن يرضاه المتولي المزبور وان فضل شيء

عـن ذلـك فللمتولـي المزبـور ان خـاس ؟ في سنـة مـن السنيـن عن المصروفات المزبـورة فليستديـن المتولـي علـى المستقبـل بحسـب ما يـراه . وان وقفـه لا يداخله حاكم ولا محاسب فيمحاسبة او في توجيه وظيفة بل انـه مفوض الـى راي المتولي المزبور او الى راي من يكون من ذريته بالتفويض الشرعي وتفويضا شرعيين في ذلك كذلك ومن بدله اوتعداه فعليه لعنة الله ثم لعنة الله ثم لعنة الله والملايكه والناس اجمعين « فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه »(٩٠) « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد »(٩١) .

وجرى ذلك بحضور الحاج عبد القادر بن كحيل والحاج محمد ابن الشيخ عراق بالصنهاجي(؟) وبحضور الآخرين هما عواد بيك وعلي بيك أولاد المرحوم الامير محمد عم الواقف المشار اليه وصدقوا على صحة هذا الوقف وشروطه وانه صدار فعله (؟) في محله . وقبل منهم ذلك السيد علوان المتولي المشار اليه القبول الشرعي وتصادقوا على ذلك كله التصادق الشرعي تحريرا في اليوم المبارك الثاني عشرين شهر رجيب الفرد سنة خمس وتسعماية (سنة ٩٥٠ / ١٥٤٣ م) وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآلـه وصحبـه وسلـم .

وبه شهد علي مولانا الواقف بما صدر لـدى الحاكم علـي بن محمـد الحسيني

وبه شهد مولانا الشيخ شمس الدين محمـد محمد العدوي	محمد حمزه الحسيني
علي بـن يوسف	الامير حسين بن الحرفوش
المقدم علي بيدمـر	الشيخ عدي بن عمر شيخ قريـة بـر الياس
عمر الخطيب بقرية المـرج علي بن شمس الدين الخطيب	الشيخ محمد بن الشيخ علي البقاعي
محمد بن نور الدين من افقر الورى	الشيخ محمد القاضي شيخ قرية المرج فخر الدين السمداوي
محي الدين عثمان العباسي	

الحكم السلطاني الشريف

رقم ١٤٨٧ تاريخ ١٧ صفر سنة ٩٧٨ هـ / ١١ تموز ١٥٧١ م

من دفتر المهمة رقم ١٤ ، ص ١٠٠٠

حكم الى أمير أمراء الشام وقاضيها ودفتردارها :

بناء على دفتر القضايا الذي أرسلته الى سدتنا السعيدة (سدة سعادتنا) بصفتك دفتردار والذي تذكر فيه أن المقدم المدعو محمد بن حنش ملتزم مقاطعة خواص كرك نوح والشوف في ولاية الشام سابقا الذي كان بذمته ١٣٣٣٤ قطعة ذهبية قد ادى الى الشام في زمن أمير أمراء الشام (السابق) مراد دام اقباله (وامن) ثلاثة ــ أربعة آلاف قطعة ذهبية لاجل تسليمها . الا أن أمير أمراء المذكور سجنه في المدينة في تلك الاثناء وقتله بدعوى عصيانه (تمرده) . كما تذكر بأن المباشرين الذين كانوا معه قد بلعوا (أكلوا) وكتموا الاموال والارزاق وما كان سيسلم الى الخزينة من نقود ولم يسلم أقجة واحدة للخزينة وبقيت هذه النقود بدون تسليم .

والان فقد أمرنا :

عند وصوله ،**عليك**بالتفتيش شخصيا وبشكل محكم وذلك بمقتضى الشرع الشريف على النقود الموجودة في ذمة المذكور الذي مات قبل تسليمها . واذا كان المباشرون قد نهبوها فعليك بتحصيل واخذ المبالغ والاموال الميرية دون نقص من أي شخص تكون في يديه . وعليك أيها الدفتردار بقبض المال الميري وضبطه واعلامنا عن مقدار المال الميري الموجود في ذمة مراد دام اقباله لتطلب منه .

الحواشي :

(١) انظر شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري(ت ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م) ، التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة ، القاهرة ، ١٣١٢ ، ص ١٧٩، وانظر ايضا احمد بن علي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م) ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، ١٤م، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية،وزارةالثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٣م،٤م،ص ١٠٨ – ١١١ .

(٢) القلقشندي ، المصدر نفسه ، م٤ ، ص ٢٠١ .

(٣) راجع مقالة :

Francis Hours, S.J. and Kamal Salibi, «Muhammad Ib al-Hanas Muqa-ddam de la Biqa, «1499-1518» Melanges De l'Universite Saint-Jouseph, Fasc. 1. Tome XIII (1968) pp. 3-23.

(٤) ولاه الظاهر برقوق نيابة السلطة بملطية سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م ، فجمع حوله التركمان واظهر العصيان ، التف حوله عدد من امراء المماليك البحرية ، وعناصر العشير وخاصة عشائر نعير ، عاث ببلاد الشام الى أن تم القضاء عليه بمكيدة سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م ، حول حياته راجع شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٥ م ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، م ٥ ، ص ١٣٤ – ١٣٦ . راجع ايضا علاء الدين علي ابن خطيب الناصرية الحلبي ، (١٤٣٨/٨٤٢ م) الدر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب ، رقم ١٢١٢ ، م ١ ، ورقة ١٩٩ (ب) أو صفحة ٣٤٥ وما بعد .

(٥) سيف الدين يلبغا الناصري : تولى نيابة حلب في أول دولة الصالح حاجي بن الاشرف ، وبنى في حلب جامعا ، عزله برقوق وسجنه بالاسكندرية واعاده الى حلب سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٩ م ، شارك منطاش في حركته ثم اختلف مع منطاش ، وتصالح مع برقوق ، حول حياته راجع ابن حجر ، المصدر نفسه ، م ٥ ، ص ٢١٥ – ٢١٨ . لمزيد من المعلومات عن حياة يلبغا راجع ايضا علاء الدين علي بن خطيب الناصرية الحلبي الدر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب ، رقم ١٢١٢ ، م٢ ، ص ٤٢٨ .

(٦) ابن تغري بردى ، جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، م ١١ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، لا . ت . ص ٣٢٧ وما بعد .

(٧) حول حركة منطاش راجع محمد بن صصرى ت اواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ؟) ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، نشره مع ترجمة انكليزية له William M. Brinner ٢ م ، جامعة كاليفورنيا ١٩٦٣ ، م١ ص ١٣٩من النص العربي ، كذلك راجع اخبار هذه الحركة لدى تقي الدين أحمد بن علي ، المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الثالث ، القسم الثاني ، حققه سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، اخبار ٧٨٩ هـ/

١٣٨٧ م وما بعد ، في ص ٥٦٧ وما بعد ، كذلك راجع جمال الدين يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة في دول ملوك مصر والقاهرة ، م ١١ ، وم ١٢ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، م ١١ ، ص ٣١٩ – وما بعد ، م ١٢ ، ص ١ – ، كذلك راجع ابن صصري ، المصدر نفسه ، م ١ ، ص ٧ .

(٨) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، م ١ ، ص ٧ .

(٩) راجع ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ص٢٨٩ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ وما بعد .

(١٠) راجع صالح بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ/١٤٣٩م) تاريخ بيروت : أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت ، حققه فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٥ ، الخبر يرد مفصلا بشكل اوسع لدى اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤) ، تاريخ الازمنة ، تحقيق الاب فردناند توتل اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

(١١) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ق٢ ، ص٦٧٣ ، ابن تغري بردى ، المصدر نفسه م١١ ، ص ٣٦٠ – ٣٦١ ، ص ٣٦٣ ، ص ٣٦٥ .

(١٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦٩٢ – ٦٩٥ .

(١٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٦٩٥ ، ابن تغري بردى ، المصدر نفسه ، م ١١ ، ص ٣٧١ .

(١٤) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ٥٧ .

(١٥) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(١٦) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٧ – ٥٨ .

(١٧) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١٨) ابن صصرى ، المصدر والمكان نفسهما .

(١٩) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ – ٩٠ .

(٢٠) نعير بن حيار بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن نافع بن حديثة بن غضية بن فضل بن ربيعة الامير شمس الدين ، أمير آل مهنا بالشام ، كان أميرا مهيبا ولي امرة العرب مدة سنين. كانت معظم اقامته بسلمية. قتله نائب حلب في شوال سنة ٨٠٨ هـ / آذار ١٤٠٦ م ، وبموته انكسرت شوكة آل فضل وولي الامرة من بعده ابنه العجل ، راجع عنه الترجمة الوافية لدى ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، م٢ ، ص ٢٣٣ – ٢٣٦ ، وراجع ترجمته لدى شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، ١٢ م نسخة مصورة منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لا . ت م٩ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ ، راجع ايضا مصطفى الحياري ، الامارة الطائية في بلاد الشام ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٧٦ – ٧٨ .

(٢١) كانت كلا من قريتي عذرا وضمير من ناحية المرج وتفيدنا احصاءات دفاتر الطابو عن سكان تلك القريتين انهما كانتا على النحو التالي :

	(ط . د ٤٠١)			(ط . د ٢٦٣)			(ط . د ٤٧٤)		
	خانة	مجرد	امام	خانة	مجرد	امام	خانة	مجرد	امام
ا ـ قرية ضمير	٢٠٠	٩	١	٢٥١	—	١	١٧٥	—	—
ب ـ قرية عذرا	١٥٦	٤	١	١٩٩	—	١	١٣٦	٣٢	٢
	ص ٨٥ ـ ٩٢			ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧ ، ٥٢٨ ـ ٥٣٠			ص ٥٦٥ ـ ٥٦٧		

(٢٢) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٢٣) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٢٤) صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٢٥) صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٢٦) اسطفان الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٠٨ ، انظر أيضا كمال سليمان الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٢ .

(٢٧) شمس الدين محمد بن طولون ، (ت ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، م٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤ ، م١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٢٨) ابن طولون ، مفاكهة الخلان م١ ، ص ٢١٢ ، انظر أيضا : اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٩٥ ـ ١٩٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ، م١ ، ص ٩٣ .

(٣٠) كانت قرية قب الياس في القرن السادس عشر تابعة لناحية قورنه من سنجق (لواء) الشام ، وكان تعداد سكانها على النحو التالي

	(ح ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ط . د ٣٤٠	(ح ٩٢٧ هـ/١٥٣٠ م) ط . د ٣٨٣	(ح ٩٥٠ هـ/١٥٤٣ م) ط . د ٤٠١	(٩٧٧ هـ/١٥٦٩ م) ط . د ٤٧٤
خانة	٨٥	١٣٥	١٤٠	١٢٠
مجرد	٢٢	١٥	٦٥	—
امام	١	٢	٢	—
اعمى	١	—	—	—
	ص ١٤٦	ص ١٧٩	ص ٢٤٧	ص ٢٩٨ — ٣٠٠

(٣١) حول قرية زنتون راجع القائمة المرفقة لفهارس قرى كرك نوح . رقم ٢٢ .

(٣٢) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ١١٤ — ٢١٥ ، اعلام ، ص ٩٥ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣٣) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٢٤ ، أعلام ، ص ١٠١ .

(٣٤) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٤٥ .

(٣٥) ابن طولون ، أعلام ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٩ .

(٣٦) ابن طدلون ، أعلام ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٩ .

(٣٧) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٦١ ، الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٤٥ ، لاحظ ان الدويهي يجعل تاريخ خروج والي دمشق قانصوة المحمـوي سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ، اما قرية مشفرا في القرن السادس عشر فكانت تابعة لناحية شوف البياض وكانت احصاءات سكانها على النحو التالي :

	ط . د ٤٣٠ ص ٢١٣	ط . د ٣٨٣ ص ٦٣١	ط . د ٤٠١ ص ٢٨٢ — ٢٨٤	ط . د ٤٧٤ ص ٩١٧
خانة	٨٣	٣٨٩	٤٠٨	٢٧٣
مجرد	٧	٢٦	٢	٢٣
امام وخطيب	٢	٢	٢	١

(٣٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٣٩) شيحين : تقع الى الجنوب الشرقي من صور وعلى بعد ٢٠ كم . وكانت في العهد المملوكي جزءا من ولاية صور . اما في العهد العثماني فكانت تابعة لناحية تبنين من لواء صفد ، راجع طه الطراونة ، مملكة صفد في عهد المماليك ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٣ ، راجع ايضا

Harold Rhode, **The Administration and population of the Sancak of Safad in the sixteenth century,** ph.D. Thesis, Columbia University, 1979.pp.77:

حول اصل اسرة بشارة ودورها في تاريخ جبل عامل كاسرة شيعية متنفذة منذ مطلع العهد البرجي في بلاد الشام ، راجع طه الطراونة ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ - ٢٢٤ .

(٤٠) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٢٦ .

(٤١) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ١٧٧ ، ٢٧٨ ، اعلام ، ص ١٦٣ .

(٤٢) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٦٧ .

(٤٣) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، اعلام ، ص ١٧٧ ، حول حياة جان بردي بن عبد الله الغزالي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) راجع الغزي ، الكواكب ، م١ ، ص ١٦٨ - ١٧١ . اما قبة يلبغا اليحياوي او قبة الحاج ، الواقعة بقرب قرية القدم جنوبي دمشق فكانت محطة لاستقبال الحجاج وكبار المسؤولين ، بنيت في عهد والي الشام يلبغا اليحياوي ٧٤٦ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٧ م ، راجع :

M.A. Bakhit. **The Ottoman Province of Damascus,** p. 113:

(٤٤) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٣٠٤ ، اعلام ، ص ١٨٣ ، حول حياة سيباي امير امراء دمشق لرتين ونائب حلب سابقا ، راجع اعلام ، ص ١٧٥ وما بعد .

(٤٥) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٣٠٥ .

(٤٦) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٩٨ .

(٤٧) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ١٩ .

(٤٩) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٢٦ .

(٥٠) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، م٢ ، ص ٣٢ . لم اتبين ما المقصود « بذخيرة ابن السلطان » فمن المعروف ان خط ابن طولون دقيق وان محقق المفاكهة قد اخطأ في اكثر من مكان في قراءة النص .

(٥١) حول دور وتاريخ هذه الاسرة راجع عدنان البخيت ، « الاسرة الحارثية في مرج بني عامر ، ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م - ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م » ، الابحاث ، م ٢٨ ، ص ٥٥ - ٧٨ .

(٥٢) انظر ابن طولون كما اورده محمد بن عيسى بن محمود بن كنان الدمشقي الصالحي (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠ م) ، في كتابه : حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين الذي نشر محمد احمد دهمان جزءا منه ملحقا لكتاب ابن طولون اعلام الوري ، ص ٢٩٠ .

(٥٣) هذه الرسالة محفوظة بمكتبة طوب قبو تحت رقم ٦٣٤١ وتجد ترجمة لها ملحقة بهذه الدراسة . والجدير بالذكر ان السلطان سليم كان قد غادر القاهرة يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ / ١٠

ايلول١٥١٧م .انظر محمدبن احمدبن اياس الحنفي ، (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٥ م ، حققه محمد مصطفى ، م ٥ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ . اما موسى التركماني فهو على الاغلب الشخص الذي تذكره دفاتر الطابو ، والذي عهدت اليه الدولة العثمانية في مطلع عهدها بلاد كسروان . راجع :

M.A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, p:176:

(٥٤) يونس باشا : احد وزراء السلطان سليم ، تسلم مدينة دمشق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . كما ارسله السلطان سليم لمطاردة ابن ساعد الغزاوي بمنطقة عجلون . شارك في فتح مصر حيث يذكره ابن اياس بقوله : ((وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع التراكمة وكان قرره اولا في ان يكون نائبا عنه بمصر ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك في النيابة وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء)) قتله السلطان سليم في شعبان وهو في طريقه الى بلاد الشام في الخطارة واخذت امواله التي كانت بدمشق للسطان سليم . انظر ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٤٣ – ٤٥، ص ٦٧ ، ابن اياس ، بدائع ، م ٥ ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٥٥) على الاغلب يقصد بذلك شهاب الدين احمد بن يخشى اوغلو ، تولى دمشق في رمضان سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م ، سكن في منزل سنطباي بدمشق ، يذكر الشيخ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ/١٥٢٠م) انه كان قد زاره في خيمته شمالي مصلى العيدين ((فراه محتشما وروى له عدة احاديث)) عزله السلطان سليم في شوال سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م فسافر الى اسطنبول ، انظر ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٣٥ ، ص ٤٠ ، ص ٦٢ ، ص ٧٠ .

(٥٦) سنطباي - بدأ عمله في دمشق كنقيب لقلعتها ثم يذكر في اخبار سنة ٩١٧ هـ/١٥١١م ، انه كان يعمل نائبا لنفس القلعة ، ثم ترقى ليصبح سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م حاجب الحجاب وامير الحاج ويذكر انه اعيد ثانية لمنصب الحجوجية سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م ، واحتفظ بهذا المنصب الى حين انهزام المماليك . راجع ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٣٥٤ .

(٥٧) حول نص هذه الرسالة المحفوظة تحت رقم ٦٣٤١ راجع ترجمتها العربية الملحقة بهذه الدراسة .

(٥٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ١٦٢ .

(٥٩) ابن طولون ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، ٢م ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٦ ، م١ ، ص ٢٧١ .

(٦٠) محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الدمشقي (٨٧٨ هـ/١٤٧٣ م – ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م) من اقطاب الصوفية في بلاد الشام ، رابط ببيروت وتوفي بمكة . حول حياته راجع نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة ، م١ ، ص ٥٩ – ٦٨ .

(٦١) انظر ترجمة الرسالة في الملحق .

(٦٢) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٧٧ ، ص ٧٩ ، اعلام ، ص ٢٢٦ .

(٦٣) راجع نص الرسالة وهي ركيكة اللغة ، وبخط سيء جدا ومشوش ، تحت رقم ١٠٧٣٤ من محفوظات طوب قبو وملحقة بهذه الدراسة .

(٦٤) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٦٥) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٢٣ .

(٦٦) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٣٣ .

(٦٧) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٣٦ .

(٦٨) حول حياة الامير منصور بن عساف (ت ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م) راجع
M. A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, pp. 176-9.

كذلك انظر الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٦٩) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٥٤ ، ٢٨١ .

(٧٠) انظر T.D 543 ، ص ٥٣٧ – ٥٣٨ ، والجدير بالذكر انه بموجب T.D. 177 تاريخه ١٠٠٥هـ/١٥٩٦ م ان هذه القرية خصصت لكيوان بن عبد الله وشخص اخر باسم حسن عبد الله ، ٢٤١، راجع قائمة قرى كرك نوح المرفقة .

(٧١) راجع ترجمة الحكم المرفقة بهذه الدراسة .

(٧٢) الاخبار عن هذه الاسرة في حمص عبارة عن اخبار شخصية من زواج وطهور وما الى ذلك ، انظر مخطوط محمد مكي بن السيد : مذكرات احد ابناء حمص ١١٠٠ – ١١٣٥ هـ/١٦٨٨ – ١٧٢٢ م، الجامعة الامريكية ببيروت ، المحفوظة تحت رقم T 181/956.9 ، ص ٣١٥ ، ص ٣٥٣ ، ص ٤٠٧، ص ٤١٤ – ٤١٥، ولقد قام عمر العمر،بتحقيق هذا المخطوط كجزء من رسالته للماجستير تقدم بها لقسم التاريخ بجامعة دمشق سنة ١٩٧٦ ، ص ١٣١ ، ٣٦٤ ، ٤١٤ .

(٧٣) انظر على سبيل المثال محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ هـ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م ، دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، ٢٣٩ – ٩٢٢ هـ/٨٥٣ – ١٥١٦ م منشورات المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨١ . انظر ايضا مقالة محمد محمد امين ، « الشاهد العدل في الشرع الاسلامي : دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق اسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك » الدارة ، عدد ٢ ، م٨ ، (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م) ، ص ١٢٦ – ١٥٧ .

(٧٤) انظر كتاب الوزير لالا مصطفى باشا ويليه كتاب وقف فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الاشرف قانصوه الغوري ، حققه خليل مردم بك ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٢٥ ، وقف سنان باشا (ت ١٠٠٤ هـ/١٥٩٥ م) دمشق . لا . ت . ، اوقاف واملاك المسلمين في فلسطين في الوية غزة ، القدس الشريف ، صفد ، نابلس ، عجلون حسب الدفتر ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري ، تحقيق محمد ابشرلي ومحمد داود التميمي ، استانبول ، ١٩٨٢ .

(٧٥) راجع كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، ص ٧٩ – ٨٤ .

(78)* B. Lewis, « Studies in the Ottoman Archives » Nazareth in the Sixteenth Century According to the Ottoman Tapu Registers ». « Jafa in the 16th Century, According to the Ottoman Tahrir Registers. « Notes and Documents From the Turkish Archives: A Contribution to the History of the Jews in the Ottoman Empire.»

وهذه المقالات جمعت ونشرت معا مع دراسات اخرى تحت عنوان :

Studies in Classical and Ottoman Islam (7th - 16th Centuries».
Variorum Reprints, London. 1976.

وانظـر ايضـا

Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, **Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in 16th Century,** Erlangen. 1977.

وانظـر ايضـا

Amnon Cohen & Bernard Lewis.
Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton University Press, 1978.

ففي هذه الدراسات مادة وافية عن الضرائب يمكن الرجوع اليها من اجل استيضاح ما جاء في الجداول المرافقة .

(٧٩) آية رقم ٢٦١/٢ من سورة البقرة .

(٨٠) « لا يضيع اجر المحسنين » ذكرت ثلاث مرات في القران الكريم ، في اية ١٢٠ من سورة التوبة ، في اية ١١٥ من سورة هود ، وفي اية رقم ٩٠ من سورة يوسف .

(٨١) لم اعثر له على ترجمة .

(٨٢) السيد علوان لم اعثر له على ترجمة .

(٨٣) حول مقام النبي نوح في كرك البقاع انظر علي بن ابي بكر الهروي (ت ٦١١ هـ/١٢١٤ م) كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، نشرته جانـين سورديل – طومين، دمشق، ١٩٥٣، ص ١٠ ، وانظر تفاصيل اكثر لدى الشيخ عبد الغني النابلسي (١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م) ، حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المعهد الالماني للابحاث الشرقية ، بيروت ، ١٩٧٩، ص ٩٢ – ٩٤ ، نشرت الرحلة مع رحلة العطيفي باسم رحلتان الى لبنان .

(٨٤) حول الطواحين على نهر البردون راجع كشف أسماء القرى والمزارع وقطع الاراضي واصناف الضرائب في الجدول المرفق .

(٨٥) حول تربل راجع جدول اسماء القرى قرية رقم (١٢) ، انظر ايضا عفيف بطرس مرهج ، اعــرف لبنان ، موسوعة المدن والقرى اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ ، م٣ ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٢ .

(٨٦) حول الفرزن راجع كشوف اسماء القرى رقم ٣٠، انظر عفيف مرهج،المرجع نفسه. م٨،ص٧٠ــ٧٢.

(٨٧) حول رعيث راجع كشوف اسماء القرى رقم (٣) .

(٨٨) حول حشمش راجع كشوف اسماء القرى رقم (١٨) .

(٨٩) تنكز ، ابو سعيد سيف الدين تنكز الحسامي (ت ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م) ، ولي نيابة دمشق سنــة ٧١٢ هـ/١٣١٢ م ــ ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م ، كان صاحب نفوذ كبير لدى السلطان الناصر محمد ،وشهد كلا من معركتي وادي الخازندار ومعركة شقحب، والذي يهمنا هو انه كان وراء بناء وتجديد عــدد من المساجد والمدارس والترب اوقف عليها عددا من القرى وقطع الاراضي والمزارع . كما انه وسع الطرقات وجدد القنوات ، صادره السلطان سنة ٧٤٠ هـ/١٣٤٠ م . تذكر المصادر املاكه في دمشق وحمص وبيروت والبقاع وبقارا بالتفاصيل اما فيما يتعلق باملاكه في كل من صفد وعجلون والقدس ونابلس والرملة وجلجولية والديار المصرية فلم تفصلها . حول حياته راجع محمد بن شاكر الكتبي ، (ت ٧٦٤ هـ/١٢٦٢ م) ، فوات الوفيات والذيل عليها ، م٤ تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، م١ ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٨ ، انظر أيضا شهاب الدين أحمد بن حجــر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، ٥ م ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، م٢ ، ص ٥٥ ــ ٦٢ ، راجع أيضا حياة ناصر الحجي ، « الامير تنكز الحسامي نائب الشام » من منشورات حوليات كلية الاداب ، جامعة الكويت ، ١٩٨٠ م .

(٩٠) اية رقم ١٨١ من سورة البقرة .

(٩١) اية رقم ٣٠ من سورة ال عمران .

★ ★ ★

تطور مفهوم اللامركزية
عند العرب العثمانيين
١٩٠٠ - ١٩١٨م

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الاردنية

لمحة تاريخيــة :

ان سنة ١٩٠٢ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة فـي تاريخ الامبراطورية العثمانية هي مرحلة تبلور ((مفهوم اللامركزية)) ، والمطالبة بتطبيق ((اللامركزية)) في مواجهة ((المركزية الشديدة)) التي كانت تطبقها الدولة العثمانية في ارجاء الامبراطورية .

وطرح مصطلح ((عدم مركزيــت)) او اللامركزية لاول مـرة في مؤتمـر الاحـرار العثمانيين الذي عقد في باريس في هذه السنة ايضا (١٩٠٢) ، اما تعريف اللامركزيـة فهي تعني من الناحية الاجتماعية : رد الاشياء الى نصابها الطبيعـي ... وتعني مـن الناحية السياسية : توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة التي يتالف منها الجسم السياسي ـ الاجتماعي ، عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي ، ليتيسر لكل جـزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم ، مع حفظ الصلة بالمركز حرصا علـى مصلحة الكـل .

لقد كان تبلور هذا المفهوم اللامركزي وليد حركة طويلة المدى ، يتطلب البحـث العلمي مواكبتها طيلة القرن التاسع عشر ، على الاقل ، باعتبار أن هـذا القـرن كلـه وحدة متكاملة ، ذلك ان الاحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية ، تكون في هذا القرن مرحلة خاصة ومتميزة من مراحل تاريخ الامبراطورية العثمانية .

لقد شهد هذا القرن منذ بدايته وحتى نهايته ، سلسلة متماسكة الحلقـات مـن الصراعات والتناقضات ، نتجت عن تفاعل ثلاث حركات تاريخية ضخمة ، تعد بمثابـة السمات الرئيسية لهذا القرن وهي :

القي هذا البحث في اليوم العلمي لكلية الاداب، الذي اقيم في الجامعة الاردنية بتاريخ ١٩ نيسان١٩٨٣

أولا : حركة اليقظة القومية ، عند الاقوام التي تتكون منها الامة العثمانية .

ثانيا : حركة الراسمالية الاوربية النامية والغازية وتطورها السريع الى حركة استعمارية تبحث لاهثة عن المواد الخام والاسواق لتستغل الثروات الطبيعية والبشرية اسوأ استغلال .

ثالثا : حركة محاولة اصلاح الامبراطورية العثمانية واوضاعها ، مع محاولة تقوية السيطرة المركزية للدولة ، وخاصة على المنطقة العربية .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية بدأت تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغير والتمرد في انحاء الامبراطورية ، كما بدأت تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، من مدارس وصحف ومطابع وتأسيس جمعيات . . . الخ . وقد تفاعلت تلك الحركات الثلاث كعوامل اساسية مع عوامل اتساع الثقافة وازدياد وسائل انتشارها .

واخذت ارجاء الامبراطورية منذ مطلع القرن التاسع عشر – بل قبل ذلك – تموج بأفكار وتيارات تعبر عن التمرد على الوضع في الامبراطورية بجميع معانيه من – استبداد وتسلط وتخلف وجمود – وبصفة خاصة بلاد الوطن العربي ، ومهما كانت الصيغ والشعارات التي ارتفعت في ربوع الامبراطورية ، اصلاحية كانت أو ثورية ، فان جوهر هذه الصيغ والشعارات والتحركات كان يدور حول مشكلة الاستبداد والتسلط ، وحول حقوق القوميات والتشبث بالمساواة في الحقوق السياسية ، اي حول مفهوم اللامركزية وتطبيقه ، مهما اختلفت الاسماء .

وكانت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية أشد هذه التيارات واعنفها ، وبالرغم من انها حركة دينية ، الا انها في الوقت نفسه كانت ذات مضمون قومي – سياسي – لا مركزي .

وكان من بين هذه التيارات ، تيارات تتحدى سيطرة الامبراطورية وتسعى للاستقلال عن الباب العالي ، حتى لو أبقت على خيط رفيع من التبعية الشكلية للخليفة أمير المؤمنين ، ولعل حركة محمد علي واصلاحاته في مصر ابرز مثل على تلك التيارات، خاصة بعد اعلان الحرب على سورية ووصوله الى كوتاهيه مهددا عاصمة الخلافة .

وكان ثمة تيارات لاتنادي بالاستقلال عن الدولة او الانفصال عنها ولكنها تطالب بالاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الدستوري ، ومثال ذلك التيار الذي تبلور في وضع نظام اداري خاص للبنان بعد حوادث سنة ١٨٦٠ فمنحه كثيرا من الامتيازات .

وثمة تيارات اخرى كانت تنكر حق السلطان العثماني في الخلافة الاسلامية وامارة المؤمنين ، كالتيار الذي قام في اليمن ، فقد أنكر الائمة الزيديون على آل عثمان التلقب بلقب أمير المؤمنين ، وتمادوا في تحديهم بأن اطلقوا اللقب على أئمتهم ، ايمانا منهم بأن الخلافة لقرشي عامة ولزيدي بصورة خاصة .

وقد بدا سلاطين آل عثمان مع مطلع القرن التاسع عشر ، يخشون النتائج السياسية التي قد تنشأ عن حركة الاصلاح في العقيدة ، وهي الحركة الوهابية ، والنتائج السياسية التي تنبع عن حركة الاصلاح العلمية والعسكرية ... التي قام بها محمد علي في مصر ، ومما زاد في خطورة الحركتين المذكورتين ان مجالهما كان الولايات العربية ، وكان السلطان محمود قد ساورته الريب في موقف هذه الولايات عن الادارة المركزية ، فتمكن بسلسلة من التدابير ان يشدد قبضة الدولة على اطراف الامبراطورية بعد ان تمكن من الغاء الاستقلالات الذاتية والاقطاعيات ، وتمكن من ضرب القوتين الناشئتين احداهما بالاخرى ، حيث كلف محمد علي والي مصر ، بالقضاء على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية .

كما حاول السلطان محمود اصلاح الادارة والقضاء فأقدم على اختصار عدد الايالات ودمجها في اربع ايالات ــ بعد أن كان عددها ١٨ ايالة ــ ليتمكن من تطبيق سياسة مركزية قوية في البلاد ويضمن السيطرة على انحاء الامبراطورية .

ثم بدأ عهد التنظيمات في الامبراطورية باصدار مرسومين سلطانيين : سنة ١٨٥٦ . (خط كلخانه الهمايوني) سنة ١٨٣٩ ، و (منشور التنظيمات الخيرية) ثم صدرت عدة قوانين تنفيذا لاحكام هذا المنشور الاخير ، كان اهمها قانون الولايات الذي سنته الدولة في عهدالسلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٤ ، وحددت فيه صلاحيات كل من الولاة والمتصرفين والقائمقامين .

ولم يكتف طلبة الاصلاح من الشباب بمفهوم الاصلاح واجراءاته التي باشرها السلاطين فبدأت تنمو حركة المطالبة بالدستور بزعامة مدحت باشا . وقد لمس الاحرار العثمانيون اهمية العامل الاقتصادي والوضع الاجتماعي ، ناهيك عن الوضع

السياسي ، في الدولة العثمانية ، وأشار برنامج مدحت باشا الى أن : « التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق ، فان نظارة المالية ترسل الاموال الى السلطان الذي يصرفها في ملذاته » وأشار الى كيفية شراء الوظائف : « فالنظار يبيعون الوظائف بيع السلع ، فالوالي يشتري وظيفة من الصدر الاعظم ويذهب الى الولاية فيستغل اهلها بانواع الظلم حتى خربت الولايات » .. ثم يشير بيان مدحت باشا الى الحل وهو : « تبديل الادارة الحالية » ويطرح طريقة التبديل : « عن طريق انشاء مجلس نيابي وجعل النظار مسؤولين امامه وان يكون هذا المجلس مجلسا قوميا ، فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب وان يوضع في الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثوا بمصالح الرعية » .

ونادت حركة الاحرار العثمانيين بشكل عام : بتوسيع المأذونية ، وبأن الشورى هي الطريق الصحيح لحفظ الامبراطورية ، وان لا أمل للدولة العثمانية بحياة حرة شريفة الا باعلان الدستور .

وهكذا انفجر الصراع بين الاحرار العثمانيين وبين الحكومة العثمانية التي كانت تحاول جاهدة السيطرة على الامبراطورية المترامية الاطراف المتعددة القوميات . وكان الخط الواضح لسياستها هذه هو تشديد الحكم المركزي وتسخير ما تم من اصلاحات في هذه الفترة لتدعيم هذه السياسة المركزية .

وبالرغم من انتصار هذا الفريق الاصلاحي الذي تمكن من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش ومبايعة السلطان عبد الحميد ، وفرض اعلان الدستور سنة ١٨٧٦ ، الا أن الموقف تفجر من جديد عندما علق السلطان الدستور وأصبح الخط الواضح لسياسة الدولة العثمانية تشديد الحكم المركزي ، بعد ان ادرك السلطان عبد الحميد ان التطورات المحلية في أرجاء الامبراطورية ومنها ــ الوطن العربي ــ كانت تسير في اتجاه مناقض لمركزية الدولة العثمانية واصلاحاتها التي تمت لتدعيم هذه السياسة ، واحس ان رياح التمرد ضد « التسلط والاستبداد والتخلف » قد بدأت تهب في أرجاء الامبراطورية العثمانية .. فحاول السلطان عبد الحميد أن يستقطب التيارات السياسية والادارية والفكرية التي طرحت حول ضرورة الدستور وتوسيع المأذونية لصالح تجمع ديني تحت اسم الجامعة الاسلامية .

كان الفكر السياسي ــ والتيارات الفكرية عموما ــ قد تأثر بهذه الفعاليات التي واكبت الاحداث والحركات التاريخية التي أشرت الى ظهورها في القرن التاسع عشر ، فظهر عدد من المفكرين في أرجاء الامبراطورية ، أسهمت أفكارهم في نضج الوعي

السياسي ، وبالرغم من ان القاعدة الاساسية لانطلاقهم الفكري هي قاعدة دينية ، الا أن منطلقاتهم الفكرية كانت تدور حول مفاهيم وقيم اجتماعية وسياسية جديدة تدور حول واقع الامبراطورية ، وحول النظم السياسية للدولة على البعدين الداخلي والخارجي .

أما على الصعيد الداخلي ، فقد تطرقت أفكار هؤلاء الرواد الى النظم السياسية للدولة من زاوية موقف هذه النظم من الفرد وحقوقه وواجباته فيها ، وكيفية ادارة الولايات ، وتوسيع المأذونية ، وضرورة اعلان الدستور ، وضرورة تواجد اللغة المحلية للولاية الى جانب اللغة التركية في التعليم ...

وقد أشار عبد الرحمن الكواكبي صراحة ، في كتابه أم القرى ، الى أن الاسباب السياسية والادارية العثمانيين ، « وتمسك الدولة باصول الادارة المركزية مع بعد الاطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز على أحوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها » ، وهي من جملة الاسباب الكثيرة التي أدت لفتور المسلمين وتأخر الامبراطورية .. وبمعنى آخر ان عبد الرحمن الكواكبي وغيره ، قد طالب صراحة بتطبيق اللامركزية الادارية في الدولة العثمانية حتى تتمكن من التقدم وتقضي على الفتور ... بل أكثر من ذلك فقد طالب الكواكبي بأن يحمل الامبراطور العثماني تاجا مزدوجا « التاج التركي والتاج العربي » كما يحمل آل هاسبورغ تاج النمسا ـ المجر ، وبذلك تصلح أحوال الامبراطورية العثمانية .. وبهذا يكون عبد الرحمن الكواكبي قد طالب بوضوح بتطبيق « اللامركزية » .

من توسيع المأذونية الى اللامركزية الادارية :

يمكننا القول أن أول من طرح مسألة المركزية واللامركزية في الادارة العامة ودعا الى بحثها بصورة جماعية هو (الامير صباح الدين) ابن الداماد (محمود باشا)(١) وكان يقيم مع والده في باريس هربا من استبداد السلطان عبد الحميد ، وفي سنة ١٩٠٢ دعا الامير الى عقد مؤتمر في باريس للاحرار العثمانيين فلبى طلبه أكثرية المعارضين لحكم السلطان عبد الحميد، وعلى الرغم من أن المؤتمرين كانوا متفقين على مقاومة الحكم الاستبدادي المطلق ، كما كانوا متفقين على المطالبة بقيام حكم دستوري في الدولة العثمانية ، الا أنهم اختلفوا وانشقوا حول ثلاث مسائل رئيسية كانت مطروحة على بساط البحث ، في مقدمتها مسألة : « المركزية الادارية واللامركزية الادارية » ، ثم مسألة حقوق الاقليات القومية ومسألة السياسة الخارجية .

وقد أدى البحث في هذه المسائل الى الانشقاق داخل المؤتمر ، فالتفت الاكثرية حول الامير (صباح الدين) وتكونت جمعية برئاسته أطلق عليها اسم جمعية « التشبث الشخصي واللامركزية الادارية » أما الاقلية فالتفت حول (أحمد رضا) وكانت نواة لتشكيل الفئة المعارضة التي أسفرت فيما بعد عن جمعية « الاتحاد والترقي » بعد أن دمجت بالتنظيمات الحزبية التركية السرية التي تتطابق آراؤها وآراء (أحمد رضا) ذات المضمون العنصري وأسلوب الحكم المركزي (٢) .

وعندما طرحت جمعية « عدم مركزيت » أو اللامركزية ، برئاسة (البرنس صباح الدين) برنامج الجمعية ، كانت المادة الاولى تنص على : « التشبث باللامركزية » وطالبت أن يكون الحكم في الامبراطورية حكما لا مركزيا . واما البند الثاني فكان يطالب بالتوسيع في المأذونية (الصلاحية) في الولايات ، وهذا يتطلب ان تنتخب مجالس الادارة العمومية والبلديات انتخابا سريا ، وان يكون لاعضاء هذه المجالس الصلاحية التامة في شؤون الولاية المالية ، والمسائل والمعاملات المتعلقة بقوانينها وأنظمتها ، كما تطرقت الجمعية الى أعضاء (مجلس المبعوثان) ، وطالبت أن تنتخبهم مجالس الولايات العمومية لتمثيل الولاية في المركز بعد اعلان المشروطية ..

أما الموظفون الاداريون فقد أجازت الجمعية تعيينهم من قبل الحكومة المركزية في الولايات ، واما باقي موظفي الولاية المدنيين وغيرهم فيختارهم الولاة من افراد مختلف القوميات في الولاية بحسب النسبة العددية ... (٣)

وهكذا يمكننا القول ان سنة ١٩٠٢ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية العثمانية ، من حيث اثارة طرح قضية اللامركزية ضمن برنامج لجمعية تنظيمية ، اي طرح اللامركزية بشكل عملي والمطالبة بتنفيذها ، وقد انتشر برنامج الجمعية في انحاء الامبراطورية بعد أن افتتحت الفروع لها في دمشق برئاسة (رفيق العظم وحقي العظم) وفي عاليه برئاسة (محمود العلايلي) وفي اللاذقية وغيرها من المدن السورية .. وفي سنة ١٩٠٦ انتشرت أفكار الجمعية في أرجاء الامبراطورية بعد أن أصدر البرنس صباح الدين في باريس جريدة تحمل اسم « ترقي » وبدأ ينشر فيها آراءه مبينا أن « المركزية » في الادارة تقتل روح « التشبث الشخصي » وان الاستبداد يقتل العدالة التي تحققها المشروطية(٤) .

تطور مفهوم اللامركزية بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨

الدستور والمركزية لا يجتمعان :

بدأت النداءات الجماهيرية بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ ، ومنذ اليوم الاول ، بأن الدستور والمركزية لا يجتمعان ، وان الدستور يقتضي اشتراك عناصر الامة في كل الحقوق والواجبات ، والمركزية تنافى هذا الاشتراك . . . وهكذا طرح مفهوم اللامركزية بصورة أكثر شمولا ، وتحول الى مطلب جماهيري .

وقد لمس الاتحاديون منذ اليوم الاول لاعلان الدستور حقيقة مطالب القوميات وأمانيها ، وشهدوا كذلك مدى التأييد الهائل الذي اكتسبوه بعد الانقلاب الدستوري ، فقد عبرت عن تلك المطالب وعن هذا التأييد جميع قوميات الامبراطورية باشتراكها في اخراج أعياد انقلاب ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ ، وخاصة عن طريق المسيرات الجماهيرية في الشوارع وعن طريق الخطب والمحاضرات الثقافية التي القيت من قبل أعضاء الجمعيات العربية السرية بعد ان أعلنت عن وجودها . وقد جاء ذكر توسيع المأذونية ، وحرية التعليم ، وحقوق القوميات في أكثر هذه الخطب من منطلق : ان الدستور والمركزية لا يجتمعان(٥) .

فكانت المحافظة على هذه الشعبية مع التنكر لتلك المطالب هي المعادلة الصعبة التي واجهتها جمعية الاتحاد والترقي لدى تطبيق برنامجها في التتريك من جهة والمركزية من جهة أخرى(٦) ولكنها تجاوبا مع الواقع لجأت للأساليب التالية :

أولا : أعلنت جمعية الاتحاد والترقي ، في برنامجها السياسي الموقت ، والتي وعدت بعرضه على مجلس المبعوثان في حينه ــ مساواة جميع المواطنين أمام القانون في الحقوق والواجبات ، دون تفريق بين الاديان والاجناس .

ثانيا : أعلنت الجمعية في ذلك البرنامج أيضا عن : « حرية التعليم وحرية تأليف الجمعيات التي تشمل حرية تأليف الاحزاب »(٧) .

ثالثا ــ جعلت من السلطان العثماني ــ خليفة المسلمين ــ امبراطورا يملك ولا يحكم . . . « وقد قبل السلطان صدارة شرف الجمعية وفاه بها علنا »(٨) .

رابعا : قررت الهيئة الادارية لجمعية الاتحاد والترقي أن لاتتسلم الجمعية مركز رئاسة الوزراء ، أي (الصدارة العظمى) ، وان تحكم الجمعية من وراء ستار . وقد وقع اختيار الجمعية على شخصية كامل باشا الذي كان مبعدا من قبل السلطان عن الاستانة مدة (١٢) سنة ، ولم يمتنع عن القبول ، كما أن السلطان « المغلوب على أمره » لم يعترض على هذا التعيين(٩) .

وبهذا (التكتيك) السياسي الاستبدادي المقنع بالدستور ، سار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في تطبيق مخططهم المركزي الطوراني تجاه القوميات الاخرى والاحرار العثمانيين ، والجمعيات السياسية ، وكل من نادى باللامركزية .

وكان من البديهي ، أن تبدأ جمعية الاتحاد والترقي بتطبيق برنامجها بالقضاء على جمعية « التشبث الشخصي واللامركزية الادارية » التي كانت تنادي باللامركزية وبحقوق القوميات في الامبراطورية العثمانية قبل اعلان الدستور ، وخاصة أن رئيسها عاد الى الاستانة واستقبله الشعب بحفاوة بالغة ، فلم يرق هذا الالتفاف الشعبي حول الامير صباح الدين للاتحاديين ، فحملوا عليه حملة صحفية ، وأخذوا يهاجمونه في الاجتماعات العامة ، ويتهمون أفكاره بتشجيع العناصر غير التركية على طلب الاستقلال ، ـ وخاصة ان الجمعية أصبح لها العديد من الفروع في البلاد العربية كما أشرنا .

عند ذلك دعا البرنس صباح الدين الى عقد اجتماع عام ، وأعلن ، مضطرا ، ان اللامركزية التي ينادي بها هو وأعضاء جمعيته في الاستانة وفي بقية البلدان . انما هي « توسيع المأذونية » التي ينادي بها أعضاء جمعية الاتحاد والترقي(١٠) ثم وافق على دمج جمعيته مع جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة وأعلن بذلك تصفية حزبه في شهر تشرين ثاني نوفمبر سنة ١٩٠٨(١١) .

ولكن مفهوم اللامركزية لم يقض عليه بعد أن نجح الاتحاديون في مخططهم المشار اليه سابقا ، اذ طرح هذا المفهوم اللامركزي في ساحتين كبيرتين : الساحة الاولى : **الساحة الشعبية** : عندما تأسس حزب الاخاء العربي العثماني وجوهر تفكيره تطبيق اللامركزية ، والساحة الثانية : هي **الساحة البرلمانية** : عندما تاسست الاحزاب والكتل النيابية في مجلس المبعوثان وبدأت تطالب بتطبيق اللامركزية، أضف الى ذلك الجمعيات العربية السرية ، القحطانية والعربية الفتاة .

وبالرغم من أن حزب الاخاء العربي العثماني الذي تأسس سنة ١٩٠٨ في ٥ آب (أغسطس) ، لم يدع صراحة الى تطبيق اللامركزية الادارية او الى الاستقلال أو الانفصال ، فان الحزب نادى صراحة بالمحافظة على أحكام **القانون الاساسي** ، وجمع **كلمة الملل** ونادى دستور الحزب : « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها كتأسيس مدارس وطبع الكتب والجرائد وتعليم اللغة العربية ... »(١٢) . وبينت الجمعية أن كل ما تقدمه وتدعو اليه « هو قائم بدوام الدستور المتكفل بالحرية الشخصية » .

وعندما أراد أعضاء جمعية الاخاء تطبيق برنامجهم « وحفظ حقوق العرب » ضمن الرابطة العثمانية ، أعلنوا عن تأييد مرشحي الحزب للانتخابات في دمشق ، وبدأوا بنشر آرائهم في جريدتهم التي تحمل اسم الجمعية ، وقف الاتحاديون في مواجهتهم ، فنجح اثنان منهم فقط هما : شفيق المؤيد العظم ، ورشدي الشمعة (١٣) ونجح الاتحاديون في مخططهم تجاه الانتخابات فلم ينجح من المستقلين سوى ١٠ نواب بينما نجح من الاتحاديين ٢٦٥ نائبا أخذوا عليهم تعهدا وقسما بأن يلتزموا بالطاعة العمياء لجمعية الاتحاد والترقي ، ونجح نائب واحد من حزب الاحرار(١٤) ولم تكن أهداف هذه الجمعية خافية على جمعية الاتحاد والترقي لذلك اغتنم الاتحاديون فرصة انتصارهم على الثورة المضادة في ١٣/٤/١٩٠٩ ، فوجهوا اليها تهمة الاشتراك في الانقلاب وأعلنوا حلها .

اما في ساحة البرلمان : فقد تشكلت عدة كتل برلمانية ، كانت سماتها الرئيسية المشتركة تتلخص بالتالي :

١ ـ من حيث المبدأ : المناداة باللامركزية الادارية ومقاومة المركزية بشكل عام .

٢ ـ من حيث أسلوب العمل : العمل العلني .

٣ ـ من حيث التكوين : عثمانية شاملة .

٤ ـ ومن حيث موقفها من الحزب الحاكم : المعارضة .

ومن هذه الاحزاب : حزب الاحرار ، الذي تأسس في ١٤ أيلول سبتمبر سنة ١٩٠٨ .

وحزب الاحرار المعتدلين ، أو « الحر الدستوري المعتدل » ، تأسس في ٢١ تشرين ثاني نوفمبر سنة ١٩٠٩ .

وحزب الاهالي ، الذي تأسس في ٢١ شباط ١٩١٠ .

وحزب الحرية والائتلاف ، الذي تأسس في ٨ ت٢ سنة ١٩١١ .

وقد استقطب الحزب الاخير (الحرية والائتلاف) هذه الاحزاب البرلمانية كلها عند تأسيسه . . لقد طرح هذا الحزب مفهوم اللامركزية الادارية من خلال مبادئه التي تتركز في مبدأي « الحرية » و « المساواة » وهما المبدأن الاساسيان ، « وأن الروح الاصلي في هذا البروغرام ـ يعني البرنامج ـ هو صون حرية الافراد وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لايتغير »(١٥) .

ومن هذا المبدأ الذي أعلنه الحزب عن طريق أحد أعضائه العرب ، وهو عبد الحميد الزهراوي ، يتبين لنا أن مضمون الحرية والمساواة كان ينصرف للافراد والجماعات أو للأفراد والعناصر (القوميات) ، ان نوع الحكم اللازم لامكانية قيام الحرية والمساواة هو الحكم الدستوري ، وان مبدأي الحرية والمساواة هما مبدآن لايتغيران كما يبدو في تعبير « هذا لايتغير » .

وقد حدد الزهراوي أيضا أهداف الحزب عندما قال: «الغرض الاعظم لهذا الحزب شيئان : مقاومة الاستبداد ولاسيما الاستبداد تحت ستائر القانون ، واصلاح ذات البين بين جميع العناصر .

ويحدد الحزب « العناصر » التي يسعى لاصلاح البين بينها في ثلاثة أنواع : عنصر الجنسية وعنصر الدين ، وعنصر الفكر والاجتهاد الاجتماعي ، وكان يؤمن ان سكان الامبراطورية العثمانية أمة واحدة وليس مجموعة أمم ، وان الدولة العثمانية هي دولة هذه الامة ، ولذلك ودرءا لكل الشبهات حول هدف الحزب فان الزهراوي يقول : « هذا لاننا لا نسعى الى غاية شخصية أو قومية وانما نسعى لادامة حياة هذه الدولة واعلاء شأنها وسعادة الامة العثمانية وانجاح بلادها وترقية عمرانها .... اسسنا هذا الحزب »

وواضح من هذا النص ان الحزب ينكر انه يسعى الى غايات « قومية » ، بينما هو يسعى « للحرية » العنصرية ، الامر الذي يؤكد بصورة حاسمة أن هذه العناصر الجنسية ليست أمما أو قوميات ، وان حريتها وحقوقها لاتعني حريات وحقوقا قومية ، لان الحريات والحقوق القومية تجيز بل تقتضي ان تكون للأمة « دولتها

القومية المستقلة » وقد ترتب على هذا المفهوم أن كانت عضوية الحزب مفتوحةلجميع المناصر أو على حد قول الزهراوي : « لذلك يضم هذا الحزب ضما حقيقيا المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي » ويطلب من هذه العناصر : « أن تكون كلا متآلفة مع التخالف ، متعاونة مع التغاير » .

وانسجاما مع تلك المبادىء والاهداف فان حزب الحرية والائتلاف كان ينادي باللامركزية الادارية ولم يرتق الى مستوى المناداة باللامركزية السياسية .

كان الحزب يضم الاحزاب البرلمانية المعارضة التي أشرت اليها سابقا ، وقد توصل الى الحكم بعد ان تمكن من اسقاط حكم الاتحاديين بتاريخ ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩١٢ .

وكرست صحف المعارضة مقالاتها لشرح مبادىء هذا الحزب وأهدافه ، كما شكل أكبر كتلة برلمانية وقفت في وجه الاتحاديين « كتلة المعارضة » وانضم النواب العرب الى هذه الكتلة وطرحوا في الساحة البرلمانية مشاكل الوطن العربي وقضية الصهيونية ، ومشكلة حقوق العرب والثورة القومية في اليمن ، ومشكلة الغزو الايطالي لطرابلس الغرب ، من خلال جواب الاستانة ــ قبل تأسيس الحزب ــ « ان الدولة العليه ستطلب من ايطاليا بلهجة ودية طيبة الافصاح عن نواياها في طرابلس الغرب ويأمل الباب العالي ان يجد واسطة لحل المسألة قبل أن تصبح حرجة »(١٦) كما ان سفير الدولة العثمانية في روما تقدم بتقرير الى مجلس المبعوثين شرح فيه كيف انه كتب مرارا للصدر الاعظم من روما لينذره بالخطر الذي يلمحه من تصرف ايطاليا واستعداداتها للاغارة على طرابلس الغرب ولكن الصدر الاعظم حقي باشا اهمل هذه التقارير ولم يعرضها على مجلس الوزراء(١٧) . هذا بالاضافة الى التقرير الذي قدمه نواب طرابلس الغرب يطلبون فيه تقديم (حقي باشا) ــ الذي كان سفيرا للدولة في روما ــ الى المحاكمة « الديوان العرفي » مع وزارته ــ وكان في هذه الاثناء يشغل منصب الصدارة ــ لاهماله واستهتاره تجاه خفايا المطامع الايطالية(١٨) .

بدات الانسحابات تتوالى من حزب الاتحاد والترقي (العرب وغيرهم) وانضموا الى حزب المعارضة « الحرية والائتلاف » وكان أول مجلس ادارة للحزب يضم من الاعضاء العرب : النائب سعيد الحسيني نائب القدس ، وشكري العسلي نائب دمشق .

لقد تخطى هذا الحزب المناداة « بتوسيع المأذونية » المناداة باللامركزية ، وكان هذا كافيا لتكتل ابناء القوميات غير التركية حوله . ومما زاد في انتشار مبادئه ، ان افتتحت له الفروع في دمشق والبصرة وبيروت وحمص وحماه وغيرها من المدن السورية ، امثال اللاذقية ونابلس وطرابلس الشام وعاليه وكسب ، وغيرها من المدن ... حتى لقد بلغ الامر ان انسحبت نوادي (اي فروع) حزب الاتحاد والترقي بمجموع اعضائها في حمص وحماه ودمشق وغيرها من مدن سورية ، لتنضم الى الحزب الجديد « واصبحت الامة تعاضده لانها ذاقت آلام مقاصد الحزب الآخر وعلمت ان لا هم للقابضين على زمامه اليوم الا انفسهم وتأمين منافعهم ... »(١٩) .

وقد ادت قضية المركزية واللامركزية بين الاتحاديين والمعارضة الى حل المجلس النيابي « المبعوثان » وانتخاب مجلس جديد بقوة الحديد والنار لصالح الاتحاديين من جهة(٢٠) كما ادت الى ثورة ضباط الجيش من جهة اخرى ، وكان الضباط الثائرون خليطا من الالبانيين والاتراك وغيرهم وبلغ عددهم نحو اثني عشر طابورا في فترة وجيزة(٢٢) واطلقت الهيئة التي تزعمت هذه الحركة على نفسها اسم « عصبة ضباط الانقاذ » . وقد لجأ هؤلاء الى الجبال في ١١ حزيران سنة ١٩١٢ بقيادة اليوزباشي الالباني « طيار بك » وطالبوا بتشكيل حكومة من غير الاتحاديين وبتطهير اركان حرب الجيش من الاحزاب ، وبمنع جمعية الاتحاد والترقي من التدخل بادارة السلطة ومنح جميع عناصر الامة الحرية والمساواة ، وتنظيم الادارة على طريقةمثلى بحيثتكون الاسبقية للكفاءة ، دون النظر الى الانتماء الحزبي ...

ومما زاد في قوة هذه الحركة العسكرية ، دعمها بحركة قومية ثورية من قبلأهالي البانيا الذين تقدموا بمطالبهم التي تشتمل على ١٢ مطلبا نادوا بها وقدموها باسم جميع العناصر التي تتألف منها شعوب الامبراطورية العثمانية ، وكان اهم هذه المطالب : حفظ اللغة المحلية في كل منطقة واعتبارها لغة رسمية ، وحفظ قوميتهم بحيث تكون ذات وحدة مستقلة ... وعندما حاولت حكومة الاتحاديين المماطلة ، واصلت فرقة ضباط الانقاذ تهديدها للوزارة ، ووجه الضباط كذلك بيانا على اخوانهم في السلاح ، وحمل البيان على انحراف اعضاء الاتحاد والترقي عن اهداف ثورة سنة ١٩٠٨(٢٢) وقد تجاوب مع هذه البيانات ضباط حاميات أزمير ودمشق وحلب وغيرها من المدن ، مما دعا حكومة الاتحاديين الى تقديم استقالتها في ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩١٢ ليبدأ حكم انصار حزب الحرية والائتلاف ، الذي ينادي باللامركزية .

الائتلافيون ومحاولة تطبيق اللامركزية :

بقي حكم انصار حزب الحريــة والائتلاف من ١٩١٢/٧/١٠ الى ١٩١٣/١/١٣ ، وتميزت هذه الفترة بالمناداة العلنية بتطبيق الاصلاح الاداري على أساس اللامركزية ، وتبنت هذه المناداة عدة جمعيات اصلاحية تأسست في بيروت ودمشق والبصرة ، كما نادى أعضاء المنتدى الادبي ـ الذيأسسه الشبيبة العرب في الآستانة منذ سنة ١٩١٠ـ بتعليم اللغة العربية والاصلاح اللامركزي . وكذلك ظهرت في هذه الفتــرة الاحــزاب العربية التي تنادي علانية باللامركزية ، وفي مقدمتها حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في مصر .

وكان اهم ما قام به حزب الحرية والائتلاف ، هو اقناع الصدر الاعظم (كامـل باشا) صديق الائتلافيين باعلان : ان وزارته ستطبق الاصلاح اللامركزي استجابة الى طلب الاصلاحيين رغم خطورة الموقف الخارجي على الحدود .

ذلك أن العرب اخذوا يتذمرون من تجاهل الحكومة المؤيدة من حـزب الائتلاف لبرنامج اللامركزية ، واخذ اشراف بغداد والبصرة ودمشق وحلب وبيروت والقـدس يبرقون الى الحكومة طالبين منها ان تصدر ارادة باعلان « لامركزية الحكم » في البـلاد العربية صيانة لها من الوقوع في براثن الغرب كما وقعت طرابلس الغرب(٢٣) .

وراجعت الشخصيات العربية في الاستانة ـ بعد عقد عدة اجتماعات ـ المسؤولين في الحكومة حول ذلك المطلب ، وكان على رأس وفد تلك الشخصيات شفيق المؤيد ، وشكري الحسيني ، وزكي مغامر ، وعبد الرحمن العابد وغيرهـم ، كما ان برقيــات الولاة الائتلافيين كانت تتوارد على رئيس الوزراء (كامل باشا) طالبة تطبيــق برنامـج وزارته في الاصلاح اللامركزي ، وكان أشدها اصرارا برقيات والي بيــروت الائتلافي : بوجوب جمع مجلس الولاية العمومي للمذاكرة في الاصلاحات المطلوبة وتنظيم اللوائح بمطالب السكان ، وقد أجيب الى طلبه ببلاغ ، عمم على بقية الولايات ، تشكلت على اثره في بيروت وحلب ودمشق والبصرة جمعيات اصلاحية اخذت تدرس وتحضر اللوائح الاصلاحية اللازمة للبلاد العربية، وأسفرت عن طرح برنامج اصلاحي يطالب باللامركزية الادارية الموسعـــة ..

اللامركزية الادارية الموسعة :

وضع الاصلاحيون من أعضاء النادي الائتلافي في مدينة بيروت لائحة اصلاحيــة صادرة عن لجنة انتخبها أهالي بيروت أنفسهم(٢٤) وقعت عليها اللجنة في الجلسـة الثالثة للجمعية العمومية المنعقدة في ١٩١٣/١/٣١ وصدقتها .

أما السمة العامة التي نظمت على أساسها اللائحة فهي : الادارة واللامركزية الواسعة**وأما المادة الاساسية للائحة** ، فانها تنص على ان الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية ، **اما المادة الاولى** ، فانها تقسم ادارة الولاية الى قسمين :

القسم الاول : هو المشتمل على الاعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الاساسية ، وهي المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوستة والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس ...

والقسم الثاني : وهو المشتمل على الاعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية الخاصة .

فكل ما يتعلق بالقسم الاول منوط تقريره واجراؤه بالحكومة المركزية ، وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط تقريره بمجلس الولاية العمومي .

وتحدد اللائحة صفات الوالي القانونية في المادة الثانية : **فالصفة الاولى : تمثيل** الحكومة المركزية وبهذه الصفة يتولى اجراء جميع الاعمال المتعلقة بالقسم الاول طبقا لقرارات الحكومة المركزية ، والصفة الثانية تمثيل حكومة الولاية التي يراسها وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الاعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقا لقرارات المجلس العمومي .

ثم تعين اللائحة وظائف الوالي وحقوقه ، وحقوق المجلس العمومي ووظائفه ، وتبحث في مالية الولاية والبلديات والاوقاف ولجنة المجلس العمومي ، وكيفية تعيين الموظفين ثم المستشارين ومجلس المستشارين ..

كما بحثت اللائحة مسألتين مهمتين وهما : **مسألة اللغة ومسألة الخدمة العسكرية** اما بخصوص **اللغة** : فقد نصت اللائحة على أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر ايضا لغة رسمية كاللغة التركية في مجلسي النواب والاعيان (مادة ١٥) ، كما طلبت اللائحة **تخفيض الخدمة العسكرية** الى سنتين ، وأن تقضى أيام السلم في الولاية ، وأشارت الى تنزيل قيمة البدل النقدي للنظامية الى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف (أي الجندي بعد الاربعين) الذي أدى الخدمة العسكرية ، وللاحتياط (أي الجنود الذين ادوا الخدمة ولم يتجاوزوا هذه السن) الى عشرين ليرة عثمانية . (٢٥)

وتمكن الائتلافيون في دمشق من وضع لائحة مشابهة للائحة بيروت الاصلاحية ، ولكنها « لم تكن معبرة عن كل ما تتوق اليه نفوس السوريين من اصلاح ورقي تام »(٢٦).

وتجاوب السوريون المقيمون في مصر مع برامج الجمعيات الاصلاحية ، فنرى صاحب المنار يشكر أهل بيروت على عملهم الاصلاحي ويثني على التضامن الوطني الذي حققه أهل بيروت ، وفي الوقت نفسه طلب منهم ان « ينقحوا لائحتهم تنقيحا يتقون به الخطر » ويقصد بهذا الخطر تدخل المستشارين الاجانب الذي طالب به البيروتيون ، وتمنى عليهم لو « لم يقيدوا انفسهم بهذه القيود الثقيلة »(٢٧) .

وبدأ المجلس العمومي بمناقشة اللوائح الاصلاحية من قبل الائتلافيين . ولكن لم يكد يمضي أسبوع واحد على دراسة « لائحة دمشق » حتى خصل الانقلاب الاتحادي ، فأهملت هذه اللوائح الاصلاحية ثم كان نصيبها الالغاء ... ولم يكن نصيب اللائحة الاصلاحية في البصرة بأفضل من ذلك .. وبدأت عمليات القمع ، فصادر الاتحاديون كل ما يتعلق بنادي الاصلاحيين وجمعيتهم واوقفوا صحفهم بحجة ان هذه الجمعيات الاصلاحية : « لم تتبع جادة الاعتدال بل تخطت في طلباتها حدود الواجب » وان الوالي اضطر لالغائها : « لتفاقم الخطر وحرصا على الراحة العمومية »(٢٨) لقد أيد الرأي الجماهيري موقف الاصلاحيين وعبر عن ذلك بالمظاهرات الصاخبة كما احتجت الصحف المؤيدة للاصلاحيين على قرار الوالي باغلاق النادي ، الذي اصدره بتاريخ ٩ نيسان سنة ١٩١٣ واحاطت القرار باطار أسود(٢٩) فصدر الامر بمصادرة الصحف المعارضة للاتحاديين ، ومنها : المفيد والاتخاد العثماني ولسان الحال ، والنصير ، والحقيقة ، وغيرها من الصحف الاصلاحية على فترات متلاحقة ، ووجهوا اليها تهمة : « تشويش الافكار وتهييج الخواطر » .

اما بقية الصحف فقد صدرت بيضاء خالية من الاخبار ، واكتفت بنشر الامر في صفحاتها الاولى دون تعقيب ، وأرادت بذلك ان تترك للشعب أن يقدر هول المصيبة : « التي عجزت أقلام كتابها عن وصفها »(٣٠) .

حزب اللامركزية الادارية العثماني : ك١ / ١٩١٢

اعتقد الاتحاديون عندما قاوموا هذه اللوائح الاصلاحية التي تنادي باللامركزية الادارية الموسعة ، ان سياستهم قد انتصرت وان مبدأ المركزية الادارية الذي ينادون به انتصر على مبدأ اللامركزية ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ..

ففي هذه الاثناء كان العرب السوريون في القاهرة يؤلفون اكبر حزب عربي نادى باللامركزية الادارية واشتق اسمه منها وهو « حزب اللامركزية الادارية العثماني » كنتيجة « لما انذرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ». ويقول رشيد رضا أحد مؤسسي الحزب : « كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا .... وقد كنا نعتقد ان الدولة لايمكن ان تعيش طويلا اذا أصرت على شكل حكومتها المركزي وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة »(٣١) .

لقد بدأ هذا الحزب ، الذي تأسس في كانون الاول ١٩١٢ ، أعماله بتوحيد جهوده مع اعضاء جمعية بيروت الاصلاحية ، وارسل الحزب برنامجه مع عبد الكريم الخليل ، واقترح أن يطلب الاصلاح لجميع الولايات العربية على أساس اللامركزية بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت وحدها .. « حتى نكون يدا واحدة في العمل » والمطالبة بتحقيق رغبة اعضاء الحزب بأن « لا يذكر اسم الحزب ، وان تكون المراسلات عن طريق حقي العظم »(٣٢) .

وعندما اغلق والي بيروت الاتحادي ، مكتب الجمعية الاصلاحية في بيروت ـ بعد استلام الاتحاديين الحكم في ٢٣ كانون ثاني سنة ١٩١٣ ـ كما أشرت ، احتج حزب اللامركزية في مصر ، وطالب بعزل الوالي لان عمله غير قانوني وانذرهم بقوله : تداركوا سوء العاقبة ، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القانون ..(٣٣) .

لقد انتخب حزب اللامركزية هيئته الادارية بتاريخ ١٢ كانون ثاني سنة ١٩١٣ وبدأ بشرح مفهوم اللامركزية على صفحات الجرائد، وقد كتب شبلي الشميل مقالا عرف فيه اللامركزية بقوله : « يراد بها في عرف السياسيين توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم مع حفظ الصلة بالمركز حرصا على مصلحة الكل »(٣٤) . ولم يخرج الحزب عن هذا المفهوم في صياغة مبادئه واهدافه ...

فقد صاغ هذا الحزب مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها « بيان الحزب وبرنامجه السياسي(٣٥) وهي وثيقة مفصلة تفصيلا وافيا » ، فقد كانت علنية الحزب تسمح له بهذا التفصيل ...

اما الجزء الاول من هذه الوثيقة وهو « بيان الحزب » ففيه محاولة لعرض ما يمكن تسميته ب : « فلسفة الحزب أو نظريته السياسية » ثم تحليل الاوضاع الواقعة للامبراطورية العثمانية ، وينتهي بعد ذلك الى تأكيد اللامركزية الادارية كحل ضروري لما تقوم عليه تلك الاوضاع من صراع وتخلف وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر .

اما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته دستور مقترح لنظام اللامركزية الادارية التي يطالب بها الحزب(٣٦) .

ويتالف هذا البرنامج من ست عشرة مادة تحتوي على المبادىء الدستورية الاساسية على الشكل التالي :

١ ــ وحدة الدولة العثمانية .

٢ ــ تأكيد وحدة السيادة فيها .

٣ ــ اقامة مركزية محددة القسمات .

اما اهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة ووحدة السيادة فيها ، فقد حددها برنامج الحزب على الشكل التالي :

اولا : السلطان هو راس الدولة الواحدة اي (الامبراطورية العثمانية) . والسلطان يعين الوالي وقاضي القضاة فيها .

ثانيا : وان : « مجلس المبعوثان والاعيان » هو المجلس التشريعي المركزي للامبراطورية .

ثالثا : النظارة المركزية (اي الحكومة) وتتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة .

رابعا : يطالب البرنامج في ان تكون اللغة التركية لغة رسمية في جميع الولايات ، ولكن الى جانب لغةالولاية المحلية .

وفي الوقت نفسه ، فقد أشار البرنامج اشارات واضحة تؤكد مظاهر اللامركزية الادارية في الامبراطودية ، وتبدو أساسا على الشكل التالي :

أولا : تكوين أربع مؤسسات محلية هي :

أ ــ المجلس العمومي

ب ــ مجلس الادارة

جـ ــ مجلس المعارف

د ــ مجلس الاوقاف

وتحدد مواد البرنامج من المادة الخامسة وحتى المادة التاسعة صلاحيات هذه المجالس وسلطاتها على الشكل التالي :

صلاحيات المجلس العمومي وهي : « المراقبة على حكومتها » ــ والظاهر هنا من سياق الكلام ان كلمة حكومة تعني مجلس الادارة . ومن صلاحيات المجلس العمومي ايضا النظر في جميع شؤون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الدولة وأمور الامن العام والمعارف والنافعة والاوقاف والبلدية ، وتقرير ما يراه فيها ، وسن النظامات لها . وأما ما كان من أمور النافعة ويتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية أو السياسية الخارجية كسكك الحديد فيرفعها الى العاصمة .

وواضح من هذا النص ، ان جماعة حزب اللامركزية كانوا يريدون من هذا المجلس العمومي ان يكون بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها ، أي « مجلس ادارتها » كما يفعل البرلمان في الحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها ، ويسن النظامات التي تقابل القوانين في أحوال المجالس النيابية .

اما صلاحيات مجلس ادارة الولاية فهي : القيام باعمال الحكومة الادارية واهمها : وضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها .

واما صلاحيات المجالس الاخرى فهي : ان يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون التي تدخل في اختصاصه ووضع موازنتها .

فاذا أمعنا النظر في هذه الصلاحيات نرى ونلمس تشابك المركزية باللامركزية بشكل واضح ، ومن مظاهر هذا التشابك في رأينا النقاط التالية :

أ ــ ان قرارات المجلس العمومي تكون نافذة ، ومعنى ذلك أنها نافذة بدون حاجة الى تصديق ، لا من الوالي ولا من السلطان ــ كما يفهم من النص .

ب ــ وجوب رفع راي المجلس العمومي الذي يتصل بأمور (النافعة) المتعلقة من بعض الوجوه بالامور السياسية العسكرية ، كسكك الحديد ، فيرفعه بعد ابداء رايه لى العاصمة ، فليس للمجلس العمومي قرار نافذ في هذه الامور ، كما ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق الوالي الذي يتسلم السلطة المركزية.

د ــ ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي ، وبين مقتضيات اللامركزية ، من حيث كون أهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ويكون عسكرها على قدم الاستعداد في زمن السلم ، واما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بوزارة الحربية وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة .

وعلى الرغم من ان مجموع الصياغة اللفظية تؤكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا اننا نلمح في النصوص ، مرونة ، بل غموضا احيانا ، يترك هامشا واسعا لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيرا من خصائص اللامركزية السياسية .

فلسفة الحزب وتركيزها على اللامركزية :

فاذا انتقلنا الى النظرية السياسية «الفلسفة» التي طرحها بيان حزب اللامركزية نراها تركز على عدة مبادىء أهمها :

١ ــ ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو « الحياة » ويشير الى « الحياة الاجتماعية » و « الحياة السياسية » بمعنى أن يكون لها وجود اجتماعي راق ، ووجود سياسي ثابت ..

٢ ــ انه من الضروري ان تسعى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بها جميعا ، بمعنى ان لا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر .

هذان المبدآن العامان رتبت عليهما النظرية السياسية للحزب المبدأ الثالث للنظرية وطرحته على الشكل التالي :

٣ ـ ان القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية ، قل أن تضمن الحياة للامة ، اذا لم تكن قائمة على أساس متين هو : « القوانين السياسية » وأوضحت النظرية مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا ترتكز على اساس متين من القوانين السياسية ، حيث أوضحت نقطتين مهمتين :

النقطة الاولى : بينت انه مهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للامة واكثرت من مشروعات الاصلاح في المملكة ، سواء كان ذلك في التعليم أو الاقتصاد او الادارة ، او القضاء ، ونحو ذلك ، فانها « لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حمايته الخصوصية ليثبت لنفسه وجودا صحيحا بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجد » . .

والنقطة الثانية : تستند على النقطة الاولى وتنبع منها : « لذا أصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل أمة من الامم ، وصار من المسلم بالبداهة ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين مجاميع الانسان الحية متوقف على شكل الحكومة ، فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومة أكثر ، كان ذلك لدوام وجوده أضمن » .

وخلصت نظرية حزب اللا مركزية من ذلك كله الى صياغة المبدأ الرابع وهو المبدأ الاكثر اهمية لهذا البحث ، وينص على التالي :

٤ ـ لهذا تكاد تكون سائر الحكومات التي للامم المستقلة اليوم : « حكومات دستورية شعبية » أي لا شأن فيها لسلطة الافراد ، بل الشأن : « لعامة الامة » ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة ، الا انها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافا واضحا ، اذ روعي فيه الاجتهاد والنظر الى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقابلية والاستعداد . .

وبعد تأكيد المبادىء الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية لتي انتهت الى تأكيد ان : « افضل شكل من أشكال الحكومات هو الدستوري » ، يمضي بيان حزب اللا مركزية الادارية فيؤكد ان : « افضل أشكال الحكم الدستوري هو اللا مركزية خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات ، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق ، فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الاحوال ، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان » .

واعتمد حزب اللامركزية في تأكيد هذا المبدأ على التجربة التي ساقها كمثل حي، عندما عقد وصفا مقارنا للوضع القائم في سويسرا ، والوضع القائم في الامبراطورية العثمانية ، وبين ان الفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا سببها اللامركزية التي تحكم بها سويسرا ، وان التخلف والاوضاع القائمة في السلطنة العثمانية سببها المركزية التي تحكم بها الامبراطورية العثمانية .

كما اعتمد في تأييد هذا المبدأ ايضا على تحليل تخطي مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة ، وانتهى منه الى ان « اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعة الحكم مقصورة على افراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل الى كل ناحية من أنحاء المملكة فيكونوا كالمحرك في آلة كبيرة جدا ، اذا اصابه عطب أو ضعف تعطلت اجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لاي جزء من هذه الاجزاء قوة ذاتية يعمل بهالنفسه، ودون أن يكون مسؤولا عن نتيجة وقوفه عن العمل ».

وعلى هذا الاساس ، يصبح من البديهي ان « الشعب غير المسؤول » عن أي خطأ يصدرعن حكومته ، لا يشعر كل فرد منه بالتبعية فلا يهتم بالنتائج الحكومية الا بعد الوقوع فيها ذلك لانه يسير بارادة غيره ، لا سلطة له حتى ولا على نفسه ، لانهامحكوم عليها ان تسير في السبيل الذي يريده غيره وان خالف رغبته ومصلحته وهواه .

٥ ـ ويتوصل حزب اللامركزية الى مبدأ خامس ، يشير في جوهره الى أن : اللامركزية توزع التبعة على أفراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية ـ حياة الاعتماد على غير النفس ـ وتفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع فيجهاد الحياة ، وتمهدللشعب بلوغ غايات المدنيةوالترقي والعمران من اقرب سبيل وفي وقت قصير ، والعكس بالعكس ..

وبعد ان توصل حزب اللامركزية الى تأكيد هذه المبادىء التي تكون عناصر « نظريته السياسية » ، قدم وصفا وافيا الاوضاع الامبراطورية العثمانية وحللها ، من نواحي التعليم ، والنافعة ، والادارة ، والدفاع ، وانتهى الى تقرير موقف أجمله في قوله :

وقد ظهر للعيان أن المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية ، مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء وهو النفس ، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزا في وطنه أمينا من تسلط المغيرين عليه ..

وانتهى حزب اللامركزية الى ان العلاج الوحيد لهذا الموقف ، انما هو في الاخذ باللامركزية الادارية .

لقد فتح باب الحوار السياسي على مصراعيه بعد أن طرح حزب اللامركزية بيانه السابق ، وكانت الساحة الصحفية هي الساحة التي تبنت قيادة هذا الحوار ، للمؤيدين والمعارضين .

كانت (المنار) أول مجلة نشرت برقيات التأييد للامركزية التي أرسلها (طلاب اللامركزية) في سورية وفلسطين والجزيرة والعراق واوربا وامريكا ، وهذه البرقيات موجهة للصدر الاعظم ، وجوهر هذه البرقيات أن : « الدولة لا تبقى ولاتحيا الا بادارة اللامركزية الواسعة » وان طلاب اللامركزية والاصلاح : « كلمتهم واحدة ، والامة كلها معهم تشد أزرهم وتنبذ من يخالفهم نبذ النوى » .(٣٧)

وقدم المنار دراسة مقارنة تعرض فيها لفوائد اللامركزية ، وضرر المركزية ، مبينا ان الحكومة قد اعجزها تنائي أطراف المملكة ، و « اختلاف لغات وأجناس ومشارب اهلها عن أن تنفذ قوانينها في كل ولاياتها ، فجاءت اللامركزية توزع التبعة على أفراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن » .

ويصل المنار الى النقاط التالية : ان الحكومة المركزية غير قادرة على الدفاع عن أكثر البلاد العثمانية اذا هاجمها عدو اجنبي ، ولذلك : « فان المملكة ستكون عرضة لخطر الزوال » وبالتالي تكون الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال ، وتبين المنار أن جوهر الفكر الاصلاحي هو هذه النقطة الاساسية : « لان اللامركزية تضمن سلامة هذه المملكة وتكفل تضامن شعوبها واتحادهم على العمل الانفع لعمران البلاد وسعادتها وقوة بقائها » . (٣٨)

اما معارضو اللامركزية ، فقد تهجموا على الفكرة برمتها لانها حسب رأيهم : « رواية سياسية هزلية ذات فصل مضحك » الفها د. شبلي شميل ورفيق العظم ، ثم يتابع الكاتب فيقول « تسلمها الاساتذة داوود بركات ورشيد رضا ومحب الخطيب فوضعوا لها الالحان الموسيقية ، ثم أخذها حقي العظم وسامي قصيري فوضعا لها ما لزمها من الزخرفة الفنية »(٣٩) .

ومما يلفت الانتباه ، أن هؤلاء المعارضين كانوا يفسرون كلمة اللامركزية وكانها مرادفة لكلمة الاستقلال : فيشير الكاتب الى أن « لا صلاح لسورية باللامركزية ، وخير

اصلاح لها هو انتخاب الحكام الاكفاء ومراقبتهم .. وان الاصلاح والعدل والنظام هو الدواء الوحيد للفوضى المنتشرة في الولايات العثمانية ، ولكن اللامركزية او الاستقلال المطلوب هو الداء القاتل فالحذر منه ثم الحذر » (٤٠) . وقد رد الدكتور شبلي الشميل على هؤلاء مبينا أن اللامركزية ليست « بدعة في اللغة العربية » ويوجه كلامه للذين ينفرون من كل جديد ، كما ينفي عنها صيغة « المهزلة السياسية » ، ويدعم قوله بانه قد سبق للاطباء والحكماء والفلاسفة ان استعملوا مثل هذا التركيب من قبل فقالوا : « اللااسم له » وقالوا « اللانهاية » وقالوا « اللاادارية » . ثم بين ان العمران مدفوع الى اللامركزية قسرا لان « اللامركزية هي النظام الوحيد ، الذي يتكفل احسن من كل نظام آخر ، بالقدرة على معرفة احتياجات كل جزء وسدها بالوفرة والسرعة اللازمتين » .. ثم يقدم صورة للاوضاع في الامبراطورية العثمانية : « ضعف في المركز الرئيسي ،وضعف في المراكز الاخرى المحيطة ، وتفكك في صحة الروابط التي تربط هذا الجسم ، وخلل في الاعماق عموما ، واذا دام الحال أكثر فلا بد من وقوع الفساد التام في الاعضاء وانفصالها بالكلية عن الجسم كله »(٤١) .

اما رفيق العظم رئيس حزب اللامركزية فقد بين ان اللامركزية شيء وطلب الاستقلال شيء آخر ، ونبه المعارضين الى الخطر الذي تواجهه الامبراطورية والى سلسلة المصائب التي المت بانحائها وكان نهايتها « ذهاب طرابلس الغرب والولايات المكدونية » ودخول الدولة متاهة السيطرة الاوربية في شكل يراه ويعلم نتائجه الذين يهاجمون اللامركزية ، ويصل الى النتيجة التالية : « كل ذلك جعلنا نذهب الى أن الادارة الماضية لهذه الدولة ادارة لا تصلح لهذا الملك وان تغييرها ضروري لسلامةالبقية الباقية من الاوطان العثمانة اذا بقي أمل السلامة » . (٤٢)

ويشير رفيق العظم في مقالاته التي نشرها في جريدة المؤيد الى ارتفاع أصوات (خطباء السياسة) من فوق المنابر في مصير بلاد الدولة العثمانية خصوصا سورية ، وبلوغ الامة حالة من الجزع على بقية الاستقلال يعلمها كل من كان عنده عرق ينبض من العثمانيين ..

وقد بقي هذا الجدل الصحفي قائما مدة طويلة واتسعت دائرته حتى شملت صحف المهجر ، وصحف الجمعيات العربية ، والمنتدى الادبي ، وصحف الجمعيات الاصلاحية وكذلك الصحف التركية ، ولم يتحرك الاتحاديون لتطبيق البرامج الاصلاحية ، أو بحث قضية اللامركزية بشكل جاد ، وعندها فكر أعضاء (جمعية العربية الفتاة) السرية في باريس ، تخطي هذا العمل الى عمل اكثر صلابة واكثر

ايجابية لمواجهة الاتحاديين .. وانتهى الى ضرورة عقد مؤتمر عربي في باريس ، تدعو اليه جمعية العربية الفتاة ، ويتبناه حزب اللامركزية الادارية العلني ، الموجودفيمصر. وبالرغم من الحملة الصحفية التي تبنتها صحف الاتحاديين ، ومؤيديهم من معارضي اللامركزية ، ومحاولة قتل هذه الفكرة الاصلاحية في المهد ، الا ان المؤتمر عقد فيالوقت المحدد له ، وهو ١٨ حزيران ١٩١٣ .

اللامركزية الادارية واللامركزية السياسية ((الكونفدرالية))

في المؤتمر العربي الاول :

طرحت قضية اللامركزية في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس بتاريخ ١٩١٣/٦/١٨ وانتهى بتاريخ ٢٣/٦/ ١٩١٣ ، وكانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر قد وزعت بيانا تحت عنوان « نداء الى الامة العربية » تدعو العرب فيه « الى ان يتمثلوا في المؤتمر الذي نظمته الجالية العربية في باريس للمطالبة بالاصلاحات اللامركزية والاعتراف بحقوق العرب في السلطنة »(٤٣) .

وقد تطرقت أكثر خطب المؤتمر الى هذه القضية الحيوية التي كانت تشكل الرأي العام العربي في ذلك الوقت (٤٤) غير أن مندوب حزب اللامركزية السيد (اسكندر عمون) ركز على هذه المسألة في خطبته التي تحمل عنوان « الاصلاح على قاعدة اللامركزية » وكان جوهر الخطبة هو جوهر الفكر الذي طرحه حزب اللامركزية من خلال برنامجه الذي شرحته سابقا ، وبين أن هذا الحكم المركزي يحصر ادارة أمور الامة في قوم قليلين ويقصي عنها سائر أبنائها ، شأنه شأن الجسم الذي يتولى عضو واحد منه قضاء كل حاجات ذلك الجسم ويقضي على باقي الاعضاء بالشلل ....

ثم بين الاسباب التي تستوجب تطبيق اللامركزية ومنها : ان الامة العثمانية مكونة من عناصر متباينة في أصولها ولغاتها وتاريخها واخلاقها وحاجاتها وعاداتها ، « وكل فريق ادرى بحاجاته الخاصة » هذا من ناحية ...

ومن ناحية أخرى ان « المركزية لا يمكن أن تتفق مع الحكم الدستوري » ، لان هذا الحكم يقتضي اشتراك ابناء الامة جميعا في كل حق وفي كل واجب ، والاشتراك مع ذلك التباين غير ممكن على مبدأ المركزية ، ثم أشار اسكندر عمون الى أن الحكم المركزي يقتضي بطبيعته أن تكون السلطة محصورة في عنصر واحد من عناصر الامة ، فيصبح

موقف هذا العنصر تجاه سائر العناصر موقف الخصم الغالب من الخصم المغلوب على أمره كما هو الحال في الامبراطورية . ثم توصل الى النتيجة التالية وهي : ان هذا النظام الفاسد هو السبب في انحطاطنا وعلة كل المحن والمصائب التي حلت بنا ، وانه هو الذي أضاع نصف المملكة ويوشك أن يذهب بباقيها(٤٥) .

لم يكن العرب في هذه الفترة ينادون بالانفصال عن الدولة العثمانية كما كان يتوهم بعض انصار النظام المركزي ، واكد اسكندر عمون : ان هذا الامر بعيد عن الصحة ، وان الامة العربية لاتريد الا استبدال شكل الحكم الذي يرجى منه وحدة الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية ، بالحكم الفاسد ــ الذي يكاد يؤدي بالدولة ــ .. أما اذا أبت الامة التركية الا الهلاك ــ لم يقل العثمانية ــ فالعرب معذورون اذا هم ترددوا قبل أن يلقوا بنفسهم معهم في الهوة .. وأكد أنه يريد استبدال حكم يناسب حاجة كل العناصر على اختلاف شؤونها بنظام الحكم القائم ، فيكون بمقتضاة لاهل كل ولاية الكلمة العليا في ادارة شؤونهم الداخلية ويكون لمجموع الامة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبة الصحيحة لادارة الشؤون العامة . وختم مندوب اللامركزية كلمته موضحا :

« ومعنى ذلك اننا نريد حكومة عثمانية ، لا تركية ولا عربية ، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلايستأثر فريق بحق من الحقوق ولايحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين عربيا كان أو تركيا،أرمنيا أو كرديا مسلما أو مسيحيا اسرائيليا أو درزيا ....

هذه هي فوائد اللامركزية التي نطلبها ، فاذا نفذ الاصلاح بمقتضاها أمنا غوائل الحدثان واسترجعنا باذن الله مركزنا القديم بين الامم الكبرى . هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة، وان كان لابد لهذهالقاعدة أيضا من شهداء فكلنا مستعدون» (٤٦) .

ولم يكن ممثلو حزب اللامركزية وحدهم قد اتجهوا الى ابراز اللامركزية كعلاج لاوضاع الامبراطورية وحل لمطالب العرب ، بل ان ممثلي جمعية العربية الفتاة السرية ، اتجهوا الى ابراز مبدأ القومية ، واشار عبد الغني العريسي الى أن للعرب حق الوجود السياسي وان للعرب حقوق رئيسية تتعلق بقوى الدولة الثلاث :

السلطة ، والقوة التشريعية ، والقوة الاجرائية .

وطالب بقسط مشروع من كل وزارة في الامبراطورية ، وبحق الامة العربية فيما يتعلق بالنافعة : « فان كل قرض يقترض من الدول الاجنبية للامور النافعة لنا فيه حق مشروع ، لان هذه القروض تعقد باسم المملكة وما دمنا نؤلف نصف المملكة فلنا حق بأن تصرف نصف هذه القروض للمشروعات العامة في بلادنا العربية » .

كما طالب العريسي بأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية بمادة قانونية تذكر في القانون الاساسي ، لا قانون حكومة موقتة يمكن الغاؤه من حين الى آخر بتقلب الوزارات المستعجلة ...(٤٧)

كما ان رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي اشار الى : « وجوب اشتراك الفريقين (ويعني العرب والترك) بسياسة البلاد ، فانه قد تبين واضحا انه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب اضاعة البلاد ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل . وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافي الاخاء بل الذي ينافي الاخاء هو عدم هذا الاشتراك » وبين الزهراوي ان : « أساس تربيتنا السياسية بعد الان هو بث هذه الفكرة والتعصب لها » ثم يخلص الزهراوي الى القول : « وقد وجدنا اللامركزية من خير الوسائل لظهور أثر هذا الاشتراك خارج العاصمة »(٤٨) كما أكدت كلمة نعوم مكرزل التي القاها باسم المهاجرين ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية ، على أن المهاجرين من وراء البحار « يتمنون لمبادىء اللامركزية الانتشار والانتصار » .

نلمح في خطب المؤتمر العربي الاول في باريس التركيز على اللامركزية الادارية بالاضافة الى اللامركزية السياسة ، أي ان المؤتمر كان يتكلم بما يؤمن به اعضاء حزب اللامركزية الذي تبنى المؤتمر ، وما دعت اليه جمعية العربية الفتاة السرية .

ولكن مما لا شك فيه ان المناقشات التي دارت اثناء المؤتمر تلقي ضوءا واضحا حول محاولة استغلال هذه المفاهيم التي طرحها أعضاء المؤتمر ...

فقد حاول بعض المتفرنسين مناقشة مبدأ المركزية واللامركزية من منطلق أن العرب لايمكنهم أن ينجحوا بأي طريقة من طرق الادارة الا اذا استعانوا في تنفيذها بمعارف الاختصاصيين من الاجانب كمستشارين للعرب ، وقد تزعم هذه المناقشة المحامي (شارل دباس) الذي كان يحضر المؤتمر عن الجالية العربية في باريس ، وختم مناقشته بقوله : « وصفوة القول أنه لا اصلاح حقيقي الا بالمستشارين الاجانب » (٤٩).

وقد رد عليه كل من الشيخ أحمد طبارة وسليم سلام واسكندر عمون بأن : « كل ولاية ادرى بحاجتها واعرف بدخائل نفسها واحق بطلب ما فيه مصلحتها وهذا هو معنى اللامركزية » بمعنى أنه اذا كان هذا يصلح لولاية ما ، فانه لا يصلح لولاية أخرى .

وقد أيد كلام شارل دباس ، الدكتور أيوب ثابت وتساءل : أليست حرية الكلام مباحة للجميع؟ فأجابه الرئيس بالايجاب، وعندها طلب الاثنان وضع نص بهذا الخصوص في برنامج حزب اللامركزية وفي قرارات المؤتمر ...

وعلى العموم فقد أجاب اسكندر عمون ان : « لا داعي يدعو الى وضع نص مخصوص في برنامج الحزب يوجب تعيين الاجانب ما دام لكل ولاية في نظر الحزب حق ادارة شؤونها » وليس للحزب أن يحتم على ولاية أمرا بما كان في حالاتها الخاصة بها ما لا يتفق معه مؤكدا : « ان تقرير حالة واحدة لكل الولايات هو ما نشكو منه اليوم؟ » وهكذا خيب عضو حزب اللامركزية أمل هذه الفئة ، وصدرت قرارات المؤتمر خالية من طلب الاستعانة بالمستشارين الاجانب. وكانت أهم نقاط قرارات المؤتمر العربي الاول في باريس تشير الى : ضرورة الاصلاحات الحقيقية في البلاد العثمانية ، وان يضمن للعرب حق التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ، وان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها ، ويجب أن تكون اللغة العربية معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، وان تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الاقصى .

كما صادق المؤتمر أيضا على لائحة بيروت الخاصة وهي قائمة على مبدأين أساسيين وهما : توسيع سلطة المجالس العمومية ، وتعيين مستشارين أجانب ، وكان قد صدق عليهما في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٣ ، وطلب المؤتمر تنفيذ هذين المطلبين، كما طالب الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها .

والحقت قرارات المؤتمر الاصلية بملحق ينص على عدة نقاط أهمها : « اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها » .

وقد تقرر أن تكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

غير ان هذه الآراء التي وردت في مقررات المؤتمر العربي الاول في باريس قد عدلت ، بالاتفاقية التي تمت بين اعضاء المؤتمر ووقع عليها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العرب في الاستانة ، وبين جمعية الاتحاد والترقي ، ووقع عليها مندوب الاتحاديين مدحت شكري ، وهو اتفاق يقصر عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر وتتكون من اثنتي عشرة مادة، وانما حافظ على عدة نقاط جوهرية منها: التعليم في جميع البلاد العربية يكون باللسان العربي في القسم الابتدائي ــ والاعدادي ويكون بلسان الاكثرية في القسم العالي ، كما يشترط في جميع رؤساء المامورين ما عدا الولاة معرفة اللغة العربية ، والاوقاف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية تترك ادارتها لمجالس الجماعات المحلية ، وتترك الامور النافعة (الاشغال) للادارة المحلية ، والعسكر يخدمون في البلاد القريبة منهم ، أما العسكر الذي يلزم ارساله الى اليمن والحجاز وعسير يرسل ضمن نسبة عادلة من جميع المملكة العثمانية . اما بخصوص الوظائف فقد تم الاتفاق على أن يكون في هيئة الوزارة ثلاثة على الاقل من أولاد العرب ، وكذلك في محكمة التمييز ودائرة المشيخة وجميع الدوائر ، ويعين خمسة ولاة على الاقل من ابناء العرب وعشرة متصرفين ، ويعين في مجلس الاعيان من أولاد العرب بنسبة اثنين من كل ولاية ، ويعطى مقدار لسد عجز ميزانية الدوائر التي تترك ادارتها للولايات فيضاف هذا المقدار الى ميزانية الولاية ويعطي غير ذلك نصف رسوم العقارات على ان يصرف للمعارف ، وكان البند الثاني عشر ينص على التالي : يقبل مبدئيا أن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللسان العربي وينظر في أمر تنفيذه بالتدريج . لقد وقع رئيس الشبيبة على هذه البنود بالرغم من انها ، بالمقارنة ، كانت دون المطالب العربية ، وقد وقعت الاتفاقية تدليلا من قادة المؤتمر عن حسن نواياهم تجاه الدولة العثمانية وتعبيرا منهم عن مرونة سياسية ارادوا بها اعطاء الاتحاديين وانصارهم من العرب ، فرصة أخيرة للتفاهم مع أحرار العرب اللامركزيين .

ومن المعلوم أن اتفاقية باريس لم تنفذ ، ذلك ان حكومة الاتحاد والترقي عندما قررت تنفيذ (الاصلاح) استصدرت ارادة سنية بذلك ، كشفت فيها عن حقيقة سياستها ونواياها ، فقد جاءت الارادة السنية مسخا للاتفاق وتشويها له في أكثرية بنوده وتراجعا تاما عن أهم هذه البنود وهو البند الثاني عشر الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .

ووقف طلعت باشا خطيبا في الحفل الذي أقيم يوم ١٩١٣/٨/٥ في الاستانة ، بمناسبة صدور تلك الارادة السنية ، فأعلن على مسمع من الحضور والقادة العرب : أن موقف العثمانيين من نظام اللامركزية «كان مبنيا على أوضاع الشعوب البلقانية» انما

كنا نعلم نزعات تلك الشعوب ونواياها وكنا نخشى أن يؤدي نظام اللامركزية الى تسهيل وتسريع انفصالهم عنا » ثم يشير الى انفصال تلك الشعوب ولم يعد هناك : « ما يستوجب الاستمرار في سياسة المركزية .. لاننا نعرف نزعاتكم الحقيقية » واكد طلعت باشا للعرب ان السياسة الجديدة ستكون مبنية على التفاهم والمودة الصحيحة ، قائلا : « لن نتردد في المضي معكم الى آخر حدود التساهل في سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم لاننا نعتمد على اخوتكم »(٥٠) .

واذا كان الكلام على هذه الصورة ، فان التطبيق كان غير ذلك . اذ بدات مماطلة الاتحاديين في تحقيق بنود الاتفاقية من جهة ، ومماطلتهم في قضية اعادة افتتاح الجمعيات الاصلاحية وخاصة في بيروت ، بل ومقاومة الاصلاحيين عن طريق المجلس العرفي ، ثم موقفهم من الانتخابات لمجلس المبعوثين ..

واهم من ذلك فقد تمكن الاتحاديون بهذه الطريقة التي اتبعوها من شق أعضاء المؤتمر ، وقد كان لانشقاق عبد الكريم الخليل (رئيس الشبيبة العرب في الاستانة) وعضو مؤتمر باريس ، ثم انشقاق عبد الحميد الزهراوي (رئيس المؤتمر) وقبوله منصب (عضو مجلس الاعيان) ، كان لانشقاقهما أكبر الاثر على تصدع الجبهة العربية وحركة طلاب الاصلاح واللامركزية، مما ادى الى مطالبة الاحرار العثمانيين وفي مقدمتهم اعضاء جمعية العربية الفتاة السرية ، وحزب اللامركزية العلني الى مقاومة الاتحاديين وحكومتهم وانصارهم ، والاصرار على ضرورة اعلان الحكم اللامركزي ، اما العسكريون فقد وجدوا في ذلك الانشقاق ومقدماته الدليل الذي وجده أعضاء الجمعيات الاصلاحية والاحزاب اللامركزية ، ولكنهم وجدوا فيه فوق ذلك دليلا على عدم قدرة المدنيين وعملهم السياسي ــ العلني على تحقيق المطالب العربية فاندفعوا نحو تأسيس تنظيم عسكري سري ، تبلور في جمعية العهد العسكرية السرية والتي تخطت اللامركزية الادارية الى اللامركزية السياسية .

اللامركزية السياسية : « الكونفدرالية » :

طرح مفهوم اللامركزية السياسية في الدولة العثمانية بشكل ظاهر عندما تأسست جمعية (العهد)(٥١) بعد انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ، اي بعد ان ظهرت نوايا الاتحاديين في تمييع ما توصل اليه المؤتمر من بنود ، واتضحت نواياهم تجاه المشكلتين الرئيسيتين القائمتين في الامبراطورية العثمانية آنذاك وهما مشكلة الاستبداد ، ومشكلة التسلط القومي .

فقد اتضحت تلك النوايا وهذه السياسية على انها مركزية استبدادية مقنعة بالدستور تجاه المشكلة الاولى ، وعلى انها مركزية عنصرية طورانية مقنعة بالخلافة تجاه المشكلة الثانية .

ان تلك النوايا وهذه السياسة قد دفعت بمؤسسي جمعية العهد من ناحية المبادىء والاهداف ، الى المزيد من التمسك « بالقومية العربية » التي تتجسم في تأكيد واضح للامركزية سياسية تحل محل اللامركزية الادارية ، وتتخطاها على طريق المزيد من الحقوق القومية ، أو التي تتجسم ، بلغة أخرى ، في حل لاوضاع الامبراطورية العثمانية لتحقق به مقومات الاستقلال القومي السياسي دون أن يصل الى درجة الانفصال عن الدولة العثمانية(٥٢) .

ان بين فكرة اللامركزية الادارية وبين الاستقلال بالانفصال الكامل ، نقطة وقفت عندها جمعية العهد هي :

اللامركزية السياسية ، أو الكونفدرالية ، أو الاستقلال القومي ، في نطاق امبراطورية ثنائية ذات راس رمزي واحد ، كما نصت المادة الاولى من مبادىء الجمعية واهدافها .

ولم يكن وصول اعضاء جمعية العهد الى هذا الموقف وتبنيه ، أمراً فجائيا يفتقر الى المقدمات ... فقد كانت حقوق القوميات في الامبراطورية العثمانية ـ كما بينا ـ مسالة اساسية ومطروحة ، تعددت صيغ الحلول التي تبنتها (الجمعيات) والتنظيمات السياسية تجاهها ، وتطورت هذه الصيغ تطورا سريعا ومتواصلا بلغ مرحلة جديدة نوعيا في مؤتمر باريس ، ولم يلبث أن انتهى في الحرب العالمية الاولى الى مطالبة العرب بالاستقلال والانفصال .

ان المناداة بتكوين مملكة ثنائية ، لحل المشكلة العربية التركية ، لم يكن الاتجاه الذي نادى به العرب وحدهم ، بل اننا نجد اشارات تقول بأن هذا الاتجاه هو اتجاه نادى به بعض الاتراك أيضا . فنجد الكاتبة التركية خالدة أديب تتحدث عن هؤلاء القادة الذين لم تذكر أسماءهم فتقول : « ... كان لديهم رغبة بصورة معقولة في الوصول الى تفاهم مع العرب ، وخلق مملكة ثنائية ببرلمانين منفصلين تحت رئاسة الخليفة السلطان على غرار النموذج النمساوي ـ المجري ، وكانت هذه الفكرة الاخيرة هي التي حدت بالاتراك للحديث عن عاصمة جديدة ، ولقد اقترحت حلب من حيث كونها على الحدود العربية التركية »(٥٣) .

ولابد لنا هنا من الاشارة الى أن الجمعية القحطانية السرية ـ التي شكلت بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ ـ بوقت قصير ، كانت قد سبقت جمعية العهد في الدعوة الى صيغة الكونفدرالية الثنائية ، اذ تبنت الدعوة الى مشروع جديد وجريء هو : « تحول الامبراطورية العثمانية الى ملكية ثنائية » ، وكانت هذه محاولة أخرى لمواجهة المشكلة التي خلقتها مركزية الاتحاد والترقي ، ووفقا لذلك المشروع كانت الولايات العربية ستكون مملكة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية ، وتكون اللغة العربية هي لغة مؤسساتها ، وكانت هذه المملكة جزءا من امبراطورية تركية عربية يقام بنيانها على غرار بنيان الامبراطورية النمساوية ـ المجرية .

وهكذا كان على السلطان العثماني في القسطنطينية ان يلبس بالاضافة الى تاجه التركي ، تاج المملكة العربية ، كما كان امبراطور هابسبورغ يلبس تاج المجر والنمسا .

وتشير الوثائق والكتب(٥٤) الى أن اعضاء القحطانية هم أنفسهم أعضاء جمعية العهد ـ باستثناء المدنيين ـ وان رئيس الجمعيتين هو عزيز علي المصري ، فليس من المستبعد ان يكون برنامج العهد ، هو برنامج الجمعية القحطانية التي لم تعمر طويلا بعد تأسيسها اذ انضم أعضاؤها المدنيون الى الجمعيات العربية ، السرية والعلنية ، التي تأسست فيما بعد ، وأسس العسكريون جمعية العهد بعد فشل تحقيق متطلبات المؤتمر العربي الاول .

ولكن مما يلفت النظر ان الاستاذ توفيق برو يقول : ان عزيز المصري قد أنكر التمثل بذلك النظام أثناء مقابلة شخصية زاره فيها برفقة الدكتور حسن صعب ـ قبل وفاته في الستينات ـ وفسر وجود هذا البند في برنامج جمعية العهد الذي أورده أمين سعيد وغيره ، انه قد يكون تعديلا متأخرا ادخله رفاقه المشرقيون فيما بعد ، ولكن هذا القول لابد وان يقيم في ضوء أوضاع عزيز المصري وقت هذه المقابلة (الناحية الصحية ، والسن)خاصة وان التطلع الى النموذج النمساوي ـ الهنغاري لم يكن غريبا على الفكر العربي ، فقد كان عبد الرحمن الكواكبي قد اشار اليه قبل ظهور جمعية العهد بفترة طويلة في كتابه المشهور « أم القرى » كما ذكرت سابقا ، ومن ناحية أخرى ان المطالبة باللامركزية لم تعد تؤدي الغرض نفسه بعد الحرب العالمية الاولى ، ولم تعد مطروحة على بساط البحث ، حتى يطالب بها أعضاء جمعية العهد المشرقيون ، بل ان الجمعية نفسها قد انقسمت الى جمعية العهد العراقية ، وجمعية العهد السورية ...

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه ان عزيز علي المصري قد نادى بثنائية التاج في الجمعية القحطانية التي اسسها بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ وكرر النداء في جمعية العهد ثم تخطى هذا النداء الى المطالبة بالاستقلال في برنامج الجمعية الثورية التي أسسها اثناء الحرب ، ويقول أحمد قدري في مذكراته ان منشورات هذه الجمعية قد وقعت بين يدي جمال باشا السفاح وتم شنق القافلة الاولى والثانية للاحرار العرب في سنتي ١٩١٥ ، ١٩١٦ على أثر ذلك(٥٥) .

لقد فكرت الجمعيات العربية التي نادت باللامركزية ان تعقد مؤتمرا عربيا آخر ، قبل الحرب العالمية الاولى ، وبدأ الاستعداد له من قبل جمعية العربية الفتاة ، وكانت قد نقلت مركزها من باريس الى بيروت وأصبح على مقربة من متابعة الاحداث وتقييم نتائجها ، وكتب عبد الغني العريسي الى محب الخطيب ـ عضو جمعية الفتاة وحزب اللامركزية ـ أن يهيء أعضاء حزب اللامركزية وخاصة رفيق وحقي العظم لقبول الفكرة ، على أن يتولى حزب اللامركزية اعداد المؤتمر . .

وقد أصدرت جمعية العربية الفتاة ، ثلاثة منشورات قبل الحرب ، عرفت باسم الصرخات الثلاث(٥٦) تدرجت بالمطالبة من المركزية الى اللامركزية الموسعة ، ثم المطالبة بالاستقلال ، وكانت جميعها تطالب بسرعة تحقيق بنود المؤتمر العربي في باريس ، وقد كتبت الاول بأسلوب من يرغب بالتفاهم مع المسؤولين ، وكان عنوانه « الى أولي الامر في العاصمة » وكانت الجملة الاولى على الشكل التالي : نحن عصبة العرب نمد أيدينا اليكم نصافحكم مصافحة الكريم للكريم . . .

ثم تبدأ الجمعية بتحديد مطالبها ، ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ أن من حق العرب مشاطرة الاتحاديين سياسة الملك فيما هو خاص بشأن الامة العربية « فالعرب قاعدة جامعتكم من قبل ومن بعد » .

٢ ـ ان يكون ممثلو العرب في مجلس (المبعوثان) على نسبة عددهم وخصوصا في مجلس الاعيان .

٣ ـ أن تكون الوزارات الجديدة عثمانية لا تركية : « فنحن والارمن كفلاء معكم بحفظ بلادنا وبلادكم ، فكما يكون في الوزارة لجماعتكم حق ، ان يكون لشركائكم » .

اما في السياسة الداخلية فقد طالبت الصرخة الاولى (باللامركزية) وبينت الجمعية ضرر السياسة المركزية التي تتبعها حكومة الاتحاديين بقولها :

« لقد عرف الصغير والكبير ان المركزية في ادارة الشعوب المختلفة لغة وطبيعة تفضي الى انقراض المجموع ، فلكم ايها الاولياء أسوة بالدول العظمى حيث تنفصل الادارات العامة عن الخاصة ، فيقوم كل فريق بشأنه ، فتأتي النتيجة بقوة مادية لا غلبة عليها ومعنوية لا خلاص اليها » وتطالب الصرخة بتقسيم المملكة الى ثلاث مناطق : ولايات تركية ، ولايات عربية ، ولايات أرمنية ، وعلى رأس كل منطقة وزارة صغيرة ـ خاصة ـ يرأسها رئيس يعينه جلالة الخليفة من اهل البلاد ، وهي تتألف من نظارات الداخلية والمعارف والاوقاف والنافعة والزراعة والبوليس والحق العام ، ومجلس نيابي من كل منطقة ينتخبه أهلها .

وبعبارة جامعة مانعة ان كل ما هو عائد لمجموع الامة فمرجعه الوزارة العليا وكل ما هو خاص لكل منطقة فمرجعه وزارة هذه المنطقة دون غيرها(٥٧) .

لقد كانت الصرخة الاولى لجمعية العربية الفتاة تسودها روح التفاهم ، وتفتح الباب على مصراعيه أمام الاتحاديين لمد أيديهم بمساعدة العرب والارمن ، وبذات الوقت كان فيها الشيء الكثير من الوعيد : « فان أجاب أولو الامور الى هذا النداء فأيدينا معقودة بأيديهم ،فهم جوانحنا ان استظللنا، ونحن ردؤهم ان استنجدونا والا كانوا كشاد الحبل وهو في وسطه ، فلا ينتهي العقد حتى ينتهي الشاد بقتل نفسه ... »

اما الصرخة الثانية فكانت موجهة الى ابناء العرب عامة ، وقد كتبت بأسلوب ثوري ، يستفز العرب وضمائرهم لاحياء مجدهم ... تبين الصرخة اضرار الحكم المركزي المتبع في البلاد والذي تعاني منه الامة العربية ، ويؤكد اعضاء جمعية الفتاة : « ان الغاية من صرختهم هذه ليس الانسلاخ عن الدولة العثمانية » أو « التنكر للامة التركية » ، ولكن الغاية منها ان يفهم ابناء العروبة « حقيقة التاريخ الحاضر فيعلموا ان الدولة العليا اصبحت لاتستطيع أن ترد عنهم غارة المغيرين » وتضرب مثلا ضياع طرابلس الغرب وفشل الدولة في البلقان(٥٨) .

وتتعرض الصرخة الثانية الى الحركات الاصلاحية وتشير الى انها غير كافية لحفظ البلاد ، ويطالب اعضاء الفتاة بتطبيق « اللامركزية الواسعة » ويضربون مثلا بدولة المانيا ، والولايات المتحدةودولة النمسا والمجر وسويسرا وامريكا الجنوبية والشمالية ، ويطلبون في صرختهم تطبيق النظام الاداري الذي قدموه في صرختهم الاولى .

وتختم الصرخة الموجهة الى ابناء العرب عامة بنداء : « الى اللامركزية أيها القوم » مع برنامج لتطبيق اللامركزية كانت قد ذكرته الصرخة الاولى وأكدته الصرخة الثانية ومؤداه : « ثلاث وزارات خاصة ووزارة عامة » ثم تنبه الصرخة الى الخديعة : « اياكم والخديعة فتهزأ بكم جماعة العاصمة فيمنحون للولاة توسيع المأذونية » التي يصفها اعضاء جمعية الفتاة بأنها : « أضر حالا وشر مآلا من طراز الحكم الحاضر » معللين ذلك بقولهم : « فنحن نشكو فعالهم وهم تحت مراقبة الاستانة فكيف بهم لو رفعت هذه المراقبة» . ثم يكررون نداءهم ثانية: «فاياكم والخديعةفتوسيع المأذونية ليس من اللامركزية في شيء ، فتبقون بها اما تحت خرق الولاة أو استعباد الاجانب ... »(٥٩)

لم تحمل هذه الصرخات تاريخا معينا لصدورها ، ولكن يمكننا تحديد تاريخها من وثائق اخرى ، في ما بين ٣١ آذار و ٢٥ نيسان سنة ١٩١٤ ، اذ ان الصرخةالثالثة صدرت بعد هذا التاريخ بقليل . واهم ما جاءت به هذه الصرخة (الثالثة) دعوة صريحة للانفصال ، وتضرب مثلا بدولة اليونان التي انفصلت عن الدولة فأصبحت « أرقى من الترك بدرجات ... والجبل الاسود فكان آية في الانتظام ، وانفصل الصرب ... وانفصل البلغار ، .... ان تلك العناصر قد انقذت نفسها من القبر التركي ـ كما تقول الصرخة ـ وجعلت لنفسها مكانة ومنزلة قد تكون لامتنا العربية بل من المحقق ان تكون ... »(٦٠) .

لقد قرر أعضاء جمعية الفتاة ان لاجدوى من التفاهم مع الترك بعد مخاتلتهم ومراوغتهم لتحقيق المطالب الاصلاحية التي تقدم العرب بطلبها : « ... وليعلمن المختالون والمراوغون ان هذا اليوم له ما بعده ، وليعلمن العرب ان حركتهم لن تقف دونها دسائس الساسة وانهم ضاربون هذه الدولة من اركانها حتى تخفق في البلاد راية العرب على سكانها » .

كما أصدر حزب اللامركزية الادارية بيانا شرح فيه اللامركزية وفوائدها ، وطالب بأن تطرح قضية اللامركزية على الامة لاخذ رأيها بأن تصادق على منهاج الحزب عامة كما في كل مملكة دستورية ، وأكد البيان على ان « أفراد هذه الامة رغم مطالبتهم باللامركزية الا انهم يريدون البقاء للدولة العثمانية والحياة مع اخوانهم الاتراك تحت راية الهلال وان العنصر العربي والعنصر التركي لاغنى لاحدهما عن الآخر » كما ان البيان يشير الى « ان العرب قد اجتمعت كلمتهم في انحاء الامبراطورية العثمانية والمهجر على طلب تحقيق الحكم الاداري اللامركزي » حسب مقررات المؤتمر العربي في باريس ، وأشار البيان « ان العرب سيقومون بمظاهرة سلمية يوم نشر البيان وهو

٩/١٠/١٩١٣ فيقف طلاب اللامركزية في العراق وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وأوربا وامريكا أمام ادارات البريد يخاطبون الصدر الاعظم بلسان ينطق بالاخلاص للدولة والحرص على سلامتها ، ويناشدونه تنفيذ أحكام اللامركزية الادارية الواسعة في الولايات العربية واعطاء الشعب حرية في هيئاته النيابية وامور المعارف والنافعة وجميع الشؤون الاقتصادية المحلية واعتبار اللغة المحلية لغة رسمية »(٦١) .

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد مؤتمر ثان يدعى اليه « أبناء الأمة العربية » ويحتج على حكومة الاتحاديين لانها تطارد أعضاء الحزب بتهمة « أنه موجود عندهم ما يسمونه « الاوراق المضرة » ... وبقيت المداولات ما يقارب العام ، فقد وجدت عدة وثائق حول هذا الموضوع منها ، محضر الجلسة الاخيرة للحزب وكانت بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩١٤ ، ووجدت مسودة الدعوة بين أوراق محب الدين الخطيب الذي تمكن من أن يقنع حزب اللامركزية بتبني المؤتمر الثاني للعرب كما اقترحت جمعية العربية الفتاة السرية ، ولكن هذا المؤتمر لم يعقد ، لان الحرب العالمية الاولى قد أعلنت قبل وضع جدول أعمال المؤتمر وتعيين وقت انعقاده وتحديد مكانه ... (٦٢) .

أعلنت الحرب العالمية الاولى بعد خمسة أيام من تاريخ هذه الجلسة ، فقلبت الاوضاع رأسا على عقب ، وطرحت مفاهيم جديدة وحلول جديدة للعديد من القضايا ، خاصة بعد أن زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية في أتون الحرب الى جانب المانيا في ٣٠/١٠/١٩١٤ ، فكان ذلك بداية لمرحلة جديدة تعيشها أوضاع (الرجل المريض) .

مفهوم اللامركزية خلال الحرب العالمية الاولى :

١ ـ في بداية الحرب : التراجع عن طلب تحقيق اللامركزية والوقوف الى جانب الدولة العثمانيـة .

قد يستغرب البعض تقلص انتشار مفهوم اللامركزية وشموليته في بداية الحرب العالمية الاولى ، ذلك ان شبح المطامع الاوربية في أملاك (الرجل المريض) وخاصة البلاد العربية ، قد أصبح واضحا .

وبالرغم من أن موقف العرب في تقرير المصير كان في منتهى الخطورة ، الا انهم وقفوا الى جانب الدولة العثمانية ، بالرغم مما يحمله هذا القرار من تراجع عن المطالب العربية وخاصة عن مطلب تحقيق اللامركزية ، وصدرت بيانات الجمعيات والهيئات الشعبية تطالب ان يقف الجميع الى جانب تركيا ..

فقد كتب رئيس جمعية العهد بيانا أرسله الى أنصاره في الاستانة ودمشق يطلب فيه : « ان لايغريهم شيء في الدخول في أعمال عدوانية ، ضد الامبراطورية العثمانية، لان دخولها الحرب سوف يعرض الولايات العربية للفتح الاوربي ، وان عليهم أن يقفوا الى جانب تركيا لحين الحصول على ضمانات فعالة ضد المخططات الاوربية » .(٦٣)

كذلك أصدر حزب اللامركزية عدة بيانات بهذا المعنى . وكتب رشيد رضا الى أصدقاء الحزب ، والى مسلمي سورية خطابا عاما ، يقول فيه : « ... اشكركم على ما أظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة وبذل الانفس والاموال والثروة لها ، والكف عن طلب الاصلاح فيها ، وتقديركم الحالة الحاضرة »(٦٤) .

وهناك (بعض الوثائق) على شكل رسائل متبادلة بين بعض قادة الحركة العربية، ورسائل من أعضاء الجمعيات الاصلاحية ، تشير الى اتجاهات وآراء أقل تحفظا في تأييد الدولة العثمانية من الاتجاهات والاراء المذكورة ، ولكنها في النهاية تحبذ ضرورة الوقوف الى جانب الدولة العثمانية في الحرب(٦٥) .

غير ان أعضاء جمعية العربية الفتاة طرحوا مفهوم الاستقلال ، بدلا من مفهوم اللامركزية ، اثر اعلان الدولة العثمانية الحرب في ١٩١٤/١٠/٣٠ الى جانب الالمان ، فأصدرت الجمعية قرارا واضحا جاء فيه : « ان غاية العرب هي الاستقلال حفاظا على كيان الدولة العربية لاعداءللاتراك ، أما اذا كانت البلاد العربية عرضة لخطر الاستعمار الاوربي فان الجمعية تعمل مع أحرار العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنبا الى جنب مع الاتراك » (٦٦) .

وهنا لابد من الاشارة الى نقطتين مهمتين تدلان على معالم الصورة في واقع الوطن العربي هذه الفترة :

الاولى : ان قوة الحركة العربية ، المتمثلة بالجمعيات العربية وما يلتف حولها من قوى مؤيدة ، لم تكن في ظروف الحرب وصراع قواها ، القوة الاولى الموجودة على الساحة في المنطقة ، سواء من ناحية الحجم ، أو التأثير او الوسائل ...

الثانية : ان الأوضاع العامة في البلاد العربية ، حينذاك ، كانت أوضاعا سيئة ، سواء أكان ذلك من الناحية المعنوية أو المادية : « فالحالة الاقتصادية سيئة جدا وهي تدمي العيون ، واننا على مقربة من المجاعة ، وما أشاهده من بؤس بعض العائلات يمزق احشائي ... أما الدقيق فقليل في البلدة فضلاً عن أن كثيرا من العائلات لا تملك شيئا ، لان أبواب الرزق قد سدت في وجه العامل والتاجر وسواهما .. »(٦٧) .

وهذا الوضع كان له أكبر الاثر في تأييد الدولة العثمانية من قبل الجمعيات العربية بل والرأي العام العربي ، وان كان مشوبا بالحذر من حيث ربط هذا التأييد بتحقيق المصلحة العربية ،وتعليق استمراره على تنفيذ متطلباتها . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض التطلع نحو أعداء الدولة العثمانية ، رفضا نابعا من وعي الحركة العربية وجمعياتها ، لمطامع هؤلاء الاعداء في الوطن العربي ذاته .

ويشير لورنس الى أن وحدات الجيش الموجودة في دمشق وحلب كانت مستعدة للثورة ، وكان بامكانها أن تسيطر على المنطقة في أول محاولة لانه لم يكن للعثمانيين الا فرقة تركية واحدة عند طوروس ، ولكنها لم تعلن ثورتها(٦٨) .

وهكذا فان الحركة العربية ، بذلك الموقف ، فتحت أفقا رحبا أمام الاتحاديين وحكومتهم ، لفتح صفحة جديدة في التعامل معها ، يقوم على تناسي الصراعات الماضية والالتحام في المعركة القائمة التحاما يمليه ادراك خطورة الموقف، وعلى الاعتراف بالحقوق العربية التي كانت تلك الحركة قد حددتها وناضلت من أجلها ..

وبالمقابل رفع الاتحاديون شعارات التضامن العثماني تحت راية الجهاد المقدس عن طريق النصر ، ومن أبرز مظاهر تلك السياسة التوددية تعيين الفريق زكي باشا الحلبي ــ وهو من كبار ضباط العرب ــ قائدا عاما للجيوش العثمانية المرابطة في سورية والتي كانت أكثريتها الساحقة ، ضباطا وجنودا ، من العرب ، كما كان من مظاهرها كذلك ، اسناد عدد من المراكز العسكرية والمدنية الكبيرة في سورية الى ضباط العرب ورجالهم . ولكن عمر هذه السياسة التوددية كان قصيرا قصرا مذهلا ، وتغيرها كان تغيرا داميا ، فلم يمض على دخول الدولة العثمانية الحرب أكثر من بضعة أشهر حتى حل جمال السفاح محل الفريق زكي الحلبي في القيادة العامة في سورية .

بدأ جمال باشا عهده في سورية بالسير في تلك السياسة التوددية ، التي كان من أبرز مظاهرها مثلا أقواله في الحفلة الادبية التي دعا اليها زعماء الحركة العربية قبل الهجوم على قناة السويس ، حيث قال : « ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه بحذافيره لاصلاح حالة العرب لاوسع بكثير مما قد يخطر ببالكم ، ولست أنا من الذين يتوجسون شرا من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد ، مع انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين متحالفين »(٦٩) .

ولكن سياسة جمال باشا تجاه العرب كان فيها الكثير من الدهاء . اذ عمل على تشتيت القوة العسكرية العربية التي كانت مركزة في سورية ، تحت ستار « حاجة الحرب الى كفاءات الضباط والجنود العرب ، في ساحات أخرى » ، وهذا مخالف

لوعوده من جهة ، ومخالف لمطالب الحركة العربية في أن تحصر مهمات الجيوش العربية في الدفاع عن البلاد العربية ، كما كسب جمال باشا ثقة بعض قادة الحركة العربية وأعضاء المؤتمر العربي في باريس ، وفي مقدمتهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، وهما من دعاة اللامركزية ، وعندما اكشف القناع عن وجهه كسفاح ، كان الاول أحد شهداء القافلة الاولى والثاني أحد شهداء القافلة الثانية من شهداء العرب. وحدث ذلك بسرعة مذهلة فلم ينقض أكثر من بضعة أشهر على أقواله حتى نصبت المشانق في دمشق وبيروت في آب (أغسطس) سنة ١٩١٥ وفي مايس سنة ١٩١٦ . وبالرغم من أن تنفيذ حكم الاعدام قد تم بسرعة مذهلة فان جمال باشا كان يبرر أعماله تجاه قافلة الشهداء الاولى بالنشرات التي تدعو الى تطبيق اللامركزية الادارية ، فيشير الى أنه قرأ في الصحف في شهر مايو سنة ١٩١٥ حملات عنيفة موجهة من اللجنة اللامركزية على الحكومة العثمانية ، وانه لم يجد مبررا لذلك ، خاصة عندما جاءه أسعد الشقيري ، مفتي الجيش ، وأخبره ان الثورة بدأت علاماتها في سورية ، كما اكد له كامل الاسعد : ان جماعة المصلحين قد أساؤوا استعمال الثقة التي وضعها جمال باشا في رضا الصلح وعبد الكريم الخليل وغيره واكد كلام أسعد الشقيري (٧٠) .

اما الاعمال المادية المعزوة للمتهمين من قافلة الشهداء الثانية ، فهي أعمال متباينة تختلف من مجموعة الى أخرى ، ولكنها تتركز أساسا في نقطتين : الانتساب الى جمعية عربية هي حزب اللامركزية ، وهي على حد نص بيان جمال باشا السفاح الصادر سنة ١٩١٦ ــ في معرض تفسير أحكام الديوان الحربي العرفي « الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية السلطة العثمانية وجعلها امارة مستقلة »(٧١) والنقطة الثانية احراز رسائل سياسية اختلق الاتحاديون بعضها وعزوا البعض الاخر الى زعماء الحركة العربية اللامركزيين ...

ان أقصى ما يمكن قوله حول هذه التهم ان نفرا قليلا من اعضاء حزب اللامركزية، بالتعاون مع بعض زعامات القطاعات الطائفية من أصدقاء الحزب ، المتصلين بفرنسا والمتعاملين معها ، كانوا هم المتحركين في ذلك الوقت ، وبقطع النظر عن ثبوت التهم أو عدم ثبوتها ، فان السياق التاريخي العام للوقائع يدلنا على أن هناك سياسة تعبر عن خطة مرسومة مسبقا للتخلص من أحرار العثمانيين العرب الذين يطالبون باللامركزية، وان مشانق جمال باشا نصبت للتخلص من هؤلاء اللامركزين ، وان السياسة التوددية للاتحاديين كانت سياسة تكتيكية لضرب القضية العربية بعد أن ينالوا ثقة قادة الحركة، وهكذا يمكننا القول ان الحركة العربية أصيبت بضربة شديدة فخسرت عددا كبيرا من خيرة شبابها وقاداتها ، وكان حزب اللامركزية ، والذين نادوا باللامركزية ، اكثرهم

تأثرا بتلك الضربة ، لدرجة ان حزب اللامركزية انتهى على أثرها ، وتحولت المطالبة باللامركزية الادارية ، والمطالبة باللامركزية السياسية ، الى المطالبة بالاستقلال التام والانفصال عن الدولة العثمانية ، بل وبالثورة على هذه الامبراطورية ، فأعلن الشريف حسين في مكة ـ بمؤازرة قادة الحركة العربية ـ الثورة العربية الكبرى ، وكان هدفها الاساسي الحصول على الاستقلال ، وهو الهدف الذي حددته جمعية العربية الفتاة ، وجمعية العهد وغيرها ..

ان الهدف العربي الذي ظهر قبل الحرب العالمية الاولى ، قدتحدد وتأكد خلالها ، وقامت الثورة العربية الكبرى من أجل تحقيقه الا وهو : اقامة دولة مشرقية كبرى ، تضم الاجزاء العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، فتكون دولة عربية كبرى ، موحدة ومستقلة ، وتكون خطوة على طريق وحدة عربية شاملة ، وقد حدد العرب دولتهم هذه: بخط يمتد من الاسكندرونة ويتجه نحو الجنوب حتى يصل رفح فالحدود المصرية ، ثم التيه فالبحر الاحمر حتى باب المندب ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة فحدود ايران ، ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد ، ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب الى الجنوب فينتهي عند الاسكندرونة »(٧٢) .

وقد ظهرت هذه المطالب العربية في محادثات حسين ـ مكماهون ، بعد أن سلم اعضاء الجمعية العربية ، هذا (المصور الجغرافي) الى الامير فيصل ، فحمله بدوره الى والده الشريف حسين لتصبح الثورة العربية ، وأرض الحجاز ، النقطة المنطلق لرجالات الحركة العربية وتحقيق الهدف العربي الموحد .

ان مشاورات الحسين كانت سببا في كف الاتحاديين عن محاولة ابادة العرب في سورية والعراق ، وقد ادت الى تخفيف ما شرعوا فيه من مذابح ، ثم انها كانت خطوة هامة واولية لاخراج القضية العربية من حيز الفكر والخاطر والامنية الى ميدان الحقيقة الواضحة(٧٣) .

وعندما أخذت القبلة والمنار ، تنشران الاهداف التي تسعى الثورة العربية الى تحقيقها وبأن « الحسين قام بأعظم خدمة للعرب والمسلمين » لانه « باستقلاله هذا قد جعل الحجاز تحت سلطة اسلامية خالصة ، ويوشك أن يكون هذا مقدمة لدولة عربية اسلامية كبيرة »(٧٤) أخذت وفود المسلمين والعرب تتوجه نحو الحجاز لتحقيق الحلم الذي طالما راود العرب الاحرار بعد أن تأكد أن « الحركة العربية لم تقم الا لعز العرب »(٧٥) .

ولم يكن هذا التأييد مقتصرا على البلاد العثمانية ، بل انه كان أكثر شمولا من ذلك ، اذ تجاوز البحار الى المهجر ، فأيد اللامركزيون ــ الاستقلاليون هذه الثورة ورحبوا بقيامها داخل البلاد التركية ، وتفاءلوا بتحقيق الاستقلال للعرب واصبحوا يمنون النفس بالمستقبل المشرق المنير بزوال دولة الاتراك الهرمة(٧٦) .

اما صحف المعارضة فقد كانت تلوح بتعذر قيام هذه الدولة العربية الكبرى المستقلة ، خاصة وان العداء بين أمراء الجزيرة يحول دون تأسيس دولة عربية ، كانت الصحف الموالية تؤكد : « ان الشريف لقادر على تلافي ذلك بعقد اتفاقية بين الجميع على قاعدة اللامركزية » . وتهون الامر على المعارضين بقولها : « اذا سقطت الدولة في هذه الحرب لم يكن استقلال أمير الحجاز أحد أسباب سقوطها ، وان سلمت من الحرب ومن هؤلاء (الملاحدة) وعادت دولة اسلامية قوية ، لم يكن فيما تقدم من استقلال الشريف ما يمنع من العودة الى الوفاق والاعتصام »(٧٧) .

وهكذا بقيت قضية الاستقلال مطروحة بشكل علني منذ اعلان الثورة وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ولابد لنا من الاشارة الى أن الاستقلاليين المؤيدين للاستعمار قد كشفوا الاقنعة عن وجوههم مهللين لتدفق الجيوش الفرنسية على السهول السورية « كالسيل العارم الجارف الذي لا يقف في سبيله عائق ولا يرد لتياره حاجز . . . »(٧٨) فهذا التيار له مجال آخر في بحث آخر .

الوثائق :

وثائق : من مكتبة محب الدين الخطيب

سيرة جيل : مذكرات محب الدين الخطيب (مخطوط لم يطبع بعد) .

الكتب العربية :

أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، ط ١

أسعد داغر : ثورة العرب ، القاهرة ١٩١٦ .

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، دار احياء الكتب العربية بمصر

توفيق برو : العرب والترك ، معهد الدراسات ــ القاهرة ١٩٦٠

جمال باشا : مذكرات جمال باشا ، تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٣

حقي العظم : حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وسورية وفلسطين ، القاهرة ١٩٢٤

رفيق العظم : مجموعة آثار رفيق بك العظم ، القاهرة ١٣٤٤ هـ

ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ط٣ ١٩٦٥

عزت دروزة : الحركة العربية الحديثة ، ط١ ، صيدا

محب الدين الخطيب : المؤتمر العربي الاول ، القاهرة ١٩١٣

مصطفى الشهابي : القومية العربية ـ تاريخها وقوامها ومراحلها ، معهد الدراسات ، ط٢ ، ١٩٦١

الصحف والمجلات :

١ ـ ابابيل ، بيروت ، حسين محي الدين حبال سنة ١٩١٢ ـ سنة ١٩١٣ .

٢ ـ الاتحاد العثماني ، بيروت ، أحمد حسن طبارة ، سنة ١٩١٢ ـ سنة ١٩١٣ .

٣ ـ الاهرام ، القاهرة ، جبرائيل بشارة تقلا ، سنة ١٩٠٩ ـ سنة ١٩١٤ .

٤ ـ الحضارة ، القسطنطينية ، عبد الحميد الزهراوي ، سنة ١٩١١ ـ سنة ١٩١٢ (جريدة أسبوعية سياسية) .

٥ ـ السهام ، البرازيل ، جورج اسحق ، سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٩ .

٦ ـ القبلة ، مكة المكرمة ، محب الدين الخطيب ، ١٣٣٤ ـ ١٣٣٦ هـ (نصف اسبوعية) .

٧ ـ المنار ، القاهرة ، محمد رشيد رضا ، سنة ١٩٠٨ ـ سنة ١٩١٨ (مجلة اسلامية) .

٨ ـ المحروسة ، القاهرة ، الياس زيادة ، سنة ١٩١٤ .

٩ ـ المفيد، بيروت، عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس، سنة ١٩١١ ـ سنة ١٩١٣ .

١٠ـ المقتبس ، دمشق ، محمد كرد علي ، سنة ١٩٠٨ ـ ١٩١٦ .

١١ـ المقتطف ، القاهرة ، فارس نمر ـ يعقوب صروف ومكاريوس شاهين ، م٣٣ ، ج١

١٢ـ المؤيـد ، القاهرة ، علي يوسف ، سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٣ .

Carrespondance d'Orient: Revue economique, politique, et litteraire, Directeur Georges simma, Paris, 1906 - 1915.

الكتب الاجنبيـة :

T.E Laurance, **Seven Pillars of Wisdom,** Oxford 1943.

SAAB, Hassan, **The Federalists of te Ottoman Empire,** Amisterdam 1958.

Z. N. Zeine, **Arab Turkish Relations and the Emergence of Arabe Nationalism,** Beirut, 1958.

* * *

الحواشـــي :

(١) تطلق كلمة داماد على (صهر) آل عثمان ، وكان (الداماد محمود) قد هرب مع ولديه سنة ١٨٩٩ الى فرنسا ، وبدأ يرسل رسائله الى السلطان واغلبها كتب بلهجة شديدة وينبه السلطان فيها الى الاعمال التي يرتكبها بحـق شعبـه ، ويطالب بالاصلاحات الدستورية كشرط أساسي لعودتـه ، وقـد توفي الدامار سنة ١٩٠٢ فاحتل ابنـه (صباح الدين) مركزه واخذ على عاتقه تحقيق رسالة والده .

وكان الامير ((قد اغرم بمدرسة ـ لوبلاي ـ الاجتماعية ، واعجب بآراء ـ ادمون دوملن ـ الذي كان من اركان هـذه المدرسة حـول التربية اللاتينية والتربية الانكلوسكسونية ، لذلـك اعتقـد بوجوب اتباع مبادىء التربية الانكلوسكسونية والاهتمام بتنمية قابليات ـ التشبث الشخصي ـ في الافراد)) ، (ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية) ، ط ١٩٦٤ ، ص ١١٩ .

(٢) من هذه التنظيمات : ((عثمانلي حريت جمعيتي)) من اعضائها جمال وطلعت ، و ((الجمعية السرية)) ومن اعضائها كمال اتاتورك وجمعية : ((الاتحاد العثماني)) ((ومنظمة المركز العمومي)) .. (راجع كتاب عثمان نوري ، عبد الحميد ودورسلطنتي.

(٣) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٥٥ ـ٥٦ .
مأخوذ عـن مؤلف تركي بعنـوان : الاحـزاب السياسية في الدولة العثمانية .

(٤) راجع ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٩ وما بعدها .

(٥) اعلنت جمعيـة النهضة العربيـة السرية عـن وجودها ،وكذلك جمعية الشوري العثمانية ، واحتفل اعضاء الجمعيتين باعلان الدستور في الاستانة ودمشق والقاهرة وبينوا في خطبهم كيف يعدون العدة لمثل هذا اليوم ((فتحل المشاكل على مبادىء دستورية وتتآلف القلوب)) .

(٦) من مبادىء جمعية الاتحاد والترقي : النهوض بالامبراطورية العثمانية على أساس مركزي بقيـادة وسيطرة العنصر التركي الطوراني .

(٧) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٨٠ .

(٨) المنار ، م ١٢ ج ٤ ، ص ٣٩٨ ، من مقال لمحمد انشاء الله .

(٩) المقتطف ، م ٣٤ ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(١٠) جريدة المؤيد ، بتاريخ ١٩١١/٤/١٨ .

(١١) Z. N. Zeine, Arab Turkish Relations andthe Emergence of Arabe Nationalism, Beirut 1958, P. 187.

(١٢) د . سهيلة الريماوي ، مجلة دراسات تاريخيةالعدد التاسع .

(١٣) المقتبس ١٩٠٨/٢/٢٦ ، والهلال سنة ١٧ ،ج ٥ سنة ١٩١٩ ، ص ٣١١ .

(١٤) Correspondance d' Orient mc Annee N. 8, 15/1/1909, p. 51.

(١٥) عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، عدد ٨٦ ، ٨٧ ، ١١/٣٠ و ١٩١١/١٢/٧ .

(١٦) جريدة المفيد ، ٢٨ ايلول سنة ١٩١١ .

(١٧) جريدة الاهرام ، ٩ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٩١١ .

(١٨) المنار ، م ١٤ ، جـ ١١ ص ٨٦٢ – ٨٦٧ (من تقرير نائبي طرابلس ناجي بك وصادق بك) .

(١٩) المفيد ١٩١٢/١/٦ .

(٢٠) راجع كتاب حقي العظم ، حقائق عن الانتخابات النيابيـــة في العراق وسوريا وفلسطين ، ص ٩ – ص ١٥ .

(٢١) الاهرام ١٩١٢/٧/٥ ، والمؤيد ١٩١٢/٧/١٧ .

(٢٢) راجع نص بيان عصبة ضباط الانقاذ في جريدة المؤيد بتاريخ ١٩١٢/٨/١ .

(٢٣) الاهرام ١٩١٢/٢/١٦ .

(٢٤) راجع اسماء اعضاء اللجنة في المفيد (١٩١٢/١٢/٣٠) ومنهم : سليم علي سلام ، احمد مختاربيهم، احمد طبارة ، كامل الصلح ، حسن الناطور ، البير سرسق ، جميل الحسامي و (خليل زينـــة والدكتور ايـــوب ثابت مـــن جمعية النهضـــة اللبنانية المسيحية) وغيرهم . وتتالف اللجنة من ٢٥ عضوا .

(٢٥) راجع اللائحة في ، المنار م ١٦ ، جـ ٤ ، ص ٢٧٥ ، وكتاب اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٦٢ – ٦٧ .

(٢٦) المفيد في ١٩١٣/١/٢٢ .

(٢٧) المنار ، م ١٦ ، جـ ٤ ، (ابريل) سنة ١٩١٣ .

(٢٨) ابابيل ، بيروت ، ١٥ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ .

(٢٩) المفيد ، بيروت ، ٩ نيسان سنة ١٩١٣ .

(٣٠) الاتحاد العثماني ، بيروت ، ١٨ نيسان سنة ١٩١٣ .

(٣١) رفيق العظم ، آثاره ، المقدمة بقلم رشيد رضا.

(٣٢) من وثائق محب الدين الخطيب .

(٣٣) جريدة الاهرام ١٩١٣/٤/١٥ .

(٣٤) جريدة المحروسة ، مقالة بقلم د . شبلي شميل بتاريخ ٢٥ آذار سنة ١٩١٣ بعنوان اللامركزية والعمران .

(٣٥) وثيقة : من اوراق محب الدين الخطيب .

(٣٦) وثيقة : من اوراق محب الدين الخطيب .

(٣٧) المنار ، م ١٦ ، جـ ٦ ، سنة ١٩١٣ .

(٣٨) المنار ، م ١٦ ، جـ ٣ ، ٨ مارس سنة ١٩١٣ .

(٣٩) الاكسبرس ، الاسكندرية ، تاريخ ٩ مارس ١٩١٣ .
مما تجدر الاشارة اليه أن هـذه الاسماء هي اسماء الهيئة الادارية لحزب اللامركزية .

(٤٠) المصدر السابق .

(٤١) المحروسة ، القاهرة ، ٢٥ مارس سنة ١٩١٣ .

(٤٢) المؤيد القاهرة ، ٢٩ مايو سنة ١٩١٣ .

(٤٣) القنصلية العامة الفرنسية في سورية رسالة من السيد كوجيه قنصل عام فرنسا في بيروت ، الرقم ٩٧ تاريخ ٦ (مايو) أيار سنة ١٩١٣ .

(٤٤) القى الزهراوي خطابة حول : تربيتنا السياسية وعبد الغني العريسي : حقوق العرب في المملكة العثمانية ، وندرة مطران : الحياة الوطنية في البلاد العربية والعثمانية ، ونعوم مكرزل : المهاجرون ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية .

(٤٥) كتاب المؤتمر العربي الاول صادر عن اللجنة العليا اللامركزية ، القاهرة ١٩١٣ .

(٤٦) كتاب المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس ، صادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، القاهرة ١٩١٣ ، وكتاب وجيه كوثراني ، ص ١٠٤ ، دار الحداثة ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٠ .

(٤٧) راجع : خطاب عبد الغني العريسي ، في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ٤٢ — ص ٥٠ .

(٤٨) من خطبة الزهراوي ، راجع كتاب المؤتمر الاول، ٣٦ — ٣٧ .

(٤٩) من الواضح وجود بعض المتفرنسين بين اعضاء المؤتمر ، ولكن لا يجوز أن تعمم هذه الصفة على جميع الاعضاء كما يفعل البعض .

(٥٠) ساطع الحصري ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٦ .

(٥١) ان ربط الاحداث بعضها مع البعض في تلك الفترة يرجح تاريخ تأسيس العهد في اواخر سنة ١٩١٣

(٥٢) تنص المادة الاولى : على ان جمعية سرية أنشئت في الاستانة وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (من اوراق محب الدين الخطيب) يؤيده (امين سعيد في كتابة الثورة العربية الكبرى) م . ص ٢٦ .

(٥٣) Dr. SAAB, The Arab Federalists of the Otto. Empire, p. 237.

(٥٤) وثائق محب الدين الخطيب ، وكتب : امين سعيد ، وجورج انطونيوس ، وعزت دروزة ... وغيرها .

(٥٦) من اوراق محب الدين الخطيب .

(٥٧) الصرخة الاولى ، من وثائق محب الدين الخطيب .

(٥٨) الصرخة الثانية ، من اوراق محب الدين الخطيب .

(٥٩) المصدر السابق .

(٦٠) من اوراق محب الدين الخطيب ، الصرخة الثالثة .

(٦١) راجع نص البيان في المنار ، م ١٦ ج ١١ ، ص ٨٤٩ ـ ٨٧٩ ، وايضا وثائق محب الدين الخطيب .

(٦٢) محضر جلسة ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ ، من اوراق محب الدين الخطيب .
ومن المعلوم انه في ٢٨ تموز يوليو ١٩١٤ اعلنت امبراطورية النمسا ـ المجر الحرب على العرب .

(٦٣) Dr. SAAB: The Federalists of the Ottoman, Empire

(٦٤) من اوراق محب الدين الخطيب يؤيده : اسعد داغر ثورة العرب ص ١٣٧ .

(٦٥) رسالة للضابط سليم بك الجزائري وهو من اعضاء القحطانية والعهد ، ورسالة من مختاربيهم وهو من اعضاء اللجنة الاصلاحية في بيروت (من اوراق محب الدين الخطيب) .

(٦٦) احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ، تؤيده اوراق محب الدين الخطيب .

(٦٧) من اوراق محب الدين الخطيب رسالة من عبد الغني العريسي بتاريخ ١٤/٩/١٩١٤ .

(٦٨) T. E. Lourance: seven Pillors of wisdom p. 51.

(٦٩) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٤٠ .

(٧٠) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٤١ .

(٧١) المصدر السابق .
اكثرهم من اعضاء جمعية العربية الفتاة ، ولكن الجمعية كانت سرية ولم يكتشف الاتراك وجودها فنسبوا الحزب اللامركزية العلني ..

(٧٢) د . سهيلة الريماوي ، مجلة قضايا عربية ، السنة السابعة ، عدد ١١ ، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ .

(٧٣) المنار ، م ١٩ ج ٣ ، سنة ١٩١٦ .

(٧٤) المصدر السابق .

(٧٥) جريدة القبلة ، مكة المكرمة ، ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ هـ .

(٧٦) جريدة السهام ، البرازيل ، ٢٥ ايار سنة ١٩١٨ .

(٧٧) المنار ، م ١٩ ، ج ٣ ، سنة ١٩١٦ .

(٧٨) اللطائف السورية ، مصر ، ٧ اكتوبر و ٤ مارس سنة ١٩١٨ .

★ ★ ★

الطباعة ودورها في النهضة الأوربية وفي اليقظة العربية

د . ذوقان قرقوط
جامعة دمشق

يعرف (جان دلومو Jean Delumeau) النهضة بانها ((ارتقاء اوربا في ذلك العصر الذي تقدمت فيه حضارتها بصورة حاسمة ونهائية على الحضارات الاخرى (اونيفر سالس) . ولقد كانت وسائل النهضة التي اخذت تنتشر وتعم امم اوربا بداية التفاوت بين هذه الامم الاوربية وسائر امم العالم . ولابد لنا لفهم تخلف العالم الثالث من العودة باصوله الى ذلك العصر ، العصر الذي فتحت فيه الاجتياحات البرتغالية والاسبانية الافاق امام اوربا للهيمنة على العالم ، وراحت خيرات الدنيا وكنوزها وذخائرها تتدفق اليها .

ففي حين خرجت اوربا بوسائل النهضة (مخترعات ، ارتيادات جغرافية في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، نهب الشعوب ، تجديد اساليب العلوم والتعليم، نشر التراث القومي والعالمي ...) من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، دخلت امم أخرى ، كالامة العربية ، على الرغم من تقدمها الحضاري ، بل وتفوقها حينذاك،الى ظلمات التاخر ((العصور الوسطى)) . وهكذا اختل التوازن . فالبعض يعتبر أن عدم قدرة العرب على تجاوز الظروف التي حالت دون تفاعلهم تفاعلا ايجابيا مباشرا مع عوامل النهضة يشكل بحد ذاته قصورا ذاتيا . ويرى اخرون للعرب مبرراتهم في ظروف الصراع المحتدم حينئذ بين العرب المسلمين واوربا ، وان ما يكشف عن القصور الذاتي أو عدمه هو مدى استجابة العرب الان لتحديات العصر . ولا شك في ان اولى وسائل النهضة الاوربية الى التفوق كانت ، في ذلك الحين ، هي الطباعة الحديثة ، كوسيلة متقدمة لنشر التراث والفكر . هذه الوسيلة التي نستعرض هنا جانبا من تطورها في الغرب وفي البلاد العربية .

قبل انتشار فن الطباعة في اوربا ، كانت الوسيلة الى المعرفة في العالم واحدة ، وان تفاوتت العناية والاهتمام بها من بلد الى آخر ، وتكاد تنحصر بالسماع والرواية

والاخبار المتناقلة والمخطوطات المتداولة .. لذلك كان النسخ والاستنساخ ، الى جانب الرحلات القليلة وتناقل التجار للاخبار والقصص والجواسيس والعيون .. وسيلة الحضارات في العالم للاتصال والتقدم .

الا أن هذه الوسيلة لم تعد تكفي أوربا القرن الخامس عشر ، حيث كانت الاقوام، اثر عصر الامبراطوريات ، تتشكل في امم ودول آخذة في التمايز بعضها عن بعض ، وراحت لغاتها تنفصل عن اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة ، وتتكون ، من لهجاتها المحلية ، في لغات جديدة ، سرعان ما اتخذت طابعا قوميا اقليميا .. وقياسا على ذلك كانت المعرفة بالوسائل المألوفة تقتضي عملية مزدوجة : من جهة اتقان اللغات القديمة، مصدر هذه المعرفة : اليونانية ، اللاتينية ، العبرية ، العربية ، الفارسية ، الهندية ، الصينية .. ومن جهة اخرى استيعاب اللهجة الجديدة أو اللغة الناشئة ، الآخذة في التكون : الفرنسية ، الايطالية ، الالمانية ، الانجليزية .. الخ . واذا كان من السهل تعلم اللغة الناشئة واتقان الكتابة بها ، لارتباطها بالحياة اليومية ، وبالامور الدارجة ، وبالتالي القيام بعملية النسخ المطلوبة حينئذ لنقل المعرفة ونشر الراي ، فان تعلم اللغات القديمة كان متعذرا الا على القلة النابغة ، وهي بالقطع ممن لايتوافر لها الوقت الكافي للقيام بعملية النسخ أو الانقطاع لها .

ومن جانب اخر قد يكون الاهم ، والحافز الاقوى ، كان عهد الحروب الصليبية قد ولى وهو العهد الذي كان بالحرب والتجييش وضبط التعصب ... يحمي العقيدة من التفتت والانحلال ... وصار الاسلام ، تحت رايات العثمانيين ، بعد سقوط القسطنطينية وبيزنطة ، يدق أبواب اوربا بعنف ، وانطلق حداة النهضة والاستنهاض من امثال* ايراسم Erasme) يجوبون اوربا ويقرعون اجراس الخطر .. للوقوف في وجه الاسلام . ومن هنا اشتداد الحاجة الى ترويج الفكر والتنوير والحماية ، وبالتالي الى (فن) الطباعة للايفاء بمتطلبات الصراع السياسي والمذهبي المحتدم في الداخل والخارج .

★ ★ ★

ولم تكن فكرة التدوين والطباعة ونشر الراي واذاعته ، بنت ساعتها او جاءت من الفراغ . فقد مرت ، عبر تاريخ البشرية ، بمحاولات عديدة ، نابعة من النزعة الخالدة للبقاء ، فالمصريون كتبوا على ورق البردي ونقشوا على الصخر ، والسومريون

(*) ايراسم Erasme هو ديديه ايراسم من رواد الحركة الانسانية في اوربا النهضة (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦) يتمتع بفكر موسوعي. تناول المجتمع في عصره، وبخاصة الاجواء الدينية فيه ، بنقد عنيف ولكن بتعقل حذر . اهم اعماله ((مديح الجنون)) الذي طبع لاول مرة في بال (سويسرة) .

والاكاديون توصلوا الى كتابة الاوامر والمعلومات على قوالب من الآجر تنقش قبل حرقها ، وشاعت هذه الطريقة عند الصينيين حوالي سنة ٦٠٠ م ، غير انهم اتخذوا الخشب بدلا من الاجر في البداية ، ثم الورق(١) وذهب المستشرق (هامر بورجستال Hammer Purgstall) الى ان العرب اخذوا هذه الطريقة عن الصينيين على أثر فتح العرب لاجزاء من الهند واتصالهم بالصين ، ثم نقلوها معهم الى الاندلس . ويستدل على ذلك بنصوص من بعض الكتب الاندلسية ، منها ما ورد في كتاب الحلة السرية لابن الاثير من ان بدرا مولى الامير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ثم يبعث بها فتطبع . ومنها ان تجار المرية بالاندلس كانوا يبصمون بضائعهم بخاتم محفور من الخشب يرجع تاريخه الى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٥٠ م) (٢) وذلك قبل محاولة غوتنبرغ بمائة عام* .

غير ان المقصود بفن الطباعة هنا ليس مجرد كتابة كلام على ورق او حفره على خشب او احداث صورة لشيء بمداد ... وانما المقصود بذلك فن الطباعة الذي توصل اليه غوتنبرغ لاول مرة عام ١٤٤٠ م ، والذي احدث انقلابا في فكر الانسان وحياته ، ونقل أوربا عشرات السنين الى الامام ، وهو نقش الحروف المفردة على المعادن بشكل يجعلها تجمع فتصبح كلاما يطبع على الورق ، ثم تحل ويعاد جمعها بصيغة اخرى فتطبع كلاما اخر وهكذا ... ثم وضع هذه الحروف المجموعة في آلات تطبع منها نسخا كثيرة في وقت قصير . فاذا به وسيلة لنشر العلوم والمعارف وترقية الافكار وبالتالي نشر الرأي والاطلاع على مجريات الامور .

وما كاد فن الطباعة ، على هذا النحو ، يظهر حتى اتجه به الاوربيون وجهة دينية متلائمة مع الروح التي كانت حينئذ تصبغ كل شيء بصبغتها ، غرضها طبع الانجيل بلغته الاصلية من جهة ، ثم نشر ارائهم الدينية بين غيرهم من أصحاب اللغات الشرقية من جهة اخرى . ولذا لم يمض على اختراع الطباعة بالحروف المفردة قليل وقت حتى كان ابطال تلك الصناعة قد اتجهوا الى عمل حروف لطبع اللغات الشرقية . فكانت العبرية اول لغة شرقية اجتذبت عناية المهتمين بالطباعة ، باعتبارها لغة الانجيل والتوراة ، وكانت العربية ثانيتها(٣) .

(*) ج . غوتنبرغ J. Gutenberg مخترع الطباعة بالحروف المتحركة (١٤٤٠ م) . عمل في (ماينس) منذ ١٤٤٨ م بالاشتراك مع (ج.فوست J. Fust) وطبع الطبعة الشهيرة من الكتاب المقدس المسماة بطبعة « الاثنين واربعين سطرا » .

قامت اول مطبعة عربية في (فانو Fano) بايطاليا ، امر بانشائها البابا يوليوس الثاني في اوائل القرن السادس عشر ، وعهد بهـا الى الطباع جريجوري جرجس البندقي . وقد اصدرت هذه المطبعة في سنة ١٥١٤ أول كتاب طبع باللغـة العربيـة وهو كتاب « صلاة السواعي » حسب طقوس كنيسة الاسكندرية ، ويقع في ٢١١ صفحة . ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوه ، فطبع بها في سنة ١٥١٦ م سـفر الزبور بأربع لغات ، هي العبرية واليونانية والعربية والكلدانية ، ومع كل منهـا ترجمة لاتينية مطابقة لها . ثم انتقلت الطباعة العربية بعد ذلـك الى البندقية ، وطبـع بهـا القرآن باللغة العربية في سنة ١٥٣٠ م ، لكن النسخ اعدمت خوفا من تأثيره فـي عقائد المسيحيين .

وما لبثت الطباعة باللغة العربية ان نالت النصيب الاوفر من عناية المطابـع ، فكثرت مطبوعاتها العربية ، وعلى الاخص مطابع روما . ففي سنة ١٥٦٦ اصـدرت مطبعة مدرسة الاباء اليسوعيين بروما كتاب « اعتقاد الامانة الارثوذكسية في كنيسة روميـة » لاحد آباء اليسوعيين . وتلاه كتاب جدل في صحة الديـن المسيحي لنفس الاب سماه « مصاحبة روحانية بين عالمين » ومن المطابع العربية التي اشتهرت في روما مطبعة آل ميديتشي ، التي اصدرت كتبا عربية عديدة كان أولها كتاب الاناجيل المقدسة في عام ١٥٩١ م . وقد قيل انه جميل الطبع متقن الصور اذ قام بنقشـها على الخشب (تمبيستا Tempesta) امهر حفاري ذلك العصر(٤) . ومنها أيضا مطبعة جميعة انتشار الايمان ، وقد طبعت اكثيرا من الكتب الدينية . وبانتشـار الطباعة في سائر بلدان أوربا أصدرت مطبعة ليدن بهولندا ، التي انشأها « اربينيوس Erpenius) سنة ١٥٩٥ « أمثال لقمان » سنة ١٦١٥ ، و « العهد الجديد » سنة ١٦١٦ ، و « قصة يوسف » من القرآن ، وكان اول كتاب يطبع مضبوطا بالشـكل الكامل . وخطا (سافري دى بريف Savary de Brèves) ، الذي كان قنصلا لـدى الباب العالي ومال به شغفه بالعلوم الشرقية الى الانصراف للطباعة ، خطوة في اتقان الطباعة باللغة العربية ، فحفر في باريس (أمهات) للحروف العربية أجمـل من حروف مطبعة آل مديتشي ثم نقلها الى روما وكان أول كتاب طبعه بها هو « التعليم المسيحي » سنة ١٦١٣ و « المزامير » ١٦١٤(٥) .

الا ان الطباعة ما لبثت ان تحولت تدريجيا من الاغراض الدينية الصرفة الى النواحي العلمية . وواضح ان المخاوف التي انبعثت في ارجاء اوربا اخذت تتبدد ، وبدت آفاق التفوق تلوح امامها بعد الاجتياحات التي قامت بها في اسيا وامريكا اللاتينية ، وتدفق الثروات اليها . لذلك صار الاهم لديها نبش ذخائر الشرق وكنوزه

الفكرية والعلمية ... ففي عام ١٥٨٤ م تم طبع اول كتاب علمي في مطبعة مدرسة الاباء اليسوعيين بروما باللغة العربية وهو « البستان في عجائب الارض والبلدان » . واصدرت مطبعة آل ميديتشي بروما عام ١٥٩٢ م كتاب « مبادىء اللغة العربية » ليوحنا ريموندي ، ثم كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق » لابي عبد الله محمد المعروف بالشريف الادريسي . وفي عام ١٥٩٣ م نشرت هذه المطبعة ايضا « قانون ابن سينا في الطب » وبآخره كتاب « النجاة » ثم الحقته بكتاب « تحرير اصول اقليدس » لنصر الدين الطوسي عام ١٥٩٥ م . واخرجت مطبعة سافري دي بريف « مبادىء اللغة العربية » سنة ١٦٢٢ م لمنصور شبلق ، و « نحو اللغة العربية » بعد عامين لبطرس المعوشي الماروني ، وكتاب « ايساغوجي » في المنطق بعد عام ... ومن اهم منشورات مطبعة لندن ، في بداية انشائها « تاريخ الدولة الخوارزمية » لابي الفداء سنة ١٦٥٠ م ، كما كان كتاب عبد اللطيف البغدادي في الامور المشاهدة بمصر سنة ١٨٠٠ م من اهم ما اصدرته مطبعة اكسفورد ... وهكذا راحت تتابع الكتب العربية المنشورة ، وبتسارع ، من المطابع المنتشرة في عواصم اوربا : من غوتنجن وفيينا وبرلين وليدن وباريس وغيرها بما لا يقع تحت الحصر .

وفضلا عن المخطوطات التي تجمعت لدى أفواج الصليبيين فنقلوها معهم وكانوا يتفاخرون باقتنائها ، كان من مهام قناصل الغرب الاولى اينما كانوا ان يعملوا ما في وسعهم لنقل تراث الحضارات في العالم القديم ، وبخاصة التراث العربي . ففي القسم العربي بمكتبة باريس الوطنية مثلا ، مما حالفني الحظ بالاطلاع عليه ، وآمل ان يوفقني الى نشره قريبا ، رسائل عديدة مازالت محفوظة بخط اليد ، متبادلة بين القناصل في لبنان وسورية ، او موجهة الى من يتصلون معهم من غير رجال الدين ، من مسيحيين ومسلمين وغيرهم . وهي تشير الى مدى ذلك الاهتمام ونوعيته(٦) ، حتى ليمكن القول انه لم يهل القرن التاسع عشر ، قرن الاهتمام المركز بالمسألة الشرقية والانصراف الى التمهيد لاستعمار البلاد العربية ، حتى اتضحت للغرب تيارات الحضارة العربية الاسلامية ومنافذ السيطرة عليها .

★ ★ ★

كانت الحضارة العربية الاسلامية قد تجاوزت ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، منذ زمن طويل ، المرحلة التي اخذت تمر بها امم اوربا في مطلع النهضة ، بما تم للعرب، من قبل ، من نقل عن اليونان والحضارة الهيللنستية ، والفرس والهند وبيزنطة ، مما يلائم اتجاهاتهم ، الى الانتاج في مختلف مجالات الفكر . واشتدت حاجة الناس الى الاطلاع والمعرفة والبحث . وتلبية لهذه الحاجة كثر الوراقون وانتشرت المكتبات

في جنبات الوطن العربي وتزايد عدد النساخ . وكثر الطلب على المؤلفات والمؤلفين . فكثيرا ما كان بعضهم ينتقل من اقصى الغرب الى المشرق سعيا وراء مخطوط سمع بذكره ، او للتتلمذ على عالم طارت شهرته ، او بالعكس . وكان يعتبر عملا مقدسا وجليلا ان يبني الانسان مكتبة عامة أو مكانا يجمع فيه الكتب لنشر المعرفة بين الناس الى جانب نسخ الكتب وكتابتها(٧) . فقد روى الدكتور احمد جاب الله شلبي بما يدعو الى الدهشة والاعجاب عن النساخ في عصور الاسلام المزدهرة انه كان ، مثلا ، « .. بمكتبة بني عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلا ونهارا ، بحيث لا ينقطع النسخ . ولم يقل عدد الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين ناسخا في اية ساعة من ساعات النهار والليل »(٨) .

ولم يلبث الحال بفئة النساخ حتى باتوا يشكلون « طائفة » حرفية ذات أهمية وفعالية في المجتمع . تكتسب اهميتها ، الى جانب ترابطها وتماسكها للدفاع عن مصالحها ، من امور عديدة : من عناية كل فرد بقدسية اللغة العربية وحرصه على الا تقع ورقة فيها كتابة عربية ، على الارض فيطأها أحد بقدمه ، ومن بلوغ التعصب والحماس لفكرة النسخ واتقان الحروف المكتوبة بالخط اليدوي والتفنن بها ، حدا عظيما ، ومن ارتباط هذا الفن بالدين واعتباره تعبيرا عن العاطفة الدينية .

لذلك لا غرابة اذا ما اعتبرت الطباعة ، عند انتشارها ، رجسا من اعمال الشيطان ، من ناحية لان جلد الطباعة يصنع من الحيوانات النجسة فلا يجوز أن تطبع به اللغة العربية المقدسة ، بله الكتب الدينية وخصوصا القرآن الكريم . ومن ناحية ثانية لان الالاف من الناسخين الذين كانوا يكسبون قوتهم عن طريق نسخ الكتب ، رأوا ان مهنتهم اصبحت في خطر وهكذا تضافرت متطلبات العقلية الدينية السائدة حينئذ ودواعي المصلحة ، للحيلولة دون ادخال الطباعة الى البلاد الاسلامية ، وبالتالي الى بلاد العرب . فعندما سمع المسلمون ، في البلاد العربية خاصة ، والبلاد العثمانية عامة ، اول اشاعة عن التجديد المقترح بادخال فن الطباعة ، تولاهم الفزع ، فرأى علماء الدين في ذلك انتهاكا للشريعة ، مدعين أن ثمرة التفكير البشري التي طالما توارثتها الاجيال عن طريق النسخ لا ينبغي لها ان تخضع لوسيلة اقل دقة في النقل واقل رقابة عليها . واظهر الذين تعشقوا الادب لذاته ، مخاوفهم من ضياع فن النسخ الذي طالما أضفى العظمة والجمال على انبل الافكار بنسخها بالخطوط الجميلة وبالتشابك الرمزي البديع للحروف وعلامات التشكيل(٩) .. الخ . ومن الواضح ان العامل الاقتصادي لم يدخل في حسابهم ، على الرغم من ان قيمة نسخ

القرآن الكريم بريشة حافظ عثمان ، أو أي ناسخ مشهور اخر مساو له ، بحروف نسخية ، كانت تتراوح بين مائة ومائتين وخمسين جنيها ذهبيا(١٠) بل لعل هذا نفسه كان مدعاة للتمسك بفن النسخ ، كذلك لم تدخل في الحسبان ديموقراطية الثقافة وشعبية الفكر .

كان الوازع الديني هو المؤشر الاكبر وهو الموجه الفعال في دار الاسلام وفي بلاد المسيحية،ولكن شتان بين توجهه هنا،وتوجهه هناك ،كان اثره هنا جامدا . .وكان اثره هناك دافعا الى الامام . ولم يكن ذلك من جوهر الدين في شيء . ففي اوربا كان النزاع الطائفي والاقليمي ، كما كان صراعها السياسي وعلى راسها البابوية ضد الدولة العثمانية الفتية ، التي تمكنت من السيطرة على عاصمة المسيحية الثانية المتقدمة ، هو الموجه الاساسي .. وعلى الرغم من ان طبيعة الحكم لم تكن ، حينذاك ، لتختلف هنا كثيرا عنها هناك ، وكذلك عقلية رجال الدين ، الا ان ظروف اوربا الداخلية والخارجية كانت تعمل على توحيد اكثر المواقف بين رجال الدين والحكم . وعلى العكس من ذلك اكان العامل الديني في بلاد المسلمين من جهة ، ومصلحة الاعداد الهائلة من الناسخين من جهة اخرى ، العاملين الاساسيين اللذين اخرا الاخذ بفن الطباعة، وكانا سببا في كبح ارادة الدولة . ذلك ان ارتباط طائفة الناسخين برجال الدين بات يشكل عقبة في وجه أي تصرف يضير مصالحهم مالم يضمن موافقتهم . وطيلة قرنين من الزمان باءت بالفشل جميع المحاولات لادخال فن الطباعة العربية الى البلاد العثمانية . حتى تمكن اخيرا الصدر الاعظم ابراهيم باشا ، المثقف المتنور ، بنفوذه ، من استمالة السلطات الدينية ، التي انتقلت اليها السيادة وحالت دون استقدام اي اختراع اوربي ، لتوافق على ايجاد مؤسسة للطباعة في الامبراطورية العثمانية ، بعد ان قدمت للسلطان تقارير الموفدين الى اوربا التي تعتبر الطباعة اساسا لكل تقدم(١١). ومع ذلك نفد اضطرت الحكومة الى أن تقطع عهدا على نفسها يرضي الطرفين : اذ وعدت بانها لن تسمح بطبع الكتب الدينية ، وانها سوف تتكفل باعالة الناسخين . ولقطع الطريق على الاعتراضات وتسكينا للتعصب لجأ السلطان الى اخذ فتوى من شيخ الاسلام عبد الله أفندي* ، تجيز طبع الكتب غير الدينية ، هذه صيغتها :

* تذكر بأن السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد الخامس وعبد الحميد الثاني قد سقطوا نتيجة فتوى من شيخ الاسلام ، وان السلطان محمود الثاني لم يكن ليقوى على حل الفرق الانكشارية لولا الفتوى التي دعمته .

سـؤال :

« اذا كان زيد الذي يدعي انه ذو قدرة في فن الطباعة ، وانه يستطيع أن ينقش على القوالب اشكالا للحروف والكلمات من كتب في اللغة والمنطق والفلسفة وعلم الفلك وعلوم دنيوية مماثلة ويأتي لنا بنسخ لتلك الكتب عن طريق ضغط الورق على القوالب فهل يسمح القانون الوضعي لزيد بممارسة مثل حرفة الطباعة ؟ ...

انما نطلب فتوى في شأن زيد هذا وفي شأن الطباعة »

الجـواب : « والله أعلم »

« اذا قام شخص ذو قدرة على الطباعة بنقش الحروف والكلمات لكتاب مصحح على قالب بصورة صحيحة واتى لنا بنسخ كثيرة في مدة وجيزة بدون عناء عـن طريق ضغط الورق على ذلك القالب فان كثرة الكتب قد تقلل من ثمنها ويترتب على ذلـك زيادة اقتنائها وبما ان في ذلك فائدة هائلة فان هذا الموضوع جدير بالثناء العميم . وينبغي ان يعطى الاذن لذلك الشخص ، ولكن يجب ان يعين علماء لتصحيح الكتاب الذي سوف تنقش حروفه »(١٢) .

وعلى اثر هذه الفتوى صدر قرار سلطاني في ٥ تموز (يوليو) ١٧٢٧ باعتـماد طبع الكتب وبالتصديق على تعيين اربعة من المراقبين للاشراف على اعمال مكتـب الطباعة . وكان اول كتاب ظهر في عاصمة « الخلافة » الاسلامية العثمانية ، قاموسا تركيا ـ عربيا احتوى على نفس الفتوى وعلى موضوعات عن فوائد الطباعة اكتبهـا عدد من رجال العلم ذوي مكانة عالية في السلطة الدينية(١٣) .

وفي رأي الاستاذ ساطع الحصري ان أول كتاب طبعته « دار الطباعة » المؤسسة في « البلدة الطيبة قسطنطينية صانها الله من الافات والبلية » هو المعجـم المعروف « صحاح الجوهري » مع ترجمته التركية في سنة ١١٤١ هـ/(١٧٢٩ م)(١٤) .

★ ★ ★

والحقيقة ان فن الطباعة قد انتقل من اوربا الى الشرق قبل هذا التاريخ بكثير. وكان ذلك لاغراض دينية ، كما كان انتشار الطباعة باللغات الشرقية في اوربا لاغراض دينية بادىء الامر . وكما كانت اللغة العبرية هي اولى اللغات الشرقية التي نالـت

عناية المشتغلين بالطباعة ، ثم تلتها اللغة العربية ، كذلك كان دخول الطباعة الى بلدان الشرق على هذا الترتيب ايضا : اللغة العبرية ثم اللغة العربية . فقد انشأ اليهودي ربي اسحق جرسون اول مطبعة عبرية في الاستانة : جاء الى الشرق خصيصا لينشر بين اليهود كتبهم الدينية . فاحاطها اليهود بنفوذهم لضمان اطراد نجاحها وكان الاطباء منهم وكبار التجار على اتصال وثيق بأولي الامر في « دار الاسلام »(١٥) وقد ظلت هذه المطبعة تخدم الاداب العبرية زهاء ثلاثمئة سنة طبعت فيها ما يزيد على مائة كتاب في جميع العلوم والفنون ، الا ان اغلب ما طبع فيها كان كتبا دينية . وأول كتاب طبع بها هو ملخص تاريخ اليهود ليوسيفوس بن كربون ، وكان طبعه في سنة ١٤٩٠ م . كما قامت بطبع بعض الكتب العربية بالحروف العبرية لا بالحروف العربية ، ومنها بعض رسائل بن ميمون في الدين اليهودي ، وترجمة التوراة الى العربية لسعيد الفيومي عام ١٥٥١ م(١٦) .

وقد انشأ اليهود بعد مطبعة الاستانة مطابع عديدة ، كان اهمها مطبعة سالونيك في اوائل القرن السادس عشر ، وطبعت كتبا دينية وعلمية كثيرة ، منها خطب مدينا بن صموئيل سنة ١٥٢٠ م ، ومجموعة في الطب سنة ١٧٩٦ م . وتأتي اهمية هذه المطبعة من أن الحركة اليهودية العالمية كانت تعمل على تركيز جهودها فيسالونيك للتسرب منها الى الخلافة العثمانية ، وبالتالي لاحداث الانقلابات فيها ولا شك في قيامها بالدور المطلوب في كل ذلك .

وكانت مطبعة حلب اول المطابع العربية التي انشئت في الشرق وقد اختلف في أمرها كثيرا ، وبخاصة حول حروفها . الا ان المسلم به ان الذي أنشأها هو اثناسيوس الرابع البطريرك الانطاكي ، الذي رحل في سنة ١٦٩٨ الى بخارست وطبع هناك بعض الكتب الدينية باليونانية والعربية ، ولما عاد الى حلب انشأ فيها هذه المطبعة(١٧) ، وكان اول مطبوعاتها كتاب طقوس كنسية سنة ١٧٠٢ م ،ثم الانجيل في سنة ١٧٠٦ . وعلى كل حال فالمهم في الامر هو انتشار فن الطباعة بصورة رسمية لما له من علاقة وثيقة في النهضة الفكرية وبعث التراث واحياء التاريخ ... الخ .

وأيا ما كان الامر فان الطباعة قد بدأت رسميا في الدولة العثمانية بالقرار السلطاني (٥ تموز ١٧٢٧) ، وبفتوى شيخ الاسلام ، واخذت تنتشر في ارجاء الوطن العربي بعد ظهورها في الغرب باكثر من مئتين وسبعين عاما . ومع ذلك فانها في مدة قرن ونيف من الزمان اي من عام نشوئها رسميا الى عام ١٨٣٠ (باستثناء ما اخرجته مطابع الحملة الفرنسية ومطبعة بولاق) ــ لم يزد عدد مطبوعاتها على اربعة وتسعين

كتابا ، منها تقاويم اولى بها ان لا تحسب ، ناهيك عن رداءة طبعها لتآكل الحروف وعدم تغييرها ، وما كان يصيبها من تعطيل وصدأ او عدم وجود من يديرها(١٨). الخ فضلا عن ان عدد النسخ من اي كتاب طبع بها لم يزد على خمسمائة نسخة اذا استثنينا « لغاتي ومنقولي » و « تحفة الكبار في اسفار البحار » اللذين طبع من كل منهما الفا نسخة . ومع ذلك فحتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر لا نجد كتابا واحدا بين ما اصدرته مطبعة الاستانة والمطابع الاخرى في حلب والشوير وبيروت والقدس وبغداد والقاهرة ، يعطي فكرة عما يجري في بلاد الغرب وعن التطور الذي حدث هناك وعن التغيير الذي ألم بدوله ، منذ منتصف القرن الخامس عشر . في حين نرى العكس في بلدان اوربا : فانها كانت قد اصبحت على علم بكل مجريات الامور في بلادنا .. وقبل انشاء المدارس التبشيرية في لبنان وارساء اساس الجامعة الامريكية ، وقيام المدارس في عهد محمد علي باشا في مصر وابنه ابراهيم في سورية ، كانت البلاد ماتزال تسير في التعليم وتربية النشىء على نمط الكتاتيب والتكايا والجوامع ، ولا تعرف شيئا منظما عن الطرق الحديثة في التعليم ...

★ ★ ★

١ ـ الدكتور أبو الفتوح رضوان : مطبعة بولاق ، المطبعة الاميرية بالقاهرة عام ١٩٥٣ ص١ من المدخل . كذلك الاب لويس شيخو « أصول فن الطباعة » ، مجلة المشرق عدد ثاني عام ١٩٠٠ حيث يروى أنه شاهد نماذج من الورق الصيني مكتوبة بهذه الطريقة في المتحف البريطاني .

Hammer Purgstall: «Sur l'Art d'imprimer Chez les Arabes en Espagne » J. AS. 4ᵉᵐ Serie, T.XX P254

٣ ـ الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٦-٧

٤ ـ جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩١١ ـ ١٩١٤ ص٤

٥ ـ جورجي زيدان : المصدر السابق

٧ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ، ح١ ص ١٧ دار المعارف بمصر .

٨ ـ الدكتور أحمد جاب الله شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٥٠

٩ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ١٩

١٠ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي نفس المصدر السابق ص ٢١

١١ ـ سامي الكيالي : الحركة الادبية في حلب ص ٢٠٥

١٢ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ٢٠ ـ ٢١

١٣ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق .

١٤ ـ ساطع الحصري : آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ، دار العلم للملايين : مقالة تاريخ انتشار الطباعة في الدولة العثمانية .

١٥ ـ الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٩

١٦ ـ مجلة المشرق ، السنة الثالثة عدد ٤ ص ١٧٥ حيث يجد المستزيد بيانا باكثر هذه المطبوعات .

١٧ ـ يقول شنورر Schnurrer أن حروفها هي نفس حروف بخارست . ويخطىء ذى ساسى De Sacy رأيه ويقول أنه وجد خلافا كبيرابين حروف حلب وحروف بخارست . في حين يرى الاب لويس شيخو ان انتيموس الكاهن الذي قام بطبع الكتب للبطريرك في بخارست صحبه الى حلب حيث قام بصب الحروف على غرار حروف بخارست وعلم هذا الفن لاناس من حلب . ويروي جورجي زيدان عن جورج خياط أحد محامي حلب أن الذي حفر الاحرف وصبها هو الصائغ الماهر عبد الله زاخر الحلبي .

١٨ ـ تاريخ جودت: ترجمة عبد القادر افندي الدنا، بيروت ١٣٠٨ هـ ص ص ٨١ ـ ٨٤ حيث توجد قائمة مفصلة بالمطبوعات : الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص.ص ١٢،١٣،١٤ .